مقالات

فؤاد حداد

للشاعر

هشام السلاموني

جزيرة الورد للنشر والتوزيع

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : مقالات فؤاد حداد

المـــــــؤلف : هشام السلاموني

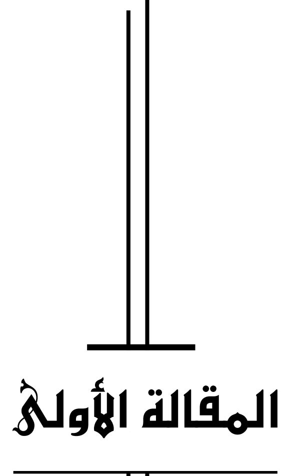
رقم الإيـداع :

الترقيم الدولي :

الطبعة الأولى 2010

الناشر : مكتبة جزيرة الورد

4 ميدان حليم ـ خلف بنك فيصل الرئيسي ـ شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا .



المقالة الأولى

- عرفته «مسحراتي»
- وقابلته «ثائرًا»
- وصاحبت فيه الإنسان

في الشاعر العاشق فؤاد حداد..

دق الفؤاد ولا دقش الحداد..

قال، المحبة وردتين وشاكوش..

وأنا دقت كله.. والعيون ما شكوش..

أصل الجنايني شوكها ما يشكوش..

يا مصاروه ما تنسوش..

فؤاد حداد..

هـ.س

○ **عرفت فؤاد حداد شعرًا جميلاً، لا يشبه أي شعر، وأنا بعد «صغير» وكدت أتعرف عليه «فتيًا». لكن حدث ما حدث.. وآه مما حدث.. ونجحت الظروف في أن تجمعنا معًا وأنا شاب، فلازمته ولم أتركه أبدًا. وأشهد أنني في المرة الأولى استمتعت الشيء الكثير. وأنني في المرة الثانية استفدت الشيء الكثير، أما في المرة الثالثة، فقد حرصت على أن التصق بفؤاد حداد لأنني وقعت فيه على كنزين متخمين، غير ثالث كان معي.**

كان معي حين نجحت في التعرف على فؤاد حداد كنز شعره، أو شعره الكنز، إذ كنت أطارد شعره في البرنامج العام للإذاعة (وكانت إذاعة الجمهورية العربية المتحدة من القاهرة، ثم صارت إذاعة جمهورية مصر العربية من القاهرة)، وهي تذيع «المسحراتي» في رمضان من كل عام، وحين أذاعت في «ألفية القاهرة» رائعته العملاقة «من نور الخيال وصنع الأجيال في تاريخ القاهرة»، وكنت أسعى وراء شعره في المكتبات ، التي لم أجد بها غير ديوانه «بقوة الفلاحين وبقوة العمال»، وديوان صغير ضم القليل من حلقات «المسحراتي» ، كان أشبه بكراسة من القطع الصغير ، أصدرته له الدار القومية للطباعة والنشر «والتي صارت فيما بعد الهيئة العامة للكتاب»، وديوانه المتخم بالأشعار «كلمة مصر» الذي أصدرته له «روز اليوسف» في السبعينيات هذا عدا قصائد قليلة نشرتها له «صباح الخير».

وبرغم قلة ما معي من أشعار فؤاد حداد «وهو كل ما نشر له في ربع قرن !!» إلا أن ما كان معي كان كنزًا حقيقيًا، شديد الثراء فنيًا، أكاد أحفظه عن ظهر قلب، أما الكنزان اللذان وقعت عليهما حين التصقت (عامدًا متعمدًا) بفؤاد حداد، فكان فؤاد حداد الشاعر الكنز، وفؤاد حداد الإنسان كنز الكنوز.

من ساعة تعرفت عليه، وأنا أمتلك الكنوز الثلاثة، إلى أن أجبرني القدر في يوم حالك السواد واختطف مني بقية باقية من كنز فؤاد حداد الإنسان.

فؤاد حداد «الشعر» الكثير منكم يعرفونه.

وفؤاد حداد «الشاعر» تعرفون عنه القليل.

أما فؤاد حداد الإنسان فقليلون من عرفوه.

وعن كنزين لم ينفتحا للقارئ العزيز سوف أكتب عن فؤاد حداد الشاعر الكنز، وعن فؤاد حداد الكنز الإنسان عن تصوراته للشعر، وآرائه في الشعر، عن مكابدته الشعر، وكتابته الأشعار، وعن إنسانيته التي كانت درجة رفيعة لم يصل إليها أحد قبله ولا بعده ممن رأيت.

ولأن فؤاد حداد الكنوز الثلاثة لم يكن يتفكك إلى عناصره الأولية «الشعر والشاعر والإنسان»، ولأنه كان يعيش مركبًا كيميائيًا يستحيل تفتيته من ناحية، ومن ناحية أخرى يفقد خواصه كالمركبات الكيميائية إذا ما تفككت، الأمر الذي لم يحدث له في أية ساعة في أيامه ، على أرض حبا عليها عاشقاً ، يقيلها في كل ثانية من عمره القصير الثري .. في الصحو والمنام، في السجن الطويل والحرية المأمولة، فلا مناص من الكتابة عن الثلاثة الـ « فؤاد حداد » معًا، وهو أمر لا يمكننا أن نؤديه إلا إذا أخترنا قالب الحكايات، حكايات تروى منفصلة، واحدة بعد أخرى، لتصنع فسيفساء بانورامية لشخصيةٍ وشعرٍ وشاعرٍ، والثلاثة بالغو الثراء والجمال.

وهذا ما سنحاوله..

أنا من غلب في الصبابة

أنا من غلب في الصبابة أمه العصافير

أنا من طلب بالربابة والغنا وصفافير

مرسال حنين وقاطع تذكرة وسفير

من قبل ما يصوتوا في قلبي يتوطوطوا

جوزين كناريا وبلابل سود على فرافير

ضربوا الجناح بالجناح والحيطة بالحيطة

قادرين نلاقي صفار الشمس في البيضة

ف.ح

(1)
عرفت فؤاد حداد

دخل أخي طارق (أستاذ جراحة المسالك البولية الآن بجامعة الأزهر) حجرتنا الوسيعة ، في بيت أبي بجاردن سيتي ، فوجدني أترنم بكلمات ساذجة، سألني: لمن هذه الكلمات؟ ، قلت مندهشًا لاهتمامه بها أقول: إنها كلماتي، أخذني أخي من يدي إلى أمي، وقال في فرحة عامرة: هشام يقول شعرًا يا ماما! ، من يومها، وكنت أكاد أتم الثامنة من عمري، اهتم أبي بتدريبي على الشعر في محاولة دؤوب لأن أُلم بموسيقاه، محترمًا محاولاتي المتعثرة، ونافخًا فيها الفرحة والثقة، وكان رمضان من كل عام فرصة، بل أكثر من فرصة، للتدريب الدؤوب، فنحن فيه نتجمع - الإخوة الستة و أمي و أبي و تانت نفيسة - لوقت طويل على مائدة الإفطار، حتى تصدح أمال فهمي بفوازير بيرم التونسي.

كان أبي عاشقًا لبيرم التونسي، وكان هو أستاذ اللغات الأوروبية القديمة بجامعة عين شمس، ثم جامعة القاهرة، والذي أعد ماجستيره في إنجلترا - أكسفورد - عن الأدب السكندري في العصر الهلينيستي، والدكتوراه عن شعر الإبيجرامة (شعر المقطوعات الذي بدأ كنقش على أحجار النُصُّب والمقابر، وأخذ من ذلك اسمه قبل أن تتعدد أغراضه، ويبتعد عن الأحجار)، والذي وصل - شعر الإبجرامة - إلى أعلى درجاته مع الشاعر الفذ «مارتياليس»، كان أبي المتخصص في «مارتياليس» يرى أن بيرم شاعر لا يقل عظمة عن الشاعر السكندري القديم، الذي تفوق كبيرم التونسي في الهجاء الاجتماعي والسياسي، وأراد لي أبي - الشاعر الذي قسا على موهبته في سبيل أداء دوره التعليمي في الجامعة - أن أتدرب على الشعر بقراءة الأشعار العبقرية لبيرم، وقد فعلت، وبعدها لصلاح جاهين الذي كان ملء السمع والبصر، وقد فعلت ، و كنت مسرورًا مشبعًا في الحالتين، بينما اكتشفنا في الإذاعة - أبي و أنا - شاعرًا جميلاً اسمه «حسين طنطاوي»، رأيناه عبقريًا، وأراه - إلى الآن - لم يأخذ حقه ، كان يجيد الكتابة على القوالب الشعبية (الراوي / الأدباتي / ..) بفصحى سهلة وجميلة ومتدفقة، كان هؤلاء الثلاثة أساتذتي وكنت راضيًا عن تلمذتي لهم لسنوات، وفجأة وقعتُ بيدي - لا بيد عمرو - في أسر فؤاد حداد.

كان رمضان والستينيات تكاد تشرف على منتصفها يجيء في شتاء قارس البرودة، الأمر الذي جعل الصوم من غير سحور أرحم من الاستيقاظ، ومغادرة الفراش الدافئ، و«التكتكة» حول مائدة السفرة، لكن الأهل لحسن الحظ لم يكونوا يسمحون لنا بأن نصوم بغير سحور، وذات ليلة وأنا أرتعش من شدة البرودة، وأتمنى أن أنهي سحوري بأي شكل لأعود إلى الفراش، انطلقت من الراديو دقات طبلة ، تواصل بعدها انهيار شلال من الموسيقى الجميلة، يتدفق بكلمات في غاية العذوبة، نسيت البرد وتكتكاته، ولم أعد إلا أذنًا تريد ألا تفلت كلمة من الكلام، وفجأة توقف الشلال وأوضح المذيع أن ما قدم كان «المسحراتي» من تأليف فؤاد حداد، كان انبهاري عظيمًا، لقد كان الشعر الذي استمعت إليه ـ لا يشبه أي شعر، كان عجينة موسيقية ، مخبوزة من كلمات عميقة، و مسواة على حرارة وطنية عروبية إنسانية ، هكذا تصورته وقتها، إذ لم أكن أعرف بعد ماهية الموسيقى «داخلية وخارجية» وما يفعله تلاحق القوافي المتقن في بحر شديد القصر ـ «فعن فعولن» أو «مستفعلاتن».

الخلاصة تيمت بالمسحراتي، وعندما علمت من أختي الدكتورة أسماء الآن ـ شديدة الطيبة ـ التي كانت تسهر لتلاحق علوم الطب المتخمة بمذاكرة لا تنتهي إلا عند الفجر، أن هذا المسحراتي يذاع يوميًا. رفعت أمام قلبها الرقيق سبابة التهديد كمدلل، ورحت أهزها في الهواء مقسمًا بأنني لن أتسحر مهما كان إلا إذا أيقظتني قبل المسحراتي، وأحمد الله أنها انصاعت بطيبتها لتهديدي، وهكذا لم يفتني «مسحراتي» من يومها.. والفضل.. كل الفضل لقلب أختي العطوف الذي أقلقته إمكانية أن انفذ تهديدي، أصوم دون سحور.

«شفتك يا فارس يا غني يا أصيل

شفتك يا سهار ـ النهار ـ بالليالي

يا منحني وماسك دولاب الفنون

بقانون تقسمني .. وببسط ترسمني

وأكبر تسمسمني.. وأتوه تجيب لي دليل.

ف.ح

(2)

قابلت فؤاد حداد

كان عام الحسم يكاد ينتهي وتغلق السنة 1971م نوافذها ليبتلعها الظلام، ويولد العام الجديد، وكنا مجموعة من الطلاب الجامعين التقينا من كليات مختلفة، في مشروع لمحو الأمية، في مدينة «قها»، نتحرك وسط القوى السياسية باحثين عن خلاص من الحيرة، وبشائر للفعل، وذهبت مع حسام سعد الدين إبراهيم (الطبيب الشهير الآن في لندن والمتخصص في أطفال الأنابيب) إلى مجلة الطليعة لنقابل الأستاذ ميشيل كامل ـ رحمه الله ـ مدير تحريرها، كنت وقتها قد قضيت سنتين أنشر أشعارًا في مجلات حائط بالكلية لا تصدر إلا بعد أن تراجعها الإدارة، وكنت قد يئست بعد عرضي أشعارًا على مجلات عديدة رفضت نشرها ربما لأننا بعد نكسة يونيه 1967م أصبحنا جيلاً لا يستطيع مداراة غضبه، ويرى الخيانة كل الخيانة في أن يحاول هذه المدارة، فجمعت أشعاري في ديوان صمم رفيق الدرب أحمد بهاء الدين شعبان الطالب بكلية الهندسة وقتها، والكاتب السياسي اللامع الآن ، على أن يكتبها بخط يده ضمن تشكيل من رسوماته، بحيث يصبح الاثنان الكلمات والرسومات« عنصري تشكيل في لوحة واحدة على كل صفحتينمن صفحات الديوان (الديوان قبض عليه حين قبض على أحمد بهاء الدين شعبان بعد أن تفجرت حركة الطلبة، واندلع أوارها، ولم تفرج عنه المباحث أبدًا، وإن حمدت الله على أنهم أفرجوا عن أحمد بهاء بعد لأي وقضية!)، قال لي حسام ـ وقتها ـ :هذه فرصة لتعرض أشعارك على مجلة «الطليعة» ولها الآن (أيامها) ملحقها الأدبي، فكان أن أخذت قصيدتين ـ من الديوان ـ معي وذهبت معه.

تكلمنا يومها مع الأستاذ ميشيل كامل في الأوضاع العامة، وقرر أن يعقد ندوة تضم عددًا من الطلاب المهتمين بالسياسة في كليات عديدة، تنشر الطليعة ما يدور فيها من حوارات (الأمر الذي تلاحقت الحوادث بعده ولم يتم إلا وقد انقضت شهورة عدة)، ولما عرض عليه حسام قصيدتي، قرأهما في إمعان، وحدق فينا من فوق نظارة القراءة وقال: جميل جدًا، ولكن هناك مشكلة.

تصورت تصورت وقتها أن المشكلة هي ما يصادفني كلما عرضت أشعاري في دار صحفية، لكن الأستاذ ميشيل أردف بعد لحظة صمت أججت تصوراتي.

المشكلة أنني لا أفهم في الشعر، ولكن فؤاد حداد معنا هنا في الطليعة، وأريد أن أعرضهما عليه.

صحت في فرحة غامرة :

ـ الأستاذ فؤاد حداد هنا؟!

أرسل الأستاذ ميشيل يستدعى فؤاد حداد، ولا أستطيع الآن أن أصف فرحتي وقتها حين تأكد لي أنني سأقابل «المسحراتي»، سأقابل من كتب «من نور الخيال وصنع الأجيال في تاريخ القاهرة»، سأقابل من كتب «أزرع كل الأرض مقاومة» و«حي معايا الخطوات» و«مصر مصر.. تحيا مصر».

نسيت المكتب ومن فيه، والتصقت عيناي بالباب، الذي سيدخل منه الأستاذ، ورأيته بعيني خيالي رجلاً فارع الطول عريض الكتفين يخطو نحوي و في جبينه نور وهاج، وعلى وجهه ابتسامة العارفين، وخلت الوقت طويلاً طويلاً يمر بي ولا ينقضي.، وفجأة دخل الحجرة رجل ضئيل الجسد، جميل الوجه، له عينان نافذتان، وجبين مقطب، وجلس، ولابد أنني كنت مازلت أنتظر دخول فؤاد حداد، إذ فاجأتني كلمات الأستاذ ميشيل كامل وهو يشير للرجل طيب الملامح الذي جلس كطير أليف رقيق حط على غصن وضم جناحية.

ـ الأستاذ فؤاد حداد.

أنشغلت بالترحيب بفؤاد حداد، وكان يهز رأسه في أدب جم ولا يقول إلا «شكرًا» بينما التقطيبة ، الغريبة عن وجهه، لا تفارق ملامحه، كنت قد نسيت أمر قصيدتي ـ حقًا لا قولاً ـ حتى ذكرني بهما الأستاذ ميشيل وهو يمد يده بأوراقي طالبًا من فؤاد حداد قراءتها، وبدأ فؤاد حداد يقرأ في عمق شديد.

«يا الله.. أكل هذه القوة ، وكل عوالم الشعر الموارة ، والأحلام الصاخبة ، تكمن في جسد الطائر جميل الملامح، رقيقها، مضموم الجناحين هذا؟!».

فجأة ـ وفؤاد حداد يقرأ القصيدتين ـ خطرت على بالي فكرة أدهشتني، كيف أصبحت أكتب الفصحى، وأساتذتي كلهم، وقد صار فؤاد حداد على رأسهم، من كتاب العامية؟! (لم أعرف إجابة عن سؤالي ذلك إلا بعد عشر سنوات ومن فؤاد حداد نفسه)، كان فؤاد حداد يقرأ قصيدتين فصحيين لي (وكان العامية لا تفصح!) ما أذكره منهما (بعد بقاء الديوان في الأسر الأبدي) كلمات قليلة، من الأولى أذكر:

«إلى الماضي مراكبنا

وفي الماضي مراسينا

فإنك إذ تلاقينا

ستلقانا

نسمم بئرنا الملعون كي نشرب

وننشد غنوة التاريخ لا نتعب

ولا نشتاق ..

لا نهفو..

ولا نرتاد ..

فمن تيه إلى تيه

إلى صمت يغذيه

إلى موت بلا ميعاد .. ».

وما أذكره من الثانية:

«حين تشاهد بسمة رجل في الطرقات العارية المأسورة

تعرف أن البسمة حمقاء ومقهورة

أو خائفة مأمورة

أو أن الشفة السفلى ـ بعد مرور قطار الرعب الأهوج ـ مكسورة».

أنتهى فؤاد حداد من قراءة القصيدتين، ولم تنفك تقطيبته، وأعاد الأوراق إلى الأستاذ ميشيل كامل دون أن ينبس بكلمة.

سقطت من حالق، اتخبط في غياهب بئر عميق من الحيرة، وفي قاع البئر جائني صوت ميشيل كامل يتساءل:

ـ ما رأيك يا فؤاد؟

وجاءني رد فؤاد حداد؟

ـ الشعر «موزون، وفيه صور.. وفيه خيال.. وفيه صوت شاعر، موش ده اللي أنتو عايزنه؟!

ومن قاع البئر ـ حقيقة لا مجازًا ـ تساءلت والتقطيبة في وجه فؤاد حداد تقتلني:

ـ ألم تعجبك القصيدتين يا أستاذ فؤاد؟

في تلك اللحظة تطاير الريش من على جسم فؤاد حداد، وتحول بياضه إلى حمرة قانية، وانفجر بركان تصاعدت حممه لتغمرنا جميعًا، وتطايرت فب كلمات غاضبة:

ـ ماذا تريدون.. أتريدون أن تقتلوها.. ألا تستطيع عيونكم أن ترى الأخضر؟ كل واحد سانن أسنانه ونازل عض في الأمل.. لمن تمهدون الطريق؟.. إذا قُتلت لا تزعموا أن غيركم قاتلها.

ولم يتوقف فؤاد حداد عن قذف الحمم، وأصابتني رعدة، داهمني الندم، أهذا حصاد لقاء حلمت به، وتمنيته طويلاً، حاولت أن أتمالك نفسي، وحين ظننت أنني فعلت، لم يكن فؤاد حداد بالحجرة، وكان ميشيل كامل يحاول أن يطيب خاطري، لكنني في لحظة لم أعد أنا الآخر في الحجرة، كنت أجري وراء فؤاد حداد ـ الأمر الذي لم يحدث لي مع غيره أبداً ـ أنادي عليه واستوقف خطواته الرشيقة المهرولة ، توقف واستدار، وقد زادت تقطيبته، وعيناه تعطيانني إحساسًا بأنهما لا ترياننى:

ـ عايز إيه.. أنا قلت لهم إن الشعر كويس.

وفجأة، بما اختزنته له داخلي منذ عرفت شعره، قلت:

ـ عايز «دقة شاكوشي/ ما تقلقوشي/ جت في الأوان/ عجوز شوية/ لكن عينيه/ جوزين حنان» وعايز «محمد عبيد».

قال فؤاد حداد وفي صوته مزيج من الدهشة والغضب:

ـ عايزهم إزاي؟!

ـ عايز أسمعهم من حضرتك.

فجأة همد البركان، فجأة اختفى اللون الأحمر اللاهب، فجأة عاد الريش يكسو جسد الطائر الجميل، أختفى الغضب وبقيت الدهشة :

ـ وأنت تعرفهم منين.

قلت ضاحكًا:

ـ قالهم لي «الشهيد الإيراني».

وأكاد أجزم الآن أنني لمحت ضحكة تريد أن تنفجر من بين شفتيه المنفرجتين، وقال في طيبة ملائكية:

ـ ولما أنتو عارفين الحاجات دي.. بتكتبوا الكلام اللي بتكتبوه ده ليه؟، البلد موش ناقصة، واللي ناويين ينقضوا على الأخضر خفافيش كتار.

الآن ـ وأنا أكتب هذه الكلمات ـ أظنهم اندهشوا وهم يرون فؤاد حداد يعود معي إلى الحجرة وقد أنفكت التقطيبة التي جاءنا بها، ولازمته معنا، (والتي عرفت سرها بعد سنوات، وسأحاول شرح أسبابها في الحكايات) أظنهم، فلم أكن أرى أحدًا وقتها غير فؤاد حداد.

عاد الطائر الجميل، وحط على الكرسي، وبدون دعوة من أحد راح يتكلم، وأظنه كان يقصد بكلماته إليّ وحدي.

ـ المصيبة التي حلت بالبلد لم تجعلني أفكر في لحظة أن أكتب «بالسكين».

كان يقصد نزار قباني كما فهمت لحظتها، وكنا نعجب بهوامشه على دفتر النكسة:

ـ لم أهون منها، قلت: «أزرع كل الأرض مقاومة»، وقلت: «إن كان سجن تهد السور وإن كان ضلمة تمد النور»، لكن لم أطعن الأخضر، وقلت «حيى معايا الخطوات» يعني ما تنقضوش على الإنجازات، زي الناس المنتظرين.

وبناءً على طلبنا جميعًا صدح فؤاد حداد ـ في إلقاء لم أسمع له مثيلاً من قبل ، إلقاء يفتت قلبه ، ويلقي «فتافيته» في وجدان سامعه ـ بالقصائد التي طلبتها منه (إحداهن من المسحراتي، والثانية من «نور الخيال»)، واكتفى بمقطع من الشهيد الإيراني (من ديوان بقوة الفلاحين وبقوة العمال«، لأنها طويلة.

غادرنا الأستاذ فؤاد بعد أن أكمل إنشاده، وسلم عليّ في حنان، و عيناه تضجان بعتاب مؤلم .

هكذا انتهت المقابلة دون أن تعطينا الفرصة لنصبح صديقين.

أنا كنت صاحب فرح

وكنت صاحب أنين

وترجمان الحنين

ف.ح

(3)

صادقت فؤاد حداد

مرت سنوات عديدة كان لقائي بفؤاد حداد قد غير فيها نظرتي للشعر، وبدأ هذا التغير واضحًا في القصائد التي كتبتها عن حركة الطلبة، والت نقلتها من على الحائط مجلات فلسطينية وكويتية «تنتمي لليسار»، ومجلة الجامعة الأمريكية «الربابة»، بعدها أخذني بكالوريوس الطب والامتياز والنيابة (وظيفة «نائب» الطبية)، وتجنيدي كضابط احتياط، ولم أعد للشعر إلا حين تزوجت وأرهقتني تكاليف الحياة، أثناء التجنيد، فكتبت مسلسل «الزير سالم» وأشعاره بعد ست سنوات من صمت شعرمؤلم ، وقد قادتني كتابة المسلسلات للتعرف على الكاتب الكبير أحمد بهجت، والاشتراك معه في إعداد مسلسل من كتابه «الحيوان في القرآن» (كان السيناريو لي والحوار العذب له) ، كتبنا ثماني حلقات، ورأى المخرج «الدكتور عبد العليم زكي» و الأستاذ أحمد بهجت أن تضم كل حلقة أغنية عامية، فقد كان حوار المسلسل عاميًا، ويبدو أن اتفاقًا تم بين الأستاذ أحمد بهجت والمخرج، لم أطلع عليه، والأستاذ أحمد بهجت كان عاشقًا لفؤاد حداد وشعره، وكان واحدًا من اثنين ـ لا ثالث لهما غيري ـ كتبا عن فؤاد حداد ومعجزته الفنية «من نور الخيال، و صنع الأجيال في تاريخ القاهرة»، فقد تجاهل النقاد ـ كل النقاد ـ شعر فؤاد حداد، الذي لا ترضى السلطة عن كاتبه، وابتعدوا عن الشر وغنوا لآخرين، وكان الأمر بقدر ما يؤلم فؤاد حداد جميلاً يحمله للاثنين الأستاذ أحمد بهجت والأستاذ خيري شلبي (عندما نشر فؤاد حداد ديوانه من نور الخيال وصنع الأجيال في تاريخ القاهرة، وضع على غلافة الأخير مقتطفين مما كتبه أحمد بهجت وخير شلبي عن أشعاره، وقد طالب الأول بتقريرها «على طلبة المدارس بدلاً من الشعر السخيف الذي يكتبه نظامون ووزانون يفتقرون إلى الموهبة»، وكتب الثاني أن فؤاد حداد «عُنى بتسجيل تاريخ الضمير المصري الحديث فما تدري وأنت تسمعه إن كان صوت التاريخ، أو صوت الناس، أو صوت الضمير، في مواجهة العالم الزاخر بالعدوان). ولقد فوجئت بالدكتور عبد العليم زكي فنان الرسوم المتحركة ومخرجها وهو يكلمني بأدب جم عرف عنه :

ـ نريد أغنية في كل حلقة، ما رأيك؟ ..

ـ ستكون جيدة لو أن كل حيوان غنى عن نفسه ..

ـ هذا ما أفكر فيه.. ومن تظن أن نوكل إليه أمر تأليفها ؟ ..

قلت متشبعًا بالفكرة دون أن أتمعن في إجابتي:

ـ أكتبها أنا.

و وصل أدب عبد العليم زكي ذروة عالية..

ـ ما رأيك.. أنت وسيد حجاب.

قلت لأسباب تخصني :

ـ أنا وحدي ..

قال:

ـ ما رأيك أنت وصلاح جاهين؟

قلت لأسباب تخص إنتاج صلاح جاهين الجميل والوفير.

ـ أنا وحدي.

ولا بد وأن الدكتور قد أخفى دهشته لإصراري، وأردف متسائلاً في أدب:

ـ الأغاني كثيرة، وأنت منشغل بسيناريو الحلقات، فما رأيك لو كتبتها أنت وفؤاد حداد.

ودون تفكير رددت.

ـ فؤاد حداد وحده ..

بعدها بأيام جاء الطائر الرقيق إلى مكتب الأستاذ أحمد بهجت في الأهرام، وبصوت شديد الخفوت حكى الدكتور عبد العليم لفؤاد حداد الحكاية، وفجأة أنطلق الأستاذ أحمد بهجت يقص نفس القصة التي لا بد وصلته عن طريق المخرج بقهقهات مجلجلة، وفؤاد حداد لا يقول إلا شكرًا.. وفي هذه اللحظة أيقنت أن اتفاقًا كان قد تم بين الأستاذ أحمد بهجت الذي كتب له فؤاد حداد مقدمة غاية في الروعة لمسلسله «مذكرات صائم»، وبين المخرج على أن يكتب فؤاد حداد الأغاني، وأنني وقعت في الفخ الذي نصبه لي المخرج بأدبه الجم .

يومها أوصلت فؤاد حداد إلى بيته (الذي أسكن قريبًا منه)، وفي الطريق سألني:

ـ لماذا قلت أكتب الأغاني وحدي؟

ـ قلت دون تفكير.

ـ لأنك الأستاذ فؤاد حداد.

ـ شكرًا.

وكان أمري صعب عليه، عاد بعد دقائق ليتساءل:

ـ الأغاني كثيرة.. فلماذا لا تكتبها معي.

قلت:

ـ أنا أحبك، فهل تقبل أنت لي أن أدخل في منافسة خاسرة مع شعرك الأجمل؟.

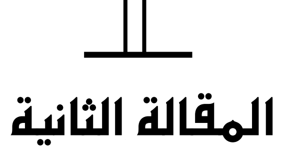
ـ شكرًا.

ووصلنا إلى البيت، ووجدته باشاً يدعوني لأن أشرب شايًا معه في شقته، ودون تفكير امتدت يدي تفتح الباب وأنا أقول :

- «شكرًا»..

وطلعت مع فؤاد حداد إلى بيته، ولم يستفد فؤاد حداد شيئًا من موقفي، فقد تغير المسئول عن إنتاج المسلسل، ومات المشروع، بعد أن كتب فؤاد حداد أربع أغان ، ضمتها دواوينه فيما بعد، لكنني استفدت كثيرًا، استفدت صداقتي لفؤاد حداد، أو على الأقل رفقة له لا تنقطع، واستفدت هذه الحكايات التي سأرويها لك لترسم أمام عينيك صورة للثلاثة الـ فؤاد حداد «الشعر والشاعر والإنسان». وكل منهم أجمل من الآخر، وأعظم من الآخر..





قصة الحوار الصحفي الوحيد والفريد الذي أجراه فؤاد حداد طوال حياته

يا ذاكرة الشعب المصري

أنا دايمًا مخلص وجميل

أنا واضح زي الأحلام

مش شرط يقيموا التماثيل

أنا طينك يا مصر ومائك

وبا أكلم نفسي باسمائك.

ف.حداد

- **تحمس لإصدار عدد عن بيرم التونسي في «صباح الخير»، ولكنه رفض المشاركة فيه غضبًا من مؤسسة «روز اليوسف».**
- **قال لي: بيرم وأنا من أكثر الشعراء فهمًا للفصحى وأقرب للسليقة اللغوية من شعراء فصحى مهمين قوي.. وقال: اتهامي بالعداء للقومية لأنني أكتب بالعامية اتهام ظالم.. مين اللي قال: «الأرض بتتكلم عربي».**

ليس لفؤاد حداد شاعر مصر العظيم حديث صحفي أو إذاعي أو تليفزيوني غير هذا الحديث الذي أُخترت ـ قدريًا ـ لأجريه معه في يناير 1982 «أي منذ واحد وعشرين عامًا وشهور تسعة»، ولم ينشر في حينه.

ليس لفؤاد حداد حديث غير هذا الحديث لأسباب كثيرة!!، أرجو أن توضحها الحكايات، أولها ذلك الحصار الإعلامي الظالم الصارم الذي فرض على عبقرية شعرية لن تتكرر (وقوس ليس صغيرًا من دائرة الحصار كان للعجب العجاب من صنع رفاقه في النضال)، وثانيها أسباب من صنع فؤاد حداد نفسه، من فعل انصياعه الدائم لأوامر تفرضها عليه كرامته، ولقد كنا نرى في كرامته أغلى ما يملك، وكان يراها هو كل ما يملك.

في هذا الحديث كثير من الإشارات البراقة التي ترسم صورة الثلاثة فؤاد حداد «الشعر، الشاعر، والإنسان» وعلاقاته بمن يحبونه.. ويحبهم.

واعترف أنني ترددت كثيرًا في أن أبكر بكتابة حكاية الحديث، وينشر ـ الحديث نفسه في بداية الحكايات، لكنني غالبت ترددي (وها أنا ذا أفعلها)، لأنني اقتنعت بأن الحديث بإشاراته البراقة سيكون ضوءًا ترى الحكايا أكثر جلاءً به عندما أرويها.

و لهذا الحديث حكاية لابد وأن أرويها..

أما حكاية هذا الحديث، فتبدأ في مكتب الأستاذ لويس جريس رئيس تحرير مجلة «صباح الخير» في ذلك الوقت، بعد أن أعتزم أن يقدم عددًا خاصًا من صباح الخير عن شاعر العامية العبقري بيرم التونسي، كانت الفكرة ـ فيما أظن ـ للفنان محمد بغدادي، وتحمس لها الأستاذ لويس، وأشار عليهم الأستاذ لويس بأن يأخذوا رأي فؤاد حداد في كيفية إنجاز العدد، وذهب محمد بغدادي لفؤاد حداد في بيته، وتحمس الأستاذ فؤاد حماسًا منقطع النظير، وظل يردد أمام الجميع طوال وقت التجهيز، أن أفضل ما يفعلونه من أجل بيرم هو أن يتضمن العدد من أشعار بيرم ـ نفسه ـ الكثير.. الكثير.. واقترح أن تضم كل صفحة من صفحات العدد مربعًا أو مستطيلاً يضم سطورًا منتقاة من القصائد البيرمية، وأشهد أمام الله والقراء أن حماس فؤاد حداد أذهلني، وأنني تعلمت من حماسه ذلك الشيء الكثير.

وبينما كنت أسلم للأستاذ لويس قصيدتي التي نشرت في العدد، فأجاني بسؤال:

ـ أنت كمان موش ح تقدر تجيب لنا من حبيبك حاجة للعدد؟

واندهشت للسؤال، فأنا عاينت بنفسي مدى حماس فؤاد حداد للعدد، إيه الحكاية إذن؟ وقال الأستاذ لويس: إنهم حاولوا مع فؤاد حداد أن يكتب شيئًا لعدد بيرم التونسي، لكنه رفض.

و ذادت دهشتي .

وذهبت إلى فؤاد حداد استفهم موقفه، وفوجئت به يتكلم في ألم عظيم:

ـ شوفوا أنا تحت أمركم في أي حاجة تخلي عدد بيرم أحسن الأعداد اللي أخرجتها الصحافة، ولكن أنشر حاجة في «صباح الخير».. لا..

فهمت مباشرة أن موقف فؤاد حداد كان من المجلة نفسها، بل من مؤسسة «روز اليوسف» ككل، والتي لم تقدره حق قدره ماديًا عندما عين فيها ـ بعد لأي ـ في نهاية السبعينيات (وهذه حكاية سوف تتضمنها الحكايات)، وأن مقابلة أخيرة مع الأستاذ لويس دار فيها ما لا أعرفه بالضبط، كان من نتائجها أن رفض فؤاد حداد أن ينشر شيئًا في ذلك الوقت في مجلة تساعد على ظلمه وظلم موهبته.

قلت لفؤاد حداد:

ـ موقفك إذن من المجلة، وليس من بيرم.

قال في غضب:

ـ كيف يكون من بيرم؟

وأردف في أسى كبير:

ـ أنا لن أخذ حقي إلا لو بيرم أخذ حقه.. وحق موهبته..

ورحت أطيب خاطره، وأقول له:

ـ من غير المتصور يا أستاذ فؤاد أن يصدر عدد من بيرم التونسي ـ وليس فيه ما يقوله فؤاد حداد عن بيرم، الناس ستفهم الأمر خطأ.

وبعد لأي، ولكي لا يتراجع فؤاد حداد عما اعتزمه وصرح به، وافق فؤاد حداد من أجل عيون بيرم على أن أعد معه حديثًا صحفيًا يوضح رأيه في بيرم التونسي.، وأصيغه بمعرفتي، فكان هذا الحديث.. وكان الحديث حديثه الصحفي الوحيد ..

و هذا هو نص الحديث :

فؤاد حداد مدينة بلا أبواب

أن تصنع حديثًا صحفيًا مع فؤاد حداد فهذه هي المشكلة السهلة!، أو السهولة المشكلة!.

ففؤاد حداد مدينة بلا أبواب .

مدينة من السهل أن تدخلها ومن الصعب جدًا ـ أيضًا ـ أن تدخلها أليست مدينة بلا أبواب؟!

من السهل أن تقتنع أنك بداخلها، ومن الصعب جدًا أن تتأكد أنك أجتزت حدودها وصرت بالداخل، ومرة أخرى أليست مدينة بلا أبواب؟!

«هذا الكلام ينطبق على فؤاد حداد الشخصية «الإنسان» لكن فؤاد حداد «الشعر» مدينة بمجرد الوصول إليها يصبح الجميع ـ أقول الجميع ـ داخلها دون ذرة من عناء، وبرغم أن فؤاد حداد الشخصية «الإنسان» مدينة بلا أبواب، إلا أنك ـ سواء دخلتها أو وقفت على حدودها فسوف تنال كل ما فيها من إنسانية، وإنسانية المدينة «الفؤادية الحدادية» إنسانية مطلقة، إنسانية مشاع، إنسانية تهب الجميع ما فوق التوقع والحاجة، إنسانية موهوبة بلا انتهاء ولا حساب».

فؤاد حداد الإنسان مدينة بلا بواب .

ومرة أخرى نعود إلى «المشكلة السهلة» أو «السهولة المشكلة». ونحاول أن نصنع حديثًا صحفيًا مع فؤاد حداد، وقلوبكم وأيديكم معايا.

سنحاول أن نخترق الأثير شديد التهذيب القائم كسياج من حوله، سياج يحترم الذات ـ التي يضمها ـ في وقار يقطب ويبتسم، فإذا كان الوقار مقطباً توقفنا وأدرنا دفة الحديث، وإذا كان مبتسماً انطلقنا بلا توقف بينما نحاذر كل الحذر من التمادي.

إنك تجلس إليه فتجالس نسيمًا مهذبًا سارحًا في صمت، أو في صوت عال، في ملكوت خاص، و هو يمتلك جاذبيةآسرة ، تأخذك في صمته، وتأخذك بسر-حانه الجميل ذي الصوت المسموع (أقول الصوت المسموع، لأفرق بينه وبين الصمت، فصمت فؤاد حداد هو الأخر مسموع)، وفي كل الأحوال سوف تستمتع ـ من نسيمة شديد التهذيب ـ بطلاقة، بطراوة، بطلاوة، (و بالمناسبة غضب فؤاد حداد هو غضب يشبه العضب! ويشبه النسيم).

المشكلة اليوم أنني لا أستروح.. لا أستمتع.. لا أنهل من الكأس المترع جمالاً، المشكلة أنني أصنع حديثًا، وعليّ حتى لا أستروح ألا أستريح، عليّ أن أحصل من الكأس على ما أريده أنا.. لا ما يهبه من عسل لا تستطيع إلا أن تستطعمه.

ما أريده هو رأيه في بيرم

والقارئ لا يعلم أن فؤاد حداد «الفريرة» في إبداء الرأي داخل حدود قصائده (التي هي بلا حدود)، عندما تطلب منه رأيًا للنشر، يجيبك في البدء بصمت سارح، ثم بتقطيبة النسيم، التي تعني التفكير العميق، بعدها يهز رأسه، ويعمل ألف حساب لرده، ثم يقول (في النهاية يقول!!) : إن الموضوع يحتاج إلى دراسة.. والدراسة تحتاج مصادر.. والمصادر ليتها كانت تحت يدي...

إيه الحكاية؟!، فريرة عندما يكتب شعرًا، وقصائده مدججة بالآراء، قصائدة ترسانات رأي متجردة للعيان، ومتلفعة ـ في نفس الآن ـ بفنيات لا تستطيع حصرها، منها الغموض الفني المنفتح مباشرة على الوجدان.. والحديث مشكلة !!.

ويبتسم النسيم ويجيب:

ـ أنا شـاعر.. فؤاد حداد شـاعر.. وشاعر يعني ما يعرفش يعمل حاجة غير الشعر.

وأبتسم وأقول:

ـ وشعر حضرتك موش أي حاجة.

ويلتقط كعادته خيط النكتة ضاحكًا من قلبه.

ـ لأ.. ده حاجة.. حاجة تانية خالص.

وأقرر في جدية:

ـ دا حاجة كبيرة قوي.. قوي.

ـ شكرًا.

وأتأكد في هذه اللحظة أنني «نكشت» فؤاد حداد.. وأنـه سـيتكلم.. وأننـي سـألتقط مـن كلماتـه الحديث الصحفي.

أمد يدي بورقتين تخشيان جَرحَ النسيم:

ـ هل يمكن أن يكون هذا الكلام مقدمة لحديثنا؟

يلتقط النسيم ورقتي.. يقوم لينير اللمبة « المائتين » المدلاة تحت النجفة «و التي لها «زر خـاص» فيغمر الحجرة نور باهر، ويبحث عن النظارة بين أكوام من شعره (نعم أكوام من شعره.. اللهـم لا حسد) موضوعة على الخوان، ويقرأ ما أتصوره مقدمة للحديث في إمعان.

وهذه هي المقدمة التي قرأها فؤاد حداد..

فؤاد حداد.. ولا تستغربوها.. هو الامتداد الطبيعي لبيرم..

امتداد بيرمي حقيقي في الزمان والمكان .. و لا تستغربوها..

اقول لا تستغربوها، لأن من حقكم أن تتساءلوا: كيف هذا؟

كيف هذا والملامح تختلف.. كيف والقسمات لكل منها طعم؟!

و أقول :

من قال إن الثمرة تشبه الشجرة؟

من قال إن البذرة تشبه الثمرة؟

ومن قال إن الشجرة الأبنة تشبه تمام الشبه الشجرة الأم؟

لا أحد يقول بهذا، لكن الشجر شجر.. سموق.. وشموخ.. ثمر.. وعطر.. من البذور المصرية الصميمة شجرة بيرمية.. ومن الشجرة البيرمية بذور، ومن أرض مصر المعطاءة أحتواء وغذاء وحب وإنماء وحنو.. والشجرة الجديدة اسمها فؤاد حداد.

فؤاد حداد امتداد لبيرم في الزمان والمكان.

بيرم عشق مصر.. وفؤاد حداد عاشقها.

بيرم كان معتدًا بنفسه وبموهبته يثور على وضع الشاعر الذي يكتب ما يروق لأصحاب الصالونات، يكتب صوت الشعب.. بلغة الشعب.. وفؤاد حداد المعتد بنفسه يضرب بيده على مائدة الشعر.. صائحًا.. لسنا زجالين.. لسنا أدباتية.. نحن.. ولأننا نكتب شعرًا.. شعراء.. نحن شعراء..

بيرم ثار على الظلم.. وفؤاد حداد قلب طفل وعناد مارد في مواجهة الظلم.. يبكي فينفطر، ويرتعد فيخيف.. كلاهما صرخة.

بيرم لم يعاد الفصحي، امتصها، أخرجها من كمه فتافيت جليلة ذوبها في كأس العامية، فصارت عامية بيرم لا تشبه عامية من سبقوه، وفؤاد حداد لم يهاجم الفصحى في وقت كان هجوم شعراء العامية على الفصحى، رد فعل لهجوم شعراء الفصحى عليهم.. لم يهاجم الفصحى، استحلبها.. تلمظ بجمالها، الذي لا يستطيع أحد أن يراه مثلما رأه، وعندما أفرز غَنَّى بلغة الشعب.

وشبه أخر بين بيرم وفؤاد حداد شبه كالاختلاف، أو اختلاف كالشبه، نحت بيرم أشعارًا انتقادية تتشوف المستقبل بنقد عيوب الحاضر، وفؤاد حداد نحت أشعارًا تشوفيه للغد.. تنتقد في صورة المستقبل الجميل ملامح الحاضر.

لقد نشأ بيرم والمد العربي مهزوم، فكتب شعرًا انتقاديًا، كتب بالسكين، ونشأ فؤاد حداد والمد الثوري يكاد ينتصر، فكتب أشعارًا تشوفية سرق لها ريشة من جبال الغد.. ولأنه شبه كالاختلاف.. واختلاف كالشبه، كانت لسكين بيرم ولريشة فؤاد حداد صفة القطع.. قطع يحلم بانتصار واتصال جديد.

فؤاد حداد إذن امتداد طبيعي لبيرم.. ولا عجب.. لا استغراب.

وإن كان بيرم توءم الهرم..

ففؤاد حداد توءم النيل..

والهرم يشبه النيل.. ولا تستغربوها..

***

كانت هذه هي المقدمة التي قرأها فؤاد حداد لزوم «النكش» قلت لفؤاد حداد:

ـ موافق حضرتك؟!

أجاب بأدبه الجم:

ـ من حقك تكتب اللي أنت شايفه.

وسرح فؤاد حداد.. وقطب تقطيبة النسيم.. وهز رأسه.. وأردف:

ـ وأنا موافق..

وفجأة ـ وكأن «النكش» أتى بمفعوله، امتلأت الحجرة بكلمات «فؤادية» كثيرة، كثيرة، أعيد لكم ترتيب بعضها:

- بيرم شاعر كبير قوي.. ومهما قالوا عن عبقريته.. نقول إنهم لم يعطوا هذه العبقرية حقها.. ظلموها.. ظلموا عبقريته لأنه يكتب بالعامية.. النقاد عندنا يظلمون الأشعار المكتوبة باللغة العامية.. وفي أغلب الأحيان لا يعيرونها التفاتًا.
- أقول الأشعار المكتوبة باللغة العامية.. ولا أقول الشعر العامي.. ليس هناك شعر عامي وشعر فصيح.. هناك شعر.. ولا شعر.. الشعر بأية لغة، وبأية لهجة، شعر.. والكلام الفارغ حتى لو كان موزونًا وذا قواف بأية لغة، وبأية لهجة، في أي عقلية، لا شعر.
- لست أنا من أطلق هذه التسمية «الشعر العامي».. عندما نشرت ديواني الأول عام 1952م، كتبت على غلافه «أحرار وراء القضبان» للشاعر فؤاد حداد، ولما كنت في السجن، أصدر صلاح جاهين أول دواوينه، وكتب عليه «أشعار بالعامية المصرية».

- نرجع لبيرم أحسن.. لا أستطيع أن أحدد متى التقيت بأشعار بيرم بالضبط، لكنني عرفته مع بداية وعيي وإدراكي للحياة، سمعت قبله عن المتنبي، وأمرئ القيس، والمعري، وشوقي، وحافظ، وسمعت عن موقف بيرم ضد الملك فؤاد ومع الشعب.. ثم اشتريت ديوانه «الثاني» وأنا بين 12 و15 سنة.

- شدني في الديوان اللي اشتريته موال العامل:

«ليه تهدموني وأنا اللي عزكم باني؟

أنا اللي فوق جسمكم قطني وكتاني

عيلتي في يوم دفنتي ما لقتش أكفاني

حتى الأسية، وأنا راحل وسايبكم؟!»

شدني.. وشدني فيه أن بيرم لما كتب عن العامل قال «أنا».. «ليه أمشي- حافي وأنا منبت مراكيبكم.. وأنا.. وأنا إلى آخر الموال.. شيء عظيم.. بيرم لم يكن يستلف قضية يكتب عنها.. كانت القضية قضيته».

- طبعًا موال «الفلاح».. بس موال العامل كان أعلى.

- عظمة بيرم ومكانته.. عرفتها بعد كده طبعًا، ولما قرأت شعره، وسمعته، وأنا كبير، أستغربت.. وحسيت أن بيرم كبير.. كبير قوي.. خد عندك.

«يا بائع الفجل بالمليم واحدة.. كم للعيال وكم للمجلس البلدي».

وخد عندك القصيدة العظيمة «العودة» ، اللي قالها وهوه راجع من المنفى.. صورة نفسية صادقة.. وعظيمة.. موقف.. أحسن الشعر هو شعر الأحاسيس اللي بترسم موقف الشاعر.. عندك أعتراض؟!، قصيدة عظيمة.. بيرم أخده شعره الانتقادي، وما داناش قصائد كثيرة زي دي.. شوف أخرها.

ما شفت يا قلبي راحة.. في دي السنين الطويلة.

إلا أما شفت البراقع.. واللبدة والجلابية.

- إعجابي بهذه القصيدة، لا يعني أني غير معجب بشعر بيرم الانتقادي، لا.. بيرم شاعر انتقادي فريد، وعلم على هذا الشعر.. واللي قاله في هذه الأشعار، وفي القصص الزجلية، ما يقدرش حد بعده يقوله.

- مؤكد اتاثرت بيه.. بس أنا شكل تاني.. أنا عرفت بيرم أكثر في السجن.. زهدي «الرسام» كان دايمًا يقول لنا شعره، الحقيقة زهدي عرفني حاجات كثيرة من عظمة بيرم وسيد درويش.. كان متحمس ليهم جدًا.

- بيرم عظيم وليه موقفه الاجتماعي، واحنا عمقنا هذا الموقف، وأصبح أوضح في أشعارنا، بيرم كان يملك عين قوية جدًا، كان بيشوف الحاجات بالضبط، وعينه كانت نافدة لجوه كمان.. مفيش حاجة تعدي عليه وما يشوفهاش تمامًا زي ما هيّ.. دي موهبة.. وموهبته أيضًا إنه كان بيكتب كلام حاد، وشديد الوضوح، وما عندوش حاجة عايمة.. حرية الصحافة كانت مساعداه، وكان هجاءً عظيمًا جدًا، وكان ساخرًا يلتقط ويفرز كوميديا من أبدع ما يكون.. «أنا موليير في زماني».. وفعلاً هوه موليير في زمانه.. موليير عربي.. وبطريقة متطورة كمان!

- وبحبه كمان لأنه كان رجلاً يحترم نفسه ويحترم عبقريته، الإقطاع عايز الشاعر يسليه.. لا .. ما أحناش مسليين.. بيرم دفع الثمن، وعشان كده بقى بيرم العظيم.. وشوقي دفع التمن، وعشان كده بقى شوقي العظيم، وفؤاد حداد لما دفع التمن.. كبر وارتفع.. ارتفعت قيمة ما يكتبه.. الحمد لله إني دفعت التمن عشان أقدر أكتب اللي باكتبه....

مرة ثانية مددت يدي بورقة لفؤاد حداد، متشجعًا يفيض كلامه الذي لم ينقطع، وهذه المرة كانت من باب الطمع، من باب زيادة النكش.. ومرة ثانية قرأ فؤاد حداد في الورقة..

«فؤاد حداد قبل نشوب الحرب التي اشتعلت بين شعراء الفصحى والشعراء الذين يكتبون بالعامية، كان قد غافل الفصحى وأخذ من جيبها لشعره ـ قبل الخمسينيات ـ اللغة الشعرية، والصورة الشعرية، والقافية ذات الرنين العالي.. الرصانة.. وعدم المباشرة، وفوجئ شعراء الفصحى (وإن لم يعترفوا بهذا أو لم يعرفوه) بأن الشعر المكتوب باللهجة العامية ـ في شدوه ـ له كل صفات الشعر الجيد.. والعظيم.

وضع فؤاد حداد الورقة وانطلق محلقًا:

- **أولاً**: أنا ما أخدتش صفات الشعر الجيد من جيب الفصحى.. لا.. أنا أخدتها من الشعر العظيم، الشعر العظيم من اول أمرئ القيس، والشعر العظيم المكتوب بالعامية، اللي قال مثلاً في موال حسن ونعيمة «ولما حست ولدها بزازها باللبن حنت».. ده موش شعر عظيم قوي ؟!.. وعلى فكرة «محمد طه» مش هوه مؤلف حسن ونعيمة مع إنه كاتب اسمه على الأسطوانة كمؤلف، أنا سمعته في السجن، وقالولي إنه لشاعر افتكر من المرج اسمه حاجة مصطفى، أو مصطفى حاجة، وهوه مؤلف «أدهم الشرقاوي» برضه.. نفسي أدور عليه وألاقيه.. دا شاعر كبير.. ياريت تلاقيهولي.. أو تدوله حقه بعد موته لو كان مات.. «و لما حست ولدها بزازها باللبن حنت».. دي موش صورة عظيمة ولغة شعرية راقية.. موال «لتموت قتيل المحبة والندى نازل».. دي موش لغة شعرية، «ولا حد خالي من الهمّ حتى قلوع المراكب» لابن عروس.. دي موش لغة شعرية، قصيدة العودة لبيرم.. دي إيه.. والرصانة.. بيرم عنده الرصانة.. شوف مطالع قصايده ، مثلاً قصيدته عن غاندي:

السلام لك والسلامة.. من هنا ليوم القيامة..

يا للي اظهرت الكرامة.. بعد عهد المرسلين..

دي موش رصينة؟ الشعر المكتوب بالعامية فيه كل حاجة ، أنا اللي عملته يتلخص في أن الحاجات دي عندي كتير.. وإنها شعري كله..

- وطبعًا استفدت كتير قوي من الشعر المكتوب بالفصحى.. دي قضية فوق مستوى المناقشة.. احنا تراثنا مليان بالعظماء، أمرؤ القيس.. المتنبي.. المعري.. وقصائد بالآلاف لآلاف الشعراء.. معقولة ما نستفيدش؟!، اللي عنده في تراثه واحد زي المعري، لازم.. لازم يبقى محترم.. وأحنا عندنا كتير.. أنا أكن للفصحى أحترامًا عظيمًا، الكل عارف كده، واكتب دي بالحرف الواحد.. لا وجود لهذا الشعب إلا بالفصحى.. إلا بأنه عربي.. وصاحب تراث عربي عظيم، أهم حاجة في هذا الشعب إنه عربي.

- العامية بنت الفصحى، الصراع بينهم مزعوم.. وفي الأغلب صراع بين شعراء، موش بين لغتين «فنيتين»، شاعر عايز يقول على شاعر تاني إنه وحش، يقول ده بيكتب بالعامية، وشاعر ثاني يقول أنا باكتب بلغة الشعب وفلان بيكتب بالفصحى، أنا ما أدخلش في صراع مزعوم، الفصحى عظيمة، والعامية بنتها وعظيمة، المهم اللي يكتب يكتب شعر، بيرم اللي كتب بالعامية عظيم.. وشوقي اللي كتب بالفصحى عظيم.. المهم الشعرا يبقوا بيرم وإلا شوقي.

- طبعًا التراث العربي هوه الأساس.. مع كل احترامي لـ«تي. إس. إليوت»، أقدر أستغنى عنه، وما قدرش أستغنى عن المتنبي والمعري.. اللي يتذوق التراث العربي، وبعدين يتذوق معاه أي تراث آخر.. يبقى حاجة كويسة قوي.

- أنا ما سبتش الفصحى أبدًا، العامية خلتني أقدر أكتب في الفصحى بطريقة أفضل، زي ما العامية بتستفيد من الفصحى، الفصحى بتكتسب من العامية الكثير.. العامية حِركة.. حركة ما فيهاش كلام.. أنا عندي ديوان فصحى عن الأراجوز، كان ممكن أكتب بالفصحى عن الأراجوز لو ما كنتش متمكن من العامية؟، ح ييجي الوقت وانشر الديوان ده، وح تشوفوا العامية أضافت للفصحى إيه؟، ومقامات بيرم التونسي، شوف أضافت للفصحى إيه؟، أدت لها حركة، شوف كتابات الفصحى وقت ما بيرم كتب المقامات، وأنت تعرف العامية تقدر تضيف للفصحى واللا لا.

- اتهامنا بأننا لسنا قوميين لأننا نكتب بالعامية، اتهام ظالم، ومتجن، ولا أساس له من الصحة، طب أنا ح أقولك بقى ، بيرم.. وأنا أكثر فهمًا للفصحى، وأقرب للسليقة اللغوية من شعراء فصحى مهمين كثيرين.. وبعدين أحنا أشعارنا شاهدة علينا.. نشوف مين اللي كتب عن القومية العربية أكثر.. الشعر المكتوب بالعامية.. واللا المكتوب بالفصحى، يا سيدي مين اللي قال «**الأرض بتتكلم عربي**».

- غير الأراجوز عندي ديوان «**أم نبات**»، وفيه نثر وشعر فصيح، وعندي «**الحضرة الزكية**» مستوى الفصحى فيها عالي، والمزج بين العامية والفصحى أظنه جميل.. أنت اللي كتبت كده «في مجلة الإذاعة والتليفزيون سنة 1981م».

- إحنا ما كتبناش بالعامية عن عجز.. لا .. كتبنا بالعامية عن مقدرة واختيار، العامية اقرب للشعب، وتخدم الاتجاه السياسي الاجتماعي بتاعنا أفضل، والشعوب العربية بتفهم العامية المصرية، وبتحبها جدًا، واللا ما كنتوش عملتوا لهم مسلسلات بالعامية المصرية، واللا إيه؟.

- مش لو ما كانش بيرم بس، لو ما كنش بيرم كتب بالعامية، ولو ماكانش فيه المواويل العظيمة مجهولة المؤلف، ولو ما كانش فيه «ابن عروس»، ولو ما كانش ضروري نخاطب كل الناس، ودي مهمة قوى، ما كنتش كتبت بالعامية. ما كنتش كتبت بالعامية لو كانت العامية هي «ابن قزمان» وما شابه.

- أحلى حاجات اتكتبت بالعامية: المواويل، وأشعار بيرم، وخصوصًا قصصه الزجلية، وملحمة الظاهر بيبرس، وحوار توفيق الحكيم في عودة الروح، وحدوتة الشاطر حسن اللي كتبتها بالاشتراك مع متولي عبد اللطيف.

وبرغبة في تفجير قنبلة أتساءل:

ـ لمن إمارة الشعر؟

ويجيب فؤاد حداد بعفوية تلقائية متحمسة:

ـ لشوقي.. دي ما عليهاش أعتراض.

ـ ما دام الشعر شعرًا بأية لغة وبأية لهجة ألا تعطي إمارة الشعر لبيرم؟

ـ شوقي هوه شوقي.. وأشعاره العظيمة كتيرة قوي.. قوي..

ـ و بيرم ؟.

ـ أهم الشعراء بعد شوقي.

ـ ألا يكون «المضمون» في صف بيرم؟

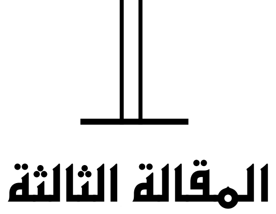
ويعتدل فؤاد حداد في جلسته، ويقول سارحًا:

ـ المضمون حكاية كبيرة قوي، والشعر حكاية كبيرة قوي، وأنا موش عايز أدخل فيها.. باختصار.. دي محتاجة وقت، ومحتاجة مراجع ومصادر، وياريت كل المصادر تحت إيدي.

وابتسم ويلاحظ ابتسامتي، فيبتسم.

ـ بصراحة مش فاضي أرد على حد، أنا محتاج كل دقيقة عشان أكتب شعر.

كان هذا هو الحديث الصحفي الوحيد لفؤاد حداد، أما ما تعلمته من فؤاد حداد وأنا أعده، والسبب في رفض فؤاد حداد لأن ينشر الحديث في حينه، فهذا ما سنحاول فك أسراره في الحكاية المقبلة.



المقالة الثالثة

تفاصيل موال
العشق والمعتقل بين
المسحراتي والزعيم

واتقدمت وما أختاروك

فوق الجمر ومخطروك

يشهد دم إن قطروك

كل عروقك مؤمنه

ف.ح

(4)

رجل الاختيارات الصعبة

ولد فؤاد سليم بك حداد في 30/ 10/ 1927م، وعاش ثمانية وخمسين عامًا، وأربع وعشرين ساعة، أعطتنا اثنين وثلاثنى عملاً أدبيًا أغلبها دواوين شعرية، والباقي أعمال «عبر نوعية» يتداخل فيها الشعر والقص، وأشكال مبتكرة أخرى من النثر الأجمل، فضلاً عن ترجمات عملاقة، وعدد غير قليل من كتب الأطفال (بعد ثلاثة و عشرين عاما من وفاته تكاد أعماله الكاملة ، التي يتوالى صدورها ، تكتمل ، بعد أن بقيت حبيسة خزانة خاصة ، في حجرة مكتبه ، خزانة ذات مفاتيح ، و أرقام سرية ، إذ كانت تلك الأعمال هي ثروة فؤاد حداد كلها ، التي لايملك غيرها ، والتي كان عارفا أنها سر خلوده حين يسمح الزمان بنشرها ، و لهذا حرص على تأمين حفظها ، و صيانتها)، لكن إنجازًا كبيرًا موازيًا كان على فؤاد حداد أن يحققه ، بمجرد أن دخل مرحلة شبابه ، إنجاز لم يفرض على غيره، أو لم يفرضه غيره على النفس، وهو أن يختار كل انتماءاته، وأن يصنعها على عينه، وأن يدفع ثمن اختياراته باهظًا، يحسبه الغافل هيناً، من فرط ارتياح فؤاد حداد إلى اختياراته تلك.

ولد فؤاد حداد أبنًا بكريًا لسليم بك حداد، اللبناني المسيحي البروتستانتي، والذي أتم تعليمه بالجامعة الأمريكية في بيروت، متخصصًا في الرياضة المالية، ثم جاء إلى القاهرة قبيل الحرب العالمية الأولى ليقيم فيها، ويتزوج إلى جوار نيلها، ويولد أبناؤه جميعًا على أرضها.

عمل الوالد مدرسًا بكلية التجارة في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة بعد الثورة)، وحصل على الباكوية، ثم صار ـ إلى جوار وظيفته الجامعية ـ المحاسب المعتمد للبنك الأهلي المصري، إلى أن توفى في عام 1952م بعد شهر من الثورة، وفؤاد حداد يستعد لإصدار ديوانه الأول «أحرار وراء القضبان».

أما الأم فكانت مسيحية كاثوليكية، لبنانية الأصل ، أو لنقل شامية الجذور، تنتمي من ناحية أبيها إلى عائلة «أسود»، ومن ناحية الأم إلى عائلة «بولاد»، وخالها هو المهندس «فريد بولاد» الذي درس الهندسة في فرنسا، وعاد إلى مصر ليصمم كوبري «كفر الزيات» الشهير.

وأصل عائلتي «أسود» و«بولاد» من سوريا (كانت الشام الكبرى)، لكن عائلة الأم سبقت والد فؤاد حداد في الوصول إلى مصر ـ واستيطانها، لهذا ولدت الأم على أرض النيل، وعاشت حياتها تفخر بأمور ثلاثة، أولها: مصر «الوطن»، وثانيهما: أمومتها لمن أخذ عنها عبقريته، بكريها الشاعر فؤاد حداد، والثالث: أرستقراطية أسرتها.

والذي عرف ما قلناه عن فؤاد حداد لابد سينتبه إلى أنه اختار بنفسه أهم إنتماءاته، ولعل أسهل إنتماءاته كان الوطن فهو مصري صميم، ولا أشك في أن شاعرًا غيره كتب عن مصر ـ عاشقاً ـ ما كتبه فؤاد حداد، إنه في إنتمائه المصري شبيه بالنيل، فالنيل إذا ذكر في أي مكان في العالم ذكر قريناً لمصر، ذلك أن أحدًا ـ في العالم بأسره ـ لا ينتبه إلى أن أبا النيل سوداني، وجده في الحبشة، وسلالته تتواصل عبر أحد عشر وطناً إلى المنابع الأولى في وسط أفريقيا.. مثل النيل مثل شوقي وبيرم ويحيى حقي وفؤاد حداد، لا يمكن تصورهم إلا مصريين أقحاح.. وقد كانوا كذل بالفعل (وليمت الحاقدون بغيظهم!).

وفؤاد حداد أختار الطبقة التي ينتمي إليها، وهذا اختيار صعب، وإذا كان غيره قد أكتفى بالانتماء إلى الفكر الماركسي، فإن فؤاد حداد هجر عائلته ، وانتمى فعليًا للكادحين، وسكن بينهم في الإمام الشافعي، وعشقهم صدقًا، وكتب بهم أكثر مما كتب عنهم.

خدت الثقافة على أساس

إن الثقافة كتب وناس..

بل إن فؤاد حداد أختار صحبة المناضلين الفقراء حتى في المعتقلات، ولقد ـ وليس كل الظن إثمًا ـ تباعد عنه بعض المثقفين ـ ذوي الياقات المنشاة ـ لنفس السبب، وشاركوا في أن يدفع ثمنًا باهظًا لإنتمائه.

واختار فؤاد حداد دينه، اختار الإسلام، واختار معه غضب عائلته، هو الذي لم يحب أحدًا قدر ما أحب أباه وأمه وإخوته، ومن بعد، عائلته الصغيرة الزوج والأولاد، ولا يستطيع أن يجادل أحد في اختياره، فقد كان ـ وهو الشيوعي الأصيل ـ قمينا، مثلما كان الأمر في فترة من الفترات لدى البعض، ألا يختار، لكنه اختار وكتب عن الإسلام ـ بصورته البهية ـ أعمالاً لا يكتبها غير صادق العزم، صادق النية، صادق الإيمان [من يشهد له إذا لم تشهد المسحراتي وطيوف الجنة والكوثر، وشاهدة الإثبات العملاقة «الحضرة الزكية»؟!] .

اختار فؤاد حداد إذن إنتماءاته كلها، ودفع ثمنًا لا يقدر عليه غيره مثلما لا يقدر غيره على أن يفعلها، دون ضجيج، ودون ذرة من ذرات عدم الاقتناع، أو الافتقار إلى القناعة، فضلاً عن ابتعاد صوفي عن المتاجرة بها بأي شكل من الأشكال.

هل يتصور القارئ أنني صحبت فؤاد حداد ستة أعوام ، انتهت بوفاته، ولم أعلم أنه ولد مسيحيًا إلا من جريدة «الجمهورية»، وهي تنعاه إلى أمته عشية وفاته!.

كان فؤاد حداد بحق وعن قناعة وطنيًا عروبيًا أمميًا، وكان مسلمًا شيوعيًا، وكان مثقفًا بروليتارياً، كان من قلةٍ فهمت ـ فهما صحيحًا ـ إلا تناقض بين كل هذه الصفات «الإرادية»، بل تكاملاً يصنع فردًا عاشقًا للإنسانية، مسلحًا بكل ما يغير مستقبلها إلى الأفضل، فردًا لا يستخسر دمه (وكل عروقه مؤمنة) في سبيل سعادتها ورقيها:

« أول كلامي سلام

وتزفقيني الكلام

أيام في حضنك أنام

القلب الأبيض هنا

يا مصر يا أمنا

واطلع في نور الأدان

إذا دعا الوالدان

المدرسة والميدان

والا إنسانية هنا ».

إنها بالقطع ليست أغنية، إنها إنتماءات واختيارات لها ثمن فادح دفعه بكل الرضا، دفعه ممتناً لفكره الذي هداه إلى هذه الانتماءات والاختيارات.

و لعلي أقول بالمناسبة : دعونا نحتفل بفؤاد حداد في يوم ميلاده، لماذا نحتفل بالعظماء والشعراء في يوم وفاتهم، ونحن من شعب لا يقبل الاحتفال إلا بـ«الموالد»، إن مصر ـ والإنسانية ـ تفرح بميلاد هؤلاء العظماء، وتعلم علم اليقين أنهم لا يموتون، إنهم ينضمون إلى ذلك النسيج الأسمى الذي يؤكد إنسانية الإنسان وخلوده، فكيف نحتفل بهم في يوم نزعم أنهم توفوا فيه؟!.

و أذكر الآن ، أنه أثناء الاجتياح الإسرائيلي الدامي للبنان عام 1982 ، أردنا أن نفعل شيئاً ، و جاءت المبادرة من المخرج المسرحي المهندس (الدكتور فيما بعد) عمرو دوارة ، قال عمرو سنعد لمسرحية من نوع الكباريه السياسي ، على مسرح نقابة العمال ، في شارع الجلاء (و كان اسم الشارع بشرى لخير طال انتظاره) نقدمها طوال فترة الاجتياح إلى أن ينتصر شعبنا العربي في لبنان ، تعلق - المسرحية - تعليقاً مباشراً على الأحداث ، و تقوم فكرتها على قراءة الصحف كل يوم على المسرح ، و الارتجال - مع جمهور الحاضرين - تعليقاً على ما يحدث ، و بالضرورة سوف تحتاج المسرحية رابطاً ، يؤكد تدفق الإيقاع ، و ليس أفضل - كرابط - من أغنيات تصدح في المسرح كلما بدأ الإيقاع في الاضطراب ، أغنيات سهلة الحفظ ، يرددها الممثلون و الجمهور معاً ، و طلب مني عمرو أن أعد باكورة هذه الأغنيات ، إذ كان يرى - و كان له كل الحق فيما رآه - أن الأغنيات سوف تتكاثر بما تفرضه علينا الأحداث الجديدة ، التي لن تتوقف عن النمو و النشوء في أرض الواقع ، و بالفعل أعددت باكورة الأغنيات ، التي تزايدت في العرض كما توقع المخرج القدير (و قد نجحت المسرحية نجاحاً كبيراً أذهلنا بقدر ما فرحنا به، و بالدور الذي أدته).

المهم ، كان بين الأغنيات أغنية أعددتها باللهجة اللبنانية ، تقول كلماتها للشعب الفلسطيني على لسان الشعب اللبناني البطل :

« هون .. و هون .. و هون .. و هون

ما بيضَل سواكم هون



قال يا ترتر مين يطرز

ويالولي مين يخرز

وأنا ح أرقص.. مين ينقرز

ع البيبان؟!

ف.ح

(5)

ولم ينشر الحديث

اشترط فؤاد حداد ونحن نبدأ حديثه الصحفي الوحيد ألا أسجل كلماته على جهاز تسجيلي الصغير «ليته لم يشترط!!»، وعلى أن أصيغ كلماته بنفسي، وطلب في أدبه الجم المعروف عنه أن أعرض عليه لو أحببت ـ الحديث قبل النشر، ونظر في اتجاهي نظرة تتساءل عما إذا كنت موافقًا.

كان في نظرته ألم مخيف، ومكر مخيف، قلت:

ـ كل التشروط مجابة يا أستاذ فؤاد.

هز فؤاد حداد رأسه ـ كعادته ـ وهو يقول «شكرًا» لكن على غير العادة كان في هزة الرأس شيء من اليأس، إذ تأكد أنني لا أتراجع.. ولن.

كان من الواضح أنني ضغطت على فؤاد حداد ضغطًا شديدًا لأحصل منه على الحديث وألمني الأمر إلى الدرجة التي جعلتني أفكر ـ جادًا ـ في أن أنهي الموضوع، وأن أتركه على راحته، لكن ما هو أقوى مني ـ داخلي ـ كان يقول استمر. سيحسب هذا الموقف من فؤاد حداد على غير أسبابه، لن يعرف أحد أن فؤاد يريد الحديث عن بيرم، لكنه اتخذ قرارًا بمقاطعة صباح الخير، والإضراب عن الكتابة فيها، وعن تحرير باب «قال الشاعر» الذي كان يكتشف فيه الشعراء الجيدين الجدد في ذلك الوقت، ونشر أشعارًا للعديد منهم، وكان السبب وراء المقاطعة والإضراب كما أوضحنا ـ يكمن في سوء تقدير المؤسسة «ماديًا»، لما يتقاضاه منها كمرتب، رأه فؤاد حداد لا يناسب موهبته، ولا يتناسب مع احتياجات أسرته «هو وزوجته وثلاثة أبناء»، وليعرف القارئ مدى الإجحاف الذي جويه به فؤاد حداد، أقول له إنني أخبرت الفنان الرقيق العميق جمعة بحقيقة مرتب فؤاد حداد، فقال لي بدهشة وألم: كيف فعلوا هذا بالرجل، لقد كنا صغارًا وقتها، وكنا نتقاضى عشرة أضعاف مرتبه!

كنت مقتنعًا بحق فؤاد حداد في أن يضرب عن الكتابة لصباح الخير، أو الإدلاء بحديث صحفي، لكن العدد كان عن بيرم التونسي، وكنا ـ كما علمنا فؤاد حداد ـ نريد أن تنجح صباح الخير «أخر القلاع التي بقيت تنشر الشعر المكتوب باللهجة العامية» في التنوير على بيرم، والاحتفال والاحتفاء بإبداعه، وأن تستمر ـ بنجاحها ـ فتنور على فؤاد حداد وصلاح جاهين وسمير عبد الباقي والأبنودي وأحمد فؤاد نجم، ثم ننال نحن من التنوير «نايب»، وكان هذا ما قصده الفنان بغدادي وهو يقترح هذه الأعداد الخاصة، ثم فوجئنا «بغدادي ونحن معه» بأن اتخذ الأبنودي موقفًا من العدد «صمم في حديثه الصحفي مع بغدادي على أن بيرم زجال وليس شاعرًا مثله، ورفض بغدادي أن ينشر الحديث، وقصر مشاركة الأبنودي على قصيدة شعر وإن كانت لا تمت للاحتفال ببيرم بسبب» وفوجئنا بأحمد فؤاد نجم وقد صمم على أن يكتب عن شعراء شبان، وأن ينشر قصيدة عن الإسكندرية.. وأن صلاح جاهين «وكنا نعذره رحمه الله» لا يستطيع أن يكتب ما يريده عن بيرم، لأسباب تتعلق بموجة اكتئاب تغمره، لكل هذا كان إصراري على مشاركة فؤاد حداد ـ برغم مقاطته وممانعته ـ حتى لا يحسب موقفه واحدًا من مواقف لا يقرها الشعر ولا الشعراء، لذلك قبلت شروطه كلها، وجلست استمع لكلماته بينما فردت على رجلي أوراقًا، رحت أكتب فيها ـ خلسة ـ رؤوس جمل تتوالى على لسانه، ثم أسرعت إلى بيتي لأكتب الحديث قبل أن تفر كلماته، ورنة صوته من ذاكرتي.

في اليوم التالي حملت الحديث «مكتوبًا» إلى فؤاد حداد، راح يقرأه ويهز رأسه هزة تعني الموافقة بعدها هزة تعني التعجب، وصاح في مكر لطيف:

ـ إيه الحكاية.. كأنك كنت بتسجل.

وأمسك فؤاد حداد بقلمه الحبر «الشيفرز» الذي لم يكن يكتب بسواه، وأصلح لي كلمة واحدة هي كلمة «قليط» كان قد قال لي في حواره: «اللي عنده واحد زي المعري في تراثه لازم يبقى قليط»، في الحديث أصلح «قليط» بتغييرها إلى «محترم»، بعدها مد يده بالأوراق يعيدها إليّ.

في الليل كنت سعيدًا بما حصلت عليه، ولكن ـ بينما أنا في زيارة لوالدي ـ جاء إلى أمين حداد الابن الأوسط للأستاذ، وقال أمين: بابا بيقولك لو بتحبه بلاش تنشر ـ الحديث دلوقت، لم أسأل أمين عن شيء، عرفت أن عناد فؤاد حداد فيما أرتاه حقًا قد غلب حججي، ولم ينشر الحديث برغم أن فؤاد حداد من شهور ستة كان قد قرأ علينا قصيدته «شرع التسالي» وكان يقول فيها:

فين بيرم التونسي اللي علمنا

نلف ونقلوظ عمايمنا

ونمضي من قبل النهاية خلاص

ح يعلموا لي يا حبايبنا

لو يعملوا له من «الهلال» عد خاص

كان معايا المية في الزمزمية

والوطن في الذاكرة الإلزامية

(6)

وجمال عبد الناصر

حكاية فؤاد حداد مع جمال عبد الناصر لها العجب..

منذ ذهاب جمال عبد الناصر إلى باندونج «1955م» وفؤاد حداد يحبه حبًا كبيرًا «واظن وليس كل الظن إثمًا أن الحب تحول إلى عشق صاف بعد تأمين القناة»، ومن يومها ولآخر أيام عمره «أول نوفمبر 1985م» وفؤاد حداد يؤيد جميع خطوات «أبى خالد»، وإنجازاته الكبرى من أجل الفقراء، وفي سبيل التحرر الوطني من الاستعمار والتبعية.

برغم هذا الحب الذي لم يكن يخفيه فؤاد حداد ـ في أشعاره ـ قضى ـ الرجل في سجون «الزعيم» ومعتقلاته الوهيبة «بكل معنى الكلمة» أكثر من ثماني سنوات طوال على «دفعتين».

والغريب أن فؤاد حداد لم يغفر أبدًا ما لاقاه من تعذيب، وما عاناه في المعتقلات، ولم يكن يقبل من أي فرد أن يغفر الأمر، ومع هذا لم يتأثر حبه لجمال عبد الناصر.

ولم يكن فؤاد حداد يومًا ساذجًا،يعفي كآخرين جمال عبد الناصر من مسئولية السجن والتعذيب وبهدلة مؤيدية ومعارضية، وطعن عائلاتهم بسلاحي التجويع والتشريد من الأعمال، متصورًا أن عبد الناصر لم يكن يعرف ما يحدث، أو كان يعرف ولا يوافق، وأن زبانية متوحشين من حاشيته كانوا يفعلونه ما يفعلونه من ورائه لا.. لم يكن فؤاد حداد أبدًا من هؤلاء الساذجين.

كان يرى ـ على العكس ـ أن عبد الناصر استهدف في الشيوعيين ممن يؤيدونه، وفي غيرهم ممن يعارضونه انكسار الروح، وغبادة الكينونة، والإذلال وهو ما لا يقبله بشر ـ لأخيه الإنسان مهما كانت الظروف والأسباب، وهو أيضًا ما لا يقبله فؤاد حداد صاحب الكرامة التي يخدشها النسيم العابر، والكبرياء التي لم تغادر روحه حتى فارقته.

لم يكن فؤاد حداد يبرئ جمال عبد الناصر وكان يحبه.

والذي يقرأ ديوان فؤاد حداد «استشهاد جمال عبد الناصر» يعرف إلى أي مدى كان فؤاد حداد يحب جمال عبد الناصر، وفوق ذلك سيتعرف على الأسباب التي أحبه نتيجة لها، ومن أجلها، والتي كانت لوعته لحظة وفاة الزعيم.

حبيت أموت واللي عشته من السنين نوح

وشفت عيني بفجري وليلي تتطوح

وسمعت فيها البلد والشعب والقرآن

ولقيت يتيم شرقان..

لقيت شهيد عرقان..

ولقيتني زي الجمل طالع جبل قلقان

واللي انكتب ع الجبين يشهد عليه النحر

ما يعرف البحر إلا اللي اتولد غرقان

ولد فؤاد حداد لأسرة متسوطة، ميسورة الحال لكنه حين شب ورأى الناس وما يحيق بهم من ظلم علم أنه ولد غرقان، فلما عرف أن هناك من ولد لينقد الغرقى، أحبه برغم كل ما كان حبًا صادقًا:

لما اتولد كنت نايمة تحت لمبة جاز

وكان ولادي خيالهم يشبه العكاز

ولما مات كنت شابة والجبين عالي

كانت أيديه العفية أم توعالي

كانت أيديه العفية أم توعالي

كان عارف المجد لا الأحجار ولا التماثيل

هي اللي تبنيه.. ولكن راحة التراحيل

وبالطبع في القصيدة الطويلة التي تملأ اثنتين وأربعين صفحة من الحجم المتوسط ما يلقي المزيد من الضوء على كيف ولماذا أحب فؤاد حداد جمال عبدالناصر، وعلى شيء ثالث راح يلقي بظله على العلاقة بين شاعرنا والزعيم الراحل، ألا وهو تلك الردة، ووجهها القبيح الذي بدأ يطل بسماجة ووقاحة بمجرد استشهاد جمال عبد الناصر، بينما القوى الوطنية التقدمية تعاني من ضربات الحلفاء المفترضين أو لنقل الطبيعيين في اليسار الناصري وتشويههم لأغراضها:

خشب مبعتر وفين يعتر بير أمان..

أمنت بالإنسانية، والتفت جريح..

سنابل القمح بتميل عليها الريح!!

ولعلى أستطيع الزعم مرتاح الضمير ـ بأن فؤاد حداد كان الأول ـ إن لم يكن من الأوائل ـ الذين استشعروا هذه الردة على الاشتراكية، وعلى قوى التحرر الوطني.

حقيقة الدم هاجمه..

لازم تعيش المقاومة

هذا الديوان «استشهاد جمال عبد الناصر» كتب في الفترة من نوفمبر «بعد مرور أكثر من شهر على وفاة عبد الناصر» إلى يناير 1971م، وقد توالت أمام فؤاد حداد - الذي أحب في بيرم أنه كان يرى الواقع كما هو بالضبط - رؤى قبيحة لبودر تشي- بالأواخر، فكان رثاؤه لجمال عبد الناصر، صرخة للتمسك بالاشتراكية، وبسبيل المقاومة أستمرارًا في تحقيق حلم الأمة بتحررها من التبعية المباشرة بالاحتلال، وغير المباشرة بالاستكانة وقبول الأمر الواقع! لكننا قلنا في البداية إن فؤاد حداد أحب جمال عبد الناصر منذ ذهب إلى مؤتمر باندونج، ولم نقل لماذا لم يحبه قبل ذلك.

لقد كان لقوى الشيوعيين و«لتنظيم »حدتو« منهم بالذات، وفؤاد حداد كان عضوًا فيه» الحق في أن يستريبوا في جمال عبد الناصر قبل ذلك الأوان، فالثورة - وقائدها الفعلي - كانت تريد عون الولايات المتحدة الأمريكية، في إخراج الاحتلال البريطاني في مصر، ولم تكن تستوعب أن الولايات المتحدة في القمة الجديدة لحركة الاستعمار الجديد، فأقلقتها منشورات حلفائها الشيوعيين.

«حدتو» هو الأخر أن يوضح لنا الأمر من مذكراته بهدوء، وبدون حساسية، ولكن عندما نجحت الثورة وتحلونا إلى حكام تغير الأمر.

لم تكن «حدتو» بالطبع تتصور أن الثورة ستكون ثورة شيوعية، لكنها كانت تتصور أن الثورة يجب أن تعبئ القوى صاحبة المصلحة في التغيير الثوري في اتجاه العدالة الاجتماعية ومقاومة الاستعمار تعبئة ديمقراطية، ولاالذي يتشكك في نضال الشيوعيين من اجل الديمقراطية في ذلك الحين لا يفهم الماركسية من ناحية، ولا يتتبع إشارات مهمة في نضال الشيوعيين قبل الثورة في تدعيم عودة «الوفد» الحزب المتمسك بالديمقراطية الليبرالية، وفي تحالفات الشيوعيين بعد الثورة من أجل حياة ديمقراطية كانت هي المبدأ السادس من مبادئ الثورة، وهو المبدأ الوحيد من المبادئ الذي لم يتحقق منه شيء، بل ومضت الثورة في تيار معاكس له، بدأ بأنه تلاعبت بالدستور في قضية الوصاية ثم بإلغائه وحل الأحزاب وضرب الحلفاء المستعدين للتعاون معها، ولعل الأمر يمكن تلخيصه في هذه الواقعة التي يحكيها صلاح نصر في مذكراته «الجزء الأول ص345 وما بعدها» ويبين فيها أن عبد الناصر أراد الشيوعين إلى جواره في صراعه ضد محمد نجيب «منذ فبراير عام 1954م»، وهكذا قام عبد الناصر بتكليف اليوزباشي حسين عرفة رئيس المباحث الجنائية العسكرية التابعة للشركة العسكرية للاتصال مع زعماء «حدتو» المعتقلين في السجن الحربي «لاحظ أنهم كانوا قد اعتقلوا في عهد الثورة»، وجس نبضهم وتوضيح أن حركة الجيش ثورة وطنية.. وحدث خلاف «بين المبعوث والقيادات» في وجهتي النظر حول قضية الحرية والديمقراطية، فبينما أبدى حسين عرفه وزميله «اليوزباشي» أحمد محمود أنه لا يمكن تحقيق حريات ديمقراطية في بلد مستعمر رد عليه زعماء «حدتو» بأنه «لا يمكن تعبئة القوى الوطنية من غير حريات وديمقراطية».

ولنذكر موضوع «الديمقراطية» هذا جيدًا لأن مفاجأة مقبلة في الطريق إليها، فأنا أظن أن فؤاد حداد عضو «حدتو» الملتزم بخط حزبه كانت تؤرقه شخصيًا أمور غيرها بمعنى أن الديمقراطية لم تكن مما يؤرقه.

كان ما يؤرق فؤاد حداد أكثر انقضاض الثورة ظلمًا لعى خميس والبقري العاملين بمصانع كفر الدوار برغم تأكد الثورة من ان «الرأسمالية المصرية.. تنبأت بدور الحركة العمالية بعد أن تقوم الثورة، وبمدى الأضرار التي ستلحق بأصحاب الصناعات، ولذا لم تتوان في خلق المشكلات أمام الثورة»، كما يؤكد صلاح نصر «ص341»، وأن العاملين كانا بريئين من تهمة التخريب، وإن لم يكونا بريئين من تهمة الإضراب الذي «يعبر عن مطالب شرعية»، إن هذا الأمر أكد لفؤاد حداد أن العاملين إنما أعدما لأنهما رتبا لإضراب من أجل مطالب شرعية.

الأمر الثاني: إصرار الثورة، وهي تعلن العفو عن المسجونين السياسيين بعد قيامها بيومين على أن تستثنى المسجونين الشيوعيين بحجة أن جريمتهم اقتصادية وليست سياسية!

ولفؤاد حداد ديوان هو أول دواوينه لم يعد معروفًا إلا لعدد قليل من الناس، وسوف تضمه أعماله الكاملة حين تطبع أعماله كاملة بإذن الله.. اسمه «أحرار وراء القضبان»، صدر في أغسطس 1952م.

ـ لقد أردت أن أسميه «أفرجوا عن المعتقلين الشيوعيين» لكن دار الفن الحديث التي أخرجت الديوان أصرت على هذا الأسم.

ومن يطلع على الديوان «الذي أملك صورة فوتوكوبي منه» يجده من اول قصيدة لأخر كلمة عن المسجونين السياسيين، وضمنهم أخوه فريد حداد، ورفيق نضاله سعد رحمي، لقد كان الديوان كله صرخة من أجلهم، وأظن أن دار الفن الحديث قد حققت رغبة فؤاد حداد في اسم الديوان الذي غيرته فصدرته بمقدمة عنونتها «أفرجوا عن المسجونين السياسيين»، وهي مقدمة تشرح وجهة نظر الشيوعيين في الأمر، وقد جاء في الإهداء الشعري لقصائد الديوان:

«يا معذب الجماهير يا ظالم أظلمها

ومن حياة الكفاف الضيقة أحرمها

جموع تجدد شبابك وأنت تعدمها»

ولا بد سينتبه النقاد إلى أن قصائد الديوان مكحتوبة في الفترة بين فبراير 1950م وأغسطس 1952م، وأن الإهداء مؤرخ بديسمبر 1950م، فهل كتب فؤاد حداد إهداء ديوانه شعرًا قبل أن يكتب معظم قصائده! ربما سينتبه النقاد إلى أن تأريخ الإهداء الشعري كان من عمل دار النشر التابعة لحدتو مثله مثل تغيير الاسم إلى «أحرار وراء القضبان»، وساعتها يمكن فهم الإهداء الشعري فهمًا أقرب إلى الحقيقة.

المهم الآن ذهب جمال عبد الناصر إلى باندونج، وأمم قناة السويس وفؤاد حداد في السجن، وبدأ حب فؤاد لجمال عبد الناصر وهو سجين، وقال لي فؤاد حداد مرة عندما سمعت أغنية «يا حمام البر سقف» لصلاح جاهين في السجن قلت مباشرة هذا واحد منا واستبشرت خيرًا.

ومن الحكايات المعبرة أن صلاح حافظ كان مسجونًا مع فؤاد حداد في تلك الفترة، ولم يكن ممن يحبون جمال عبد الناصر، وكان يختلف مع فؤاد حداد كثيرًا في حماسه للرجل الذي صار زعيمًا كبيرًا يوم أمم القناة.. وحدث أن كانت «البواسير» تؤلم فؤاد حداد وقتها، وفي نفس الوقت تجمع صديد إلى جوار ظفر من اظفار أصابعه «دوحس»، وراح فؤاد حداد يخفف الألمين القاسيين بتحويل الأمر إلى شعر «وقد كان يعيش شعرًا، ولا يقبل العيش إلا شاعرًا» قال فؤاد حداد بإنجليزية على عربية:

- «أي أم» مدوحس ومبوصر.

فرد عليه صلاح حافظ على نفس البحر:

- من عهد مينا أو زوسر..

هنا وقف فؤاد حداد يغيظ صلاح حافظ صائحًا:

ـ يعيش جمال عبد النوصر..

كان فؤاد حداد قد اصبح من مناصري جمال عبد الناصر، وكان يرى أنه قد حقق الكثير وأنه يستطيع ان يحقق ما هو أكثر، وقد قال ضمن أشعار المعتقل الثاني:

«شفنا الشمس بتعمل لمبة».

وكان يقصد أن جمال عبد الناصر كان شمسًا، وارتضى أن يكون «لمبة» فقط، وكان يشرح الأمر لأولاده ولنا بأن جمال عبد الناصر «كان بيصغر نفسه».

وفي السبعينيات والشاعر الكبير سمير عبد الباقي يعرف هذا الأمر جيدًا جاء لفؤاد حداد عرض «لبناني» لنشر موال البرج، وهو الموال الذي أرخ فيه فؤاد حداد في أبيات تصل إلى الألف ما حدث للمعتقلين السياسيين ولنفسه شخصيًا في سجن ومعتقلات جمال عبد الناصر. كان العرض مغريًا للغاية، وكان فؤاد حداد في ضائقة مالية خانقة «الأمر الذي عاناه كثيرًا للقاية»، ورفض فؤاد حداد أن ينشر موال «البرج»، ورفض العرض المالي الذي كان وأسرته في أمس الحاجة إليه، وقال:

ـ لن أشترك في حملة تشويه جمال عبد الناصر، مهما كان الثمن.

وقال شارحًا الأمر..

ـ ليس عبد الناصر هو المقصود من هذه الحملة، ولكن ما كان يمثله جمال عبد الناصر هو المقصود، الاشتراكية مقصودة، والتحرر الوطني مقصود، وأنا بهذا النشر ـ لا أخون جمال عبد الناصر فحسب، ولكن أخون كل ما ناضلت من أجله، وإن كان ما تحقق منه هو الشيء القليل.

وعندما كنت انتقد جمال عبد الناصر أمام فؤاد حداد في الثمانينيات كان يسارع قائلاً في غضب حقيقي «وكلماته هي المفاجأة التي طلبت من القارئ انتظارها».

ـ ديمقراطيـة إيه؟! التعليم المجاني، والعلاج المجاني، والسد العالي.. و.. و.. و.. أهم.. كان فؤاد حداد في أوائل الثمانينيات قد بقى على حبه لجمال عبد الناصر للأسباب التي يحفل بها ديوانه المرثية «استشهاد جمال عبد الناصر»، مؤكدًا أنه كان الفرصة الذهبية التي لاحت لكل العرب.. وكان يرفض رفضًا قاطعًا أن يتاجر بالأمة في المعتقلات، كان يغلق كل حديث يفتح هذه السيرة، وإن كنت تستطيع أن تلاحظ ألمًا شديدًا تحاول ملامحه ألا تظهره حتى حدث ما حدث، وغزت إسرائيل لبنان، ودخلت ثاني عاصمة عربية بعد القدس، في تلك اللحظة اضطرب فؤاد حداد اضطرابًا لا مثيل له، وعانى ألمًا فوق طاقة احتمال البشر، وقد تفتحت بصيرته على ايام حالكة السوادج مقبلة بلا محالة:

هل كل ده علسان ضربوني في الأوردي؟

أم كل ده علشان ضربوني في لبنان؟

لم يحتمل فؤاد حداد الاجتياح الإسرائيلي لم يحتمل صيحة محمد حسنين هيكل «دخلنا عصر الهيمنة الإسرائيلية»، وبدأ شعره «في ديوانه» مواويل من أول الدنيا الذي كتبه في أغسطس وسبتمبر 1982م، وهو عام الاجتياح»، يخلط بين ما حدث لأنصار الاشتراكية والتحرر الوطني في معتقلات عبد الناصر، وما هو حاصل في بيروت، وأعلن في شعره رؤيته للأمر بكل وضوح، إن ضرب جمال عبد الناصر لمؤيديه كان السبب الأكيد لما آل إليه مصير التجربة، وراح يساوي بين الضرب «في الأوردي» ـ وهو أوردي أبو زعبل معتقل الشيوعيين الرهيب ـ والضرب في بيروت.

اعتدت في هذه الأيام أن أراه ساهمًا سارحًا مكتئبًا حزينًا حزنًا «يسمم الماء»، وهو نفس الصوف الذي وصف به فؤاد حداد الحزن عند رحيل جمال عبد الناصر.

وضع فؤاد حداد «التليفزيون» في حجرة الجلوس ليتابع الأخبار أولاً بأول، ولم يكن يحتمل رؤية ما يتوالى من صور في الجهاز كانت ملامحه تكتسي بالألم، ويضرب كفًا بكلف، ويسرع ليقف وراء التليفزيون، وهو يرتعش بالغضب العارم وبوجع وصل منتهاه.

وأعترف أمام القارئ: أنني كرهت ديوان «مواويل من أول الدنيا» كراهية شديدة منذ وقت كتباته في عام 1982م، وأنني لم أبرأ من كراهيته إلا منذ سنوات قليلة، لقد أحسست وقتها أن هذا الديوان سيقتل فؤاد حداد، كان يعتصر ألمًا وتتضح جراحه كلها - يوميًا - لتنزف من جديد تنزف نزيفًا أختزن سنين، وأختزن السنين.. وما كان العمر إلا هذه السنوات.

في هذا الديوان «مواويل من أول الدنيا» اعتدى فؤاد حداد على قاموسه الشعري الأثير، وبدأ قاموسه الشعري يضم كلمات لم يكن ليضمها أبدًا من قبل.. ذات مرة قرأ لنا «موال البيات والنوم»، وكان قد انتهى في الصباح من تأليفه، وقضى بعض الوقت أمامنا ينهي تبييضه، ويضع له لمسات أخيرة وهو أمر لم يحدث لنا كثيرًا، بدأ القراءة، وكان كعادته كلما قرأ شعرًا فتت قلبه وبذر فتاته في وجدان سامعيه، وإذا بأبيات من الموال تصف وقفة «شارون» وكان قائد الحملة على لبنان في مشارف بيروت، وغذا بالأبيات تقول:

دخل لنا الغدار بالنار بيفرزنا

أحكم حصار الجيش بشويش بيفرزنا

«....»

نضارة السياح في عنيه ما بانش تخين

جايب معاه أسياخ زي الرموش وسخين

رقصنا رقص الخيل.. هوه يا بنات الليل

وطني بكى التيمور.. والسجن للمأمور

والليل بكى من النور.. علشان بيفرزنا

صحت في نفسي.. يا إلهي.. فؤاد حداد شاعر النور، يعتدي على النور أغلى كلمات قاموسه الشعري.. «علشكان بيفرزنا»«، ويضم قاموسه الشعري كلمة «وسخين»، لقد ذبح الرجل.. ذبح الشاعر الذي يظل يتشوف لنا مستقبلاً جميلاً، وعاش نبيًا لحلم منتظر.. في تلك الحظة ملأني ألمان، ألم مما سمعته، وألم ما أراه أمامي من حزن فؤاد حداد الذي لن يحتمله قلبه الضعيف، في تلك اللحظة رأيت فؤاد حداد يموت أمامي.. وجاءت نهاية الموال:

«الأولة احتلنا والثانية بعترنا..

واللي أباح قتلنا هوه اللي باع تارنا..

كان فؤاد حداد كأنما يقول كلمته، ويلملم أوراقه ليرحل.. وبرغم ما بي من المين لا يمكن احتمالهما، حاولت ما كان مستحيلاً «كعادتي مع فؤاد حداد» لكي أضحكه. أخرجه من هذا ال=جو الداكن المخيم علينا، أبعده عن سكاكين تقطع قلبه المريض، أحاول أن أدفع عن روحه شبح موت رأيته رأى العين يسعى إليه ليختطفه منا، ولم أستطع، كان حزن فؤاد حداد أقوى من أي محاولة لإنقاذه في تلك الأيام.

بعدها بيوم أو يومين على الأكثر، دخلت على فؤاد حداد.. ليفاجئني قائلاً في ألم شديد، وهو مصمم على أن يضم حزنه «السكين» إلى صدره، وفي صدره:

ـ خلاص.. أنا هاجمت جمال عبد الناصر، وح أنشر الكلام ده في صباح الخير.

قلت له:

ـ حقيقي!! ماذا قلت يا أستاذ فؤاد..

وبدأ يقرأ لي «موال الهندي الصغير»، وضمنه الأبيات التي أشار إليها، والتي تصف جمال عبد الناصر قائلة:

«يا غضن فات لاشجر.. يا للي بقيت شومة

وفضلت واقف عليها سجن وحكومة

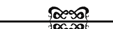
قلبي ما بينفضنيش من سيرة مشئومة»

أنتهي فؤاد حداد من قراءة الموال، كان ما يشبه الدمع يلمع في عينيه، ولأول مرة منذ عرفته، والتصقت به تكلم عن التعذيب المهين الذي فت في عضد جبهة وطنية عريضة كانت مصطفة وتستطيع أن تقف مع جمال عبدالناصر، في مواجهة فساد عبد الحكيم عامر، وتراخي العمل الوطني، وكانت قادرة على أن تقف للأستعمار غير سامحة لأحد «أن يبيع تارنا»، لولا ما حقا بها، وقال فؤاد حداد:

ـ تعرف لما كانوا بياخدونا الجبل حافيين، عريانين في هدوم مقطعة، والبازلت تحت رجلينا زي القزاز المكسر، والكرابيج حوالينا وفوق أجسامنا، والسلاح محاوطنا كأنه طمعان يشرب دمنا، والضابط على حصانه فوق حتة عالية واقف يضمن إننا بنتحرق في الشمس وبنتقطع بالبازلت والكرابيج، تعرف لما كنت با أرفع رأسي بشويش ـ وأبص على الضابط فوق حصانه والشمس وراه، كنت با أشوفه مين؟

ـ مين يا أستاذ فؤاد.

ـ كنت با أشوفه جمال عبد الناصر.





لم يعرف فؤاد حداد
من ترف الدنيا سوى
الشيكولاتة والبونبون!

أنزل لكم في الندى والطل أتنسم

في الضي أضحك لكم.. في الضلمة أتبسم

نغم المحبة بيجمع لما يتبسِّم

ولا أبطل غنا ولا أبطل التسحير بقلبي

طول السنة وبطبلتي موسم.

ف.ح

- **بعد المعتقل سأله موظف كبير عن شهاداته الدراسية تمهيدًا لتعيينه فخرج من عنده غاضبًا.. واضطر للعمل كمترجم بالقطعة.**
- **أراد أن يعبر عن غضبه من د. القط ومجلة «الشعر»، فكتب: الشعر أميره تي. إس . إليوت. ورئيس تحريره عين. قاف. القط.**

في السنوات الست التي صاحبت فيها فؤاد حداد كان المرض والكبرياء قد ألزماه بيته، وكان متألمًا، ولم يكن يريد الكثير كان يريد أن يكون مرتبه من «روز اليوسف» مساويًا لغيره من الشعراء زائد قرش صاغ هو حق موهبته، كان يريد أن يأمن على غده وغد أولاده، لكن «الرفاق» لم يحققوا له ما يستأهله، وغير الرفاق عينوه تعيينًا جديدًا بأجر زهيد، لا يمكنه من التفرغ لشعره، بينما كان «حالف تحت عين الله أنه يأخد حقه من موته»، أن يأخذ حقه من الموت شعرًا خالدًا، وقد استطاع أن ينصف شعره، وفشل في أن يتصف الأخرون موهبته لم يطلب فؤاد حداد الكثير هو الذي أعطى أكثر من الكثير، لكن تلك حكاية نحكيها بعد أن نحكي هذه الحكايات في مدرك وابصر- إيه رمضان الذي لم يعد يذكره إلا ويذكر معه فؤاد حداد، وكل عام وأنتم بخير.

يا دنيا من ارتياحك والا من مكرك

سايبه العيال يرقصوا مدرك وأبصر إيه

اختاروا حريتين وأبو العلاء سجنين

واخترت زيه.. طريقة أسمها الموال

ف.ح

(7)

عملها قبلي أبو العلاء..

لأبى العلاء المعري عند فؤاد حداد منزلة خاصة..

صغيرًا حفظ فؤاد حداد شعر أبى العلاء المعري فيما حفظه من أشعار فحول شعراء العربية العظام «وبعضهم كان فؤاد حداد يحفظ ديوانه من أول بيت إلى الأخير فيه».

وعندما التزم فؤاد بحداد بيته في أخريات سنى حياته، وقد منعة كبرياؤه من أن يذهب إلى أحد، أو يتصل بأحد إلا أصدق الأصدقاء، أضاء نجم أبى العلاء داخله، وفي شعره فتضاءلت إلى جواره أنجم كثيرة عشقها فؤاد حداد وأهتدى بها في مسيرته الشعرية.

لقد رأى نفسه سجين ورهين محابس مثلما كان ابو العلاء رهين محبسين عند طه حسين، وثلاثة في بيته الشهير «أراني في الثلاثة من سجوني..».

في شبابه كتب فؤاد حداد:

في عصر نرى

لازم نقرى

شعر المعري

ولازم نقول

أولى ابتدائي

ألقى وبائي

أكرم أبائي

الناس أصول

وفي محبسه الإرادي فيما سماه «شسخوختي ديخوختي» هو الذي اختطفه الموت قبل أن يصـل إلى الستين.. قال:

اخترت زيه أشمر وأشتغل بالدبش

أشتغل بكلبش

«....»

أبو العلاء باختلف عنه وأنا طيره..

إني باحب الوهـم..

خمسين سنة أنفرزنا في بعض دم ولحم

بقيت أنا وهوه مولوده ومولودى

وذات يوم وكنت أحكي لفؤاد حداد عما حدث لي عندما سمعت في المسحراتي قوله:

ينقص منابي

من السنابل

لكن مناب الـ..

أمل تمام

قلت لفؤاد حداد إنني أتيت بورقة وقلم وكتبتها، وعنـدما تبـين لي أنـك يـا أسـتاذ فـؤاد جعلـت ألـف ولام التعريـف الخاصـة بالأمـل قافيـة، وقافيـة جامـدة صـارت واقعيًا «سـنابل.. ومنابـل».. فرحت جدًا بهذا الاكتشاف، وبهرت..

قال فؤاد حداد يقاطعني مبتسمًا:

ـ عجبتك؟!

ـ عجبتني طبعًا..

وسألني فؤاد حداد:

ـ ولما عجبتك قلت إيه:

ـ قلت دي حاجات ما يعملهاش إلا الأستاذ فؤاد..

ورد في تواضع:

ـ أبو العلاء عملها قبلي بألف سنة..

ساعتها راح فؤاد حداد يلقي على مسامعي أبياتًا لأبى العلاء المعري، أستخدم فيها نفس القافية «أل» التعريف، ولكم أسفت لأنني لم أحفظ عنه هذه الأبيات «أسفت لأنني لم أجدها بعد ذلك في اللزوميات لأبى العلاء».

مرة أخرى، وكنت أكتب لمجلة «الإذاعة والتليفزيون» مقامات فكاهية رمضانية بأسلوب جديد، وكنت أعرضها على فؤاد حداد، رأني معجبًا جدًا بمقطع كتبته، ورحت أردده أمامه:

الليل في رمضان زنجية

غازله الجونلة الضوئية

من المدن أم الأنوار

متدلعة وع القورة هلال

ومولعة في الساق خلخال

فوانيس بترقص باستمرار

قال فؤاد حداد بعد أن استعادها:

- حلوة.. بس ما يصحش تقول الجونلة الضوئية.. لا تتناسب وجلال المشهد الرمضاني.

- بس الزنوج بيلبسوا جونلات من شرايط.

- أنا عارف.. بس علشان رمضان خليها «العباية الضوئية».

وضحك.. فؤاد حداد، وقال:

- أنت فرحان بيها موش كده..

قلت:

- بصراحة فرحان بيها جدًا..

- وإن قلت لك حاجة تزعل..

- حاجة زي إيه..

- أصل أبو العلاء قال نفس الصورة دي..

قلت مندهشًا:

- أبو العلاء مين؟.. المعري..

قال فؤاد حداد:

ـ أيوه.. أبو العلاء قال:

«ليلتي عروس من الزنج عليها قلائد من جُمان».

أنا اصلي فصيح العامية

من عام أول إلى عام ميّة

ف.ح

(8)

أمير الشعر.. أم البرنس؟!

كان لفؤاد حداد رأي سيئ في مجلة «الشعر» وقت أن كان يرأس تحريرها الدكتور عبد القادر القط.

كان الدكتور يتجاهل الشعر المكتوب باللهجة العامية..

ولقد رأى فؤاد حداد غبنًا كبيرًا في أن تكون هناك مجلة لـ«الشعر»، ولا تنشر لشعراء يكتبون بالعامية، كان يرى أن مجلة للشعر في نظره ونظركل ذي نظر لابد وأن تنشر كل الشعر مادام شعرًا جيدًا.

ولقد عمق إحساس فؤاد حداد بالغبن أن المجلة كانت تنشر - ضمن ما تنشر - أشعارًا ليست إلا ترديدًا وقليدًا لتهويمات غربية لشعراء - إن صح القول - يرون في الشاعر الأمريكي «تي. إس. إليوت»، وأرضه اليباب «أو أرضه الخراب» بنية جديدة وتعاليم رشيدة، ينبغي أن يتبناها - ولا يحيد عنها - الشعر العربي، وأنه لا بد من أن ينسج على منوالها، وقد كانت المجلة تطنطن لهؤلاء الشعراء.

كانت المجلة - في رأيه - حريصة على أن تمنع نشر أشعار تجريدية «لا ترديدية» على مستوى رفيع للغاية - كأشعاره - معجونة بتراب وطمي هذا البلد، بعرق أبنائه، ودمهم، بتراثه ومعاصرته، بتجارب الوطن وأحلامه، وبكل أولئك تتصل اتصالاً حميميًا بوجدان المصريين، اتصالاً يشع فيلتحم في الدائرة الكبرى بوجدان الإنسانية في كل زمان ومكان..

الفن المتأصل حوكم

والفن المستورد حوكي

كانت المجلة في رأي فؤاد حداد تتجاهل اللغة الشعرية الراقية في أعمال حرصًا منها على لغة الشعر!! بينما المقاييس الفنية تؤكد على أن للشعر لفتة الشعرية في أي لغة كبت بها.. وبأي لهجة يتحقق.

ولعل القارئ يذكر غضب فؤاد حداد «في حديثه الصحفي الوحيد» من محاولة البعض إزدراء الشعر المكتوب بالعامية بإصرارهم على أن يسموه زجلاً «وإن حوى كل مقومات الشعر العظيم»، كان فؤاد يسألني في غضب:

ـ الشهيد الإيراني دى إيه.. شعر واللا مو شعر.

وأجيب بقناعة لا تشوبها رغبتي في إرضائه:

ـ الديوان كله «بقوة الفلاحين وبقوة العمال» من أوله لأخره شعر.. موش الشهيد الإيراني بس.

ـ يعني الحكاية موش زجل.

ـ هما بيتكلموا عن اللهجدة، وعن الانساق الموسيقية، وما بيبصوش لخصائص الشعر.

ويمسك فؤاد حداد ديوانه المكتوب في الخمسينيات .

ـ دي أنساق موسيقية عرفها الزجل»

ـ لو بصينا لها بدون تدقيق ح نقول أه.. وإذا دققنا النظر أو كانت عندنا نية للنظر الدقيق ح نشوفها مختلفة..

ـ هي الحكاية حكاية نية.. والنية موش موجودة.

ولا يهدأ فؤاد حداد ، ويعود ليتساءل حانقًا:

ـ لو تكلموا عن تطور الشعر العربي هل سيذكرون صلاح جاهين؟

قلت:

ـ لن يذكروا بيرم..

ـ ألم يغير صلاح جاهين وبيرم الشعر العربي؟!

ـ والأغنية العامية غيرت..

ـ تصور لو تكلموا عن تطور الشعر العربي سيتكلمون عن «....» و«....» و«....».. تصور!!

ـ وفيه واحد مهم جدًا لازم يذكروه..

ويتساءل فؤاد حداد بجدية.

ـ مين؟!

ـ إليوت

ويضحك فؤاد حداد ويقول لي ما أريد سماعه من قفشاته الذكية التي يصوغها شعرًا:

«**الشعر أميره.. تي.. إس.. إليوت..**

وريس تحريره.. عين.. قاف القط..

يااللي بتتعشي مرة

باتعشي مرتين

وبيتعشوا ثلاثة

ما ينكس لي عين

إلا من الشحاتة

ف.ح

(٩)

شيكولاتة وبنبوني..

عاش فؤاد حداد فقيرًا..

كان فقره يعذبه، ويعذبه أكثر إن كان هذا الفقر مفروضًا عليه كأنما هو قدره! وبقدرة قادرين.

كان يعاني من إحساس ـ له ما يبرره واقعيًا ـ بالظلم الفادح.

عاش فقيرًا هو الذي أمتلك أمة من العصافير الثرية تزقزق لا مرئية من حوله، وفي داخله، وتعطيه هالة من الصدى العطري المنير.

عاش فقيرًا هو الذي أمتلك عشقًا، وأفر الغنى ـ لبلاده غطى ضفافها وأمتد منها إلى الصحاري التي لا يصل إليها النيل.

عاش فقيرًا وهو الذي كره الفقر لأي إنسان في الوجود، وناضل ودفع ثمنًا غاليًا في مواجهته النبيلة لغول الفقر الدميم.

وفؤاد حداد كان دائمًا يردد أمامنا: أنا مظلوم.

ولا أعرف كيف احتملنا كلماته التي كنا نرى فيها نزيف قلبه أحمر وصراحًا، هل لأننا لم نكن نملك شيئًا لإنصافه غير جهود متواضعة لم تكن لتجدى مع ما تواضع عليه الجميع لأسباب غير مفهومة لكها لظلم شاعر في موهبة فؤاد حداد!! هل كانت تلهينا الساعات الجميلة التي كنا نقضيها معه عن مواصلة الانفطار ـ من أجله ـ هل كان يأخذنا إلى عالمه لاسحري فنسمع غناء الشجر، ونرى حوريات فتانة، وشعبًا قادرًا فنبتعد عن واقعه الأليم، أم أننا كنا مثله حين كتب في ديوانه «النقش باللاسلكي ليالي وصباحيات»، نرى نهاية سعيدة تعوضه عما هو فيه؟

فنركن إلى حلاوة التخيل، ولا نموت كمدًا مثلما يموت، فلا أعرف ما الذي كان يمنعنا من الانفطار؟ كتب فؤاد حداد في ديوانه سابق الذكر «الظلم ليه عند الظالم كل الأسماء المقبولة: الحرية، والحب، والحياة، وعلم مبني على قواعد موش زي ما تيجي.. الظلم ليه عند المظلوم صبر يحب المفاجأت، مش خلصني بأي طريقة» هل بقينا إلى جواره تنتظر مفاجأة نحبها مثلما عاش هو مظلومًا، صابرًا، ينتظر مفاجأة هي حقه الذي لا يمارس فيه أحد، وهي طبيعة الأمور، والمعادل الموضوعي لعشقه الكبير لوطنه وللإنسانية، وهي من ناحية أخرى مقابل مستحق لموهبته التي لا تتكرر.

لم يكن فؤاد حداد ـ فيما أظن الآن الذي عاش منتظرًا إلى أن سبق الأجل العدل، بل كنا جميعًا منتظرين، ولهذا احتملنا تبعات ظلمه الكبير.

عندما خرج فؤاد حداد من المعتقل عام 1964م، وكانت الدولة وقتها تعين من أطلق سصراحهم من الشيوعيين، ذهب فؤاد حداد ـ فيمن هبوا ـ إلى مكتب الدكتور ثروت عكاشة، فوجهوهم إلى مقابلة أحد كبار الموظفين في وزارة الثقافة هل قيل لي أسمه ونسيته لست متأكدًا»، وسأل الموظف الكبير فؤاد حداد:

ـ شهارتك أيه؟

رد فؤاد حداد بكل ما فيه من كبرياء:

ـ مفيش شهادات.

كان يقصد أن ظروف العمل السياسي قد حالت بينه وبين إتمام تعليمه الجامعي، وكان رده يحمل دهشة واستنكارًا، لأن وزارة الثقافة تسأل عن شهاداته، ولا تسأل ـ إن كانت لا تعلم ـ عن موهبته!

ـ طب تقدر تعمل إيه؟

ابتسم فؤاد حداد ابتسامته الصغيرة الحائرة والمتألمة:

ـ أقدر أعمل شاعر..

ـ أنا قصدي وظيفتك.. صنعتك..

اتسعت ابتسامة فؤاد حداد:

ـ شاعر..

قال الموظف الكبير:

ـ ما عندناش وظيفة اسمها شاعر.

وقام فؤاد حداد قائلاً:

ـ وأنا موش عايز اشتغل عندكم.

كان هناك البعض يعملون «شعراء» في دور الصحف المؤممة، وفيهم من لم يشترط فيه الشهادات، وكانت وزارة الثقافة تعطي لأدباء وفنانين منح تفرغ للإبداع ـ ولهذا رأيى فؤاد حداد أن الموظف الكبير «يطفش» ولا يريد تعيينه، أو أن تعيينه على التفرغ لفن كان فؤاد حداد لا يرى نفسه قادرًا على غيره، واتضح له بعدها أن زملاء في النضال لا يستطيعون أن يعاونوه من مراكزهم الجديدة، وأن بعضهم لا يستطيع لأنه لا يريد.

كان فؤاد حداد وقت خرج من مكتب الموظف الكبير في وزارة الثقافة!! يعرف أنه لن يجد عملاً يوافق تدفق موهبته الشعرية، وكان هذا يؤلمه، لكن ما كان يؤلمه أكثر أنه كان يعرف أن بيته كجيبه خالي الوفاض.

واضطر فؤاد حداد من أجل بيته، وهو الحاصل على شهادة إتمام التعليم الثانوي من مدرسة الفرير، ويجيد الفرنسية إجادة تامة إلى العمل كمترجم بالقطعة.

وحقيقة أن فؤاد حداد أنجز ترجمات مهمة، فقد ترجم «لا مذكرات» لأندريه مارلو المفكر والسياسي الفرنسي البارز، والعمل عظيم، وترجم قصائد من الشعر الفيتنامي في كتاب عنوانه «قال التاريخ أنا شعري أسود»، أي أنه «التاريخ» عاد شبابًا، ولم يكن هذا ما يضايق فؤاد حداد كان سعيدًا بترجماته في نفس الوقت الذي اعتبرها فيه إضاعة للوقت في إنجاز ما يستطيع غيره إنجازه:

ـ بس ما كانتش ح تطلع بالجمال ده.

ـ مين اللي قال؟

ـ أنا..

ـ الوقت ده كان لازم أكتب فيه شعر..

وكان يردف في أسى..

ـ شعري هوه اللي ما حدش يقدر يقوله غيري..

وحتى لا يفهم كلامه خطأ.. يكمل:

ـ أظن مفيش حد يقدر يكتب زي حد.

كان ما يضايق فؤاد حداد أكثر أنه اضطر إلى العمل مترجمًا في أماكن كثيرة.. عمل مترجمًا في مجلة «الطليعة». في مجلة «الشعر» وهي ترفض أن تنشر له إذ كانت تتخذ موقفًا من الشعر العامي.

عمل مترجمًا في وكالة أنباء «الشرق الأوسط» أمام آلات التيكز.

عمل مترجمًا في منظمة التضامن الأفرو أسيوي.

بل وترجم قصصًا مصورة لمجلة «ميكي».

وحتى لا يفهم الأمر على محمل غير محمله مثلما فهمت جملته «أنا أشعر الجن والأنس» على غير ما يريده منها، أؤكد أن فؤاد حداد لم يكن يستنكف أيًا من الأعمال، ففي مرحلة نضاله في الأربعينيات وبداية الخمسينيات، بعد أن ترك بيت أبيه بسبب إنتمائه إلى الطبقات الكادحة في نضالها لتغيير المجتمع، عمل فؤاد حداد أعمالاً وشغل وظائف لا يتصورها أحد، لكنه بعد خروجه من المعتقل كان وهو يعلم أي شيء غير الشعر يتألم، فمن ناحية كان لديه ما يريد أن يكتبه وقد تفجرت موهبته الشعرية كبركان لا يني يخرج ما في باطنه، وكانت الأعمال «تلك» تخمد بركانه.

ومن ناحية ثانية كان يى فيها غبنًا وظلمًا لا يقبله في عهد ثوري أعطى لغيره ما لا يقبل أن يعطيه له.. أو لنقل أغرق غيره في النعيم وحرمه هو كفاف أسرته.

كان إحساسه بالغبن كبيرًا، تبكي فيه ملامحه، وتترقرق عيناه وهو يقول منفطرًا «أنا مظلوم»، وكان الظلم ـ مضافًا إلى اسباب أخرى ركيزة في إصابته بجلطة ليست صغيرة في شرايين القلب، وبمرض أخر غيبه عن الحياة والحركة والفعل، حير الأهل جميعًا وحير الأطباء قبل الأصدقاء.

ومن سخريات القدر أن العمل الذي لم يرض عنه فؤاد حداد، وكان السبب في مرضه اضطره إلى قبول ما لا يرضى عنه ليحصل على العلاج اللازم لأمراضه!

ويقطر القلب دمًا، وأنا أقرر حقيقة هي أن فؤاد حداد اضطر ـ على مضض ـ على أنه لمرضه أن يقبل التعيين في «روز اليوسف»، براتب صغير للغاية حتى يحصل على علاج جلطة شرايين القلب شهريًا من التأمين الصحي كي لا يثقل ثمن الدواء كاهل احتياجات أسرته، وأنه ظل إلى أخر يوم في حياته ـ مضطرًا ـ لقبول هذا الراتب الضئيل «ولم تحصل أسرته على معاش استثنائي إلا بعد موته»:

ظلموني باقولك.. ظلموني

حكموا عليّ وما اتهموني

كل لمونة بسنة تأبيدة..

خد بقى عندك حسبة مفيدة

كل لمون الدنيا لموني!

كان صاحب أسرة كبيرة، وصاحب كبرياء كبيرة، ولهذا عاش يصاحبه حزن هو الأكبر، وكان ما يكسبه طوال العام من شعره ـ لأسباب كثيرة ـ إذا ما وزع على شهور السنة توزع جنيهات قليلة تضاف إلى راتبه الصغير.

ومرة أخرى يقطر القلب دمًا، ويرتعش القلم «بدون مجاز» حين أذكر للقارئ أنني كنت أعرف أن فؤاد حداد قبض فلوسًا عن عمل من اعماله إذا ما وجدت أمامه على الخوان الصغير في حجرة الاستقبال لوحًا صغيرًا من الشيكولاته وحبيبات من البنبون.

كان لوح الشيكولاته وحبيبات البنبون هو كل ما يحصل عليه من رفاهية، والباقي يذهب إلى هذه العملاقة زوجه التي لم أكن أتصور كيف تدبر الأمور فتجد بيتها مهندمًا وزوجها وأولادها في قمة الأناقة، وتجد اشاي والقهوة إذا ما زرتهم!

لوح من الشيكولاته وحبيبات من البنبون!

وكنت تراه سعيدًا، وكأنه عاد إلى طفولة يفتقد نعيمها يلوك البنبون بفم ضاعت في السجن معظم أسنانه، ثم لا تمر أيام حتى ترى القلق قد عاد بطيوره الجارحة يعشش في عينيه قلق يتصايح في شرود، ماذا نفعل في الأيام المقبلة؟

ولعل القارئ يستغرب إذا ما قلت له إن أعمالاً كثيرة لفؤاد حداد أخذها البعض ـ ويرغم معرفتهم بظروفه ـ راوغوا وماطلوا في إعطائه مقابلاً لإنتفاعهم بها، بل وكسبهم الكثير من ورائها.

كان هؤلاء يرون فؤاد حداد آله تغرد بالشعر، ويرون الآله لا تأكل ولا تشرب ولا تعلم أولادها.

كان فؤاد حداد دائم الحديث عن أنه مظلوم، لكن عذاباته المادية كانت تحس ولا يتكلم عنها ـ أبدأ ـ وكنا نجلس من حوله مكتوفي الأيدي، ولا نستطيع أن نفعل له شيئًا كان بيننا وبينه حائط، بل قلعة حصينة من كبريائه.

أي عذاب كان يعاني.. وكان يحتمل؟ وأي عذاب كنا نعاني، وألمًا يصبه العجز ـ عن فعل أي شيء رصاصًا في حنايا من يعرفونه، يصبه أسمنتًا خرسانيًا في رأيهم يتجاوز مساحة الضلوع، وأي ترقب محفوف بالجزع لكي نرى على خوانه الصغير لوحًا من الشيكولاته وحبيبات من البنبون لنطمئن لبعض الوقت.

آه من حلاوة كلمات صلاح جاهين

ما أطيب وما أرق وما أبهى وما أبهج!

يا خفيف الظل يا مصر الجميلة

ف.ح

يقرأ الجورنال أخويه..

ليس لي وليس لغيري أن يتدخل في علاقة أخويه طويلة جمعت بين فؤاد حداد وصلاح جاهين منذ كانا شابين إلى أن أصبح لهما أول حفيد مشترك أحمد أمين فؤاد حداد ابن أمينة صلاح جاهين.

كانا عملاقين فلا يطاع ـ بينهما ـ لقصير أمر «كما يقول المثل».

كان صلاح جاهين يقول فؤاد حداد أشعر مني.. وأنا اذكى منه.

وعندما توقف صلاح جاهين عن كتابة الشعر، بعد النكسة «الشهيرة»، لا يعود غليه إلا لمامًا، كتب له فؤاد حداد مقالاً في «صباح الخير»، ذكر فيه العبقريات الجاهينية في القصائد والأغاني، وقال فيه «هذا هو النقد الذي أعرف أن أضع يد القارئ على مواضع الجمال في الشعر الذي أعرض له، وإن ظن الواهمون أنها قصيدة من الغزل في شعر صلاح جاهين، فليكن، إنه جدير به وأتمنى أن تكون جديرة به»، وكتب في نهايته «أجل إن الشعر قاس، الشعر شاق، الشعر صعب، وطويل سلمه كما يقول الحطيئة مستظرفًا وجادًا، وصلاح جاهين لا يعاود صعود هذا السلم منذ سنوات، وأنا ما كتبت هذا المقال، ولا بحت له بما يعرفه من حبي وتقديري، إلا ليعاود صعود هذا السلم، إن مصر تريد من صلاح جاهين أن يعود إلى الغناء، إن مصر لا تتوسل إليه، بل تأمره، وإن صلاح جاهين عائد إلى الغناء بإذن الله، فهذا الغناء أمانة لابد أن يحملها، وهذا الغناء حياة».

هذه الكلمات كتبها فؤاد حداد عام 1977م، عندما أحس أن إصدار صلاح جاهين لأعماله الكاملة هو إقرار منه بأنه توقف.. والجملة الأخيرة «وهذا الغناء حياة» تعبر عن مدى حرص فؤاد حداد على رفيق رحلته الشعرية.

وقد اشتهر عن فؤاد حداد بأنه كان يقول: «أنا أشعر الجن والأنس»، وهذه الشهرة حق يراد بها باطل بالفعل كان فؤاد حداد يقولها، لكنه لم يكن يقولها إلا في مواجهة شعوره بالغبن النقدي، أو في وجه من يستشعر أنه لا يقدر موهبته حق قدرها.

هذا الذي اشتهر عنه قوله «أنا أشعر الأنس والجن» عندما كتب عن صلاح جاهين صدر المقال بقوله «قال ابن سلام أو ابن قتيبة، لا أذكر أيهما.. إن أشعر الشعراء من يستولى عليك شعره، ويستحوذ على أقطار نفسك ما دمت فيه.. وقد ضرب عليه مثلاً بالطبقة الأولى من فحول الجاهلية، قال إن الأعشى أشعر الشعراء مادمت ماضيًا في إنشاد شعره، فإذا انتقلت إلى أمرئ القيس كان هو الأشعر، وكذلك النابغة وزهير بن أبى سلمى وهذه الطبقة لا تجود بها الأيام في كل جيل من الأجيال ولا في كل عصر من العصور ولا في كل قرن من الزمن».

لقد قرر فؤاد حداد في بداية المقال فحولة صلاح جاهين، واستحقاقه بأن يراه قائه أشعر الشعراء مادام ماضئًا في قراءته.

وكنت حين أتكلم مع فؤاد حداد عن صلاح جاهين يقول:

ـ صلاح شاعر كبير قوي.. قوي.. قوي..

وكان يرفع يده على فوق مرددًا بعض ما كتبه في المقالة صلاح هو اللي قال: «فيك يا حديد روحانية»، «ساعتها كانت ملامح فؤاد حداد تتراقص من الفرحة واللذة»، صلاح هو صاحب «أغنية برمهات».. صلاح هوه اللي كتب الرباعيات، وتعود يده لتشير على أعلى فأعلى وهو يقول: «الرباعيات دي كبيرة قوي.. قوي.. صلاح هوه..

وكنت أمازحه فأقول:

ـ صلاح جاهين شاعر كبير قوي.. بس بعد حضرتك..

وكان يرد:

ـ إذا كان صلاح بعدي.. الباقيين كلهم بعده بكثير.

ومثلما يحدث في العلاقات الحميمية كانت تنتاب العلاقة بين فؤاد حداد وصلاح جاهين فترات فتور، لم يكن لها فيما أظن، إذ لم يصرح فؤاد حداد بأسبابها ابدًا، إلا سبب وحيد هو إحساس فؤاد حداد حين تضيق الحياة في وجهه، وكانت غادرة وتفعلها مرارًا، أن صلاح جاهين لم يفعل كل ما يستطيعه، وكان يراه مستطيعًا، ليرفع الغبن عنه.

وفي واحدة من موجات الفتور تلك لعبت مع فؤاد حداد لعبة ماكرة كان معي في العربة، وكنا ذاهبين لمكان لا أذكره الأن، وسالته، وكان الأمر لا يعنيني:

ـ حضرتك شفت «هو وهي».

قال فؤاد حداد في عناده الرحيم:

ـ لا..

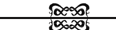
ـ صلاح جاهين عامل فيها أغاني جامدة.

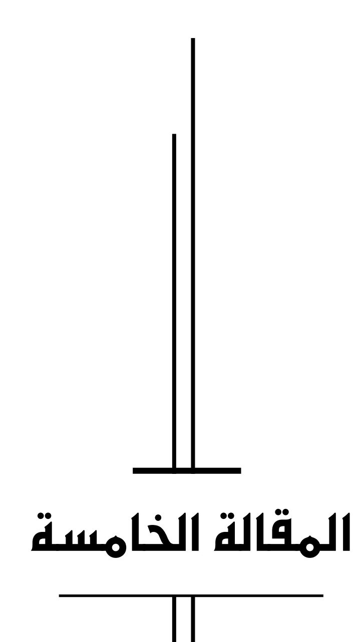
وحول فؤاد حداد وجهه وكأنه يتابع شيئًا في الطريق، وكنت قد وضعت في ريكوردر العربة شريط أغاني «هو وهي» ضابطًا إياه على أغنية «خالي البيه»، مددت إصبعًا وأدرت الجهاز فراحت سعاد حسني تصدح بأغنية صلاح جاهين الأجمل.. وما أن انتهى المطلع حتى أعاد فؤاد حداد وجهه إلى داخل العربة، وقال في دهشة وإعجاب:

ـ إيه ده!! إيه ده!!

وعندما انتهت الأغنية واقفلت الجهاز.. كان فؤاد حداد يضحك فرحًا، ويقول:

ـ أحنا بقالنا مدة مازرناش صلاح جاهين!





المقالة الخامسة

لقاء السحاب الذي لم يتم
بين قوافي فؤاد حداد
وصوت أم كلثوم

الضحك طالم سلم الترماي/ جاله حكيمباشي وقال له: يا زول م اكشف عليك.. قول/ أه.. وأيوه.. وأي عايزين نشوف هُما الثلاثة دول. باشوا في قلبك وإلا لسه قواي؟

ف.ح

- **سر شغفه الشديد بـ«الكوفيات» خاصة ذات اللون الأحمر.**
- **سألوه: أيهما أشعر عبد الرحمن الأبنودي أم عبد الرحيم منصور فأجاب: باسم الله.. «الرحمن».. «الرحيم».**
- **ظل ينتظر أن يكتب عنه صديقه محمود أمين العالم.. فلما مات عم فؤاد كتب العالم مقاله البديع: الله.. الوطن.. الشيوعية.**

رمضان كريم.. الله أكرم.. ورمضان يحب المكسرات.. لأن الناس. اشترتها أو لم تستطع. تحبها.. واليوم نقدم مكسرات «حدادية» وربما لاحظ القارئ، أو سيلاحظ أنني كنت دائم المداعبة لت«فؤاد حداد».. فمن ناحية كان هذا الأمر جهدًا أليت على نفسي- أن أبذله في محاولة للتخفيف من حزنه الدائم، ومن ناحية أخرى كانت الفكاهة واحدة من مفاتيح فؤاد حداد. ذي الدم الخفيف جدًا ما إن تنكشه بها حتى تظل مستمتعًا معه، بما يخفيه عادة. من باب الكبرياء. عمن لا يفهمون معنى الفكاهة، ويظنونها استخفافًا.

وأذكر مرة قال لي فيها فؤاد حداد وهو يضحك:

- ما تقولش أحد إنك بتهزر معايا.

واندهشت لكنه أكمل لكي يزيل دهشتي:

- موش كل الناس بتعرف الفرق بين الهزار والاستخفاف.

ساعتها شكرت الله على حسن طنه فيّ.

كان يحب القفشة ويجيدها، ويحب القافية على طريقة الشعب دون أكثار، ويحب التلاعب الذكي باللغة.. وكان يضحك، بل يرتج ضاحكًا، ويمسك بأسفل بطنه وهو يصيح.

ـ الفتق.. الفتق يا هشام.

وقلت له أول مرة:

ـ لا مؤاخذة.. ما كنتش أعرفق إنك في منظمة «فتق».

وراح.. وأخذ معه زمان الضحك الجميل.

«وأي قافية مادامت حلوة تتأمره».

ف.ح

لو شاطر.. هاتها.

أعجبني الشاعر الشاب محمود الحلواني حين كتب عن فؤاد حداد «الخيال الذي ضحك على القافية.. أعجبني أنه وصل من شعر فؤاد حداد ـ وحده ـ إلى هذه الحقيقة التي مارى فيها البعض متصورين أن القوافي الجميلة كانت تضطر فؤاد حداد إلى أشياء من الممكن تجنبها في الشعر.

كان فؤاد حداد يقول:

ـ القافية فتوح.

كان يقصد بها أن القافية الجيدة تأتيك بمعان لم تكن تخطر لك على بال، وعندما تعانيها، وترى النتائد لابد ـ إن كنت منصفًا ـ أن تشكر القافية لما جاءتك به.. وأن تعترف بجميلها.

كان فؤاد حداد والقافية صديقين.. يتبادلان المناف الشعرية من ناحية لم يكن يبحث عنها، أو تجهده كان يقول إنها تجيئه وتجئ معها بما يبهره من المعاني، وكان يجدد فيها، والذي سمع أغنية علي الحجار الجميلة من تأليف فؤاد حداد «صلينا الفجر فين» لابد قد لاحظ أو لا بد وأنه لم يلاحظ هذه القافية.

«وبدمع من سماح

قربت إلى السماء

الأرض المستغيثة»

هكذا رأى فؤاد حداد أن «السماء» و«السماح»يصلحان قافية، ولقد قلت لابد أن من سمع الأغنية قد لاحظ هذه القافية، أو لا بد وأنه لم يلاحظ والحقيقة أنها أقرب إلى ألا تالاحظ، ولهذا فعلها فؤاد حداد، وكان يقول: «السين والميم والمدّ» ح يروحوا فين دول يعلموا قافية، والشطارة إ، الحرف الأخير مايصدمش الودن، وكان يقولها ثم يسألك:

ـ دي قافية وإلا موش قافية؟! وكنت بعد تمعن لابد وأن ترد عليه.

ـ دي قافية ونص..

وكان يضحك فرحًا:

ـ قافية ونص مش قافية نص نص.

ـ الشعب العربي بيحب القوافي خصوصًا القوافي اللي بتقولو عليها لزوم ما لا يلزم، وما لا يلزم دي.. عند النقاد اللي حطوا قواعد الشعر. بس الشعب اللي حط القواعد الشرعية للسمع بيحب الجناس الكامل في القافية.. والألعاب اللغوية اللي بتصنع هذا الجناس الكامل..

المهم ألا يضيع منك ما تريد أن تقوله الشاعر الحقيقي لا يتعب في أن يجد القافية، القافية تسعى إلى الشاعر الحقيقي، وهي في غاية الكرم.. لا تأخذ منه تعطيه الكثير.. الكثير..

أتذكر ذلك الآن، وأنا أقرأ مقدمة «ميت بوتيك» ديوان فؤاد حداد «الخطير» عن الانفتاح والتبعية للغرب.. «لا أقتحم المعاني، ولا ألتف عليها، تأسرني القافية، هي التي تقص أثري»، وما دمنا ذكرنا الديوان «ميت بوتيك» فخذ عندك أيها القارئ الكريم هذه الطريقة المبتكرة في القافية.. نوردها أولاً ثم نعلق أو لا نعلق لا يهم (اللهم هنا أن أقرر أنني أنقلها بتصرف).

«فيه راجل موش أبي

ولا كان يشبه أبي

فعل الفعل القبيـ..

والحا كلها الحمار

***

كان رافض الاكتفا

وبيأكل الاكتفه

قال بطلنا الكفا

والحا كلها الحمار

***

في الصيف والا الشتا

نايمة ومتلفتة

الفتنة والانفتا

والحا كلها الحمار.

ولا أظن إلا أن القارئ قد لاحظ أن القافية في كل شطرة ثالثة كلمة تنقص حاء، فأين ذهبت حاؤها؟.. أكلها الحمار.. (وخل بالك من الحاء في الحمار).

وذات مرة ـ قرأ لي ـ أو لنا ـ فؤاد حداد أحد مواويل ديوانه (مواويل من أول الدنيا) ووصل في نهايته إلى تدفق رهيب من القوافي ذات الحمل الثقيل، ثم توقف قبل نهاية الشطرة الأخيرة، وسألني عن القافية التي ستجئ.. وقلت عدة قواف وكان فؤاد حداد سعيدًا في كل مرة وهو يقول لي:

ـ لا ـ مش دي.

وفي النهاية رفع يده.. فإذا بالقافية لا تنتمي إلى سلسال القافية، ولكنها تنتمي إلى مفتتح الموال.. ما إن رأيتها حتى صحت كالصعيادة السميعة «آه ه ه ه ه».

كان الموال «موال السطوح في الأرض»، وكانت بدايته:

«يا عم ياللي سطوحك له جار الأرض

يا عم جار الإمام السجدتين والفرض

كل الرسايل في أحضان السما تنفض».

وجاءت نهايته مرتبة كالآتي:

«ياعم يا للي سطوحك ريح القايش

ما كانش يطلع كلامي في القمر عايش

ولا في حوش الإمام والكحك والفايش

ما كانش يطلع كلامي دِقّي وهيلهلي

فات الجبل على مهلى.. والسطوح في الأرض».

وأرجو من القارئ أن يلاحظ أن قافية الضاد ثلاثة فقط بداية الموال.. أما رابعتهم فقد جاءت بعد 161 (مائة وواحد وستين) سطرًا.

جلس فؤاد حداد على الكنبة في حرفها وقال بلهجة انتصار فني:

ـ شفت أنت قلت آه ه ه.. إزاي.

ـ شفت.

وعلمني فؤاد حداد أن الموال القصصي الشعبي يترك قافية ناقصة في الأول، ومن الممكن أن يغني صاحبه مواله ساعتين وثلاثا، وبعدها ينهى مواله بهذه القافية الناقصة التي هي جناس كامل ساعتها يصرخ الناس من الابتهاج.. وتكون هذه أجمل «قفلة» للموال.

قلت لـ«فؤاد حداد»:

ـ غريبة.. الناس قاعدة ساعتين تلاتة، وما دون وعيها تظل منتظرة هذه القافية الناقصة.

ـ أه.. وموش غريبة ما أنت شفتها بنفسك دلوقت.

ـ شفتها.

ـ أنا ذيك استغربتها في الأول.. وبعدين أتعلمتها منهم.

ـ لأ.. وبتشكلها في المواويل وفي نهاياتها على كيفك.

ـ الصح كده.. تتعلم سر .. وتوصل بنفسك لأسرار لسه مجولة.. والفن ياما فيه.. المهم أنك لما تحس بالحلاوة تشوف الحلاوة حلوة ليه.. كدة تبقى شاعر كبير.

ولعل القارئ يتذكر ـ وأظنه يتذكر ـ ألف ولام التعريف ـ عندما جاء بها فؤاد حداد قافية، وقال لي إن أبو العلاء المعري فعلها قبله بألف عام إنها حلاوة أستمتع بها فؤاد حداد، ومثلما نصحني راح يستكنه سر الحلاوة، وخذ هذه القافية التي لم يفعلها المعري ولكنها تنتمي إلى سر الحلاوة في قافية:

«الواد الأفندي اللي طاير حافي من عقل

لما البلاد والنجوم يشتاق لها وتشتاق لـ..

تلعب معاه.. شقل بقل وما كأنه أديب».

ها هو ذا القارئ يلاحظ أن اللام التي توصل استخدمها فؤاد حداد قافية «عقل» و«تشتاق لـ»، وأن قافية «شقل بقل» زادت الحلاوة حلاوتين وهي داخلية.. وتمارس فعلها لنقل الموال إلى قافية جديدة تتسارع بها النقلات.

الكلام عن القوافي وابتكاراتها فؤاد حداد فيها (يعد فهم سر الحلاوة في اشعار من سبقوه، وأشعار الشعب) لا ينتهي.. لكنني من المفروض أن انتهي من الكلام.. وأن أجعل مسك الختام هذه القافية التي لا بتخطر على بال.. وطوّل باللك معايا.

في الستينيات كتب فؤاد حداد وهو يسحر المبعوثين للحصول على إجازات علمية في الخارج.

«أنا يا أسحر المبعوثين

أولاد يا رب

ف ألمانيا شين».

والمبعوثين ومشين «قافيتان جميلتان، استفاد فيها فؤاد حداد من الاختصار الدال على ألمانيا الشرقية، إذ كانت غالبًا ما تكتب في الصحف ألمانيا «ش».

أما في الثمانينيات.. ومثلما كان يلاعبنا فؤاد حداد قوافي (!). قرأ ذات مرة في موال «زهرة الخشخاش» قاصدًا أن يحيرنا:

«هداية اللعبة ديه طول ما أنا غاوي

اللي منورز. وكل نجمه على ساقها

هات الطوابع وهات الأظرف وأنا ألزقها

طنطا أغرب.. والشرقية....».

وسأل فؤاد حداد، وقد قام من مكانه في حرف الكنبة البعيد، وأشهر سبابته سعيدًا:

ـ الشرقية إيه.. هات القافية.. أنت مش بتاع قوافي؟!

والقارئ أترك الحكم، هل كان من الممكن أن يخطر على بالي أنه سيقول «والشرقية أزقزقها»، طبعًا لأن «الزقازيق» التي زقزق بها الشرقية عاصمتها، والقارئ الحكم.

أما حكمي أنا فإن القافية التي ترد على ذهن غيره هي «الشرقية أشرقها»، فمن ناحية هي قافية منضبطة على «القاف والهاء والمد المفتوح»، لكن فؤاد حداد الذي قال طنطا أغرب مستفظعًا أن يقول أغربها، لا يمكن أن يقول «أشرقها» على الشرقية فهي كلمة تعني ضمن ما تعني «الغصة بالماء»، وذوقه يتباعد به عن كلمات كهذه في سياق كهذا خصوصًا وهو لا يعدم حلولاً جميلة.

والحقيقة أنني مادمت قد فتحت في «القافية» عند فؤاد حداد، فإنني قمين بألا أنتهي (أنا عارف نفسي)، لكن وآه من لكن إذا كان من الضروري أن أنتهي واثقًا من أن القارئ سيجد بنفسه في دواوين فؤاد حداد كل ما هو عجيب وحلو في القافية، فإنني أنتهي ـ على مضض ـ بهذه القافية العجيبة (التي لاعبنا بها أيضًا).

لـ«فؤاد حداد» قصيدة عجيبة عن الخرتيت كتبها للأطفال (والخرتيت كما تعلمون أسمه أيضًا الكَرْكَدَّن).. و(أيضًا تحت ضغط المساحة أتخير منها صطورًا غصبًا عني).

«الخرتيت الثقيل

في الرأس والبدن

مزاجه ثقيل

لا يعرف الشجن

وشكله ثقيل

منه التراب أن

والطن ألف كيلو

لكنه..... أطن».

هل يخطر على بال شاعر أن يقول عن الخرتيت أنه (أطن) من الطن، بالطبع كنا نرسب في الامتحان، لكننا كنا ننجح في امتحان أخر.. إذ كنا نعرف أن القافية لا تكمن حلاوتها في أنك من غير الممكن أن تتوقعها.. فتبهرك، لكنها هنا لها وظيفة أخرى.. إذ تعطي تعبيرًا صوتيًا عن ثقل الخرتيت على الأرض.. بينما القصيدة تتكلم عن ثقل الفيل في كل شيء.. ألا يطن الثقيل.. صدق فؤاد حداد إذ قال يعلم ـ من يريد ـ القافية فتوح.

«لما الصدى يرد الصدى

يهد الجبال

كل السهام متقصده

جنبي الشمال».

ف.ح

موش ح يحصل.. وأبقى شوف.

في بدايات عام 1985م، كنت أحضر ندوة في حزب التجمع، وجاء مقعدي تمامًا خلف الدكتور محمود عبد الفضيل عالم الاقتصاد المعروف.

كان فؤاد حداد وبعد غيبة طالت لثمانية عشر عامًا قد واجه جمهوره في مسرح السلام مقدمًا أمسية شعرية أستطاع أن يمسك فيها بأنفاس الحاضرين أكثر من ساعتين، بينما يذيب كلمات أشعاره في وجدانهم، وهم بين تصفيق مدو، وأهات تتعالى، وقهقهات كالبكاء، وبكاء يرتج في القلوب التي تتمنى ألا تفوتها كلمة من كلمات الشاعر العظيم.

جاء الأستاذ (الدكتور رغم أنف من منعوه) محمود أمين العالم ـ يسلم على الدكتور محمود عبد الفضيل.. ودار بينهما بعد السلامات حديث ذو شجون.. قال الأستاذ العالم:

ـ شفت فؤاد حداد.

ـ ده راجل موش معقول.. ساعتين وأكتر عمال شعره يتلاعب بينا. يدينا أمل ويبكينا.. يحمسنا.. ويضحكنا.. موش ممكن.

ـ فؤاد حداد بقى ظاهرة خاصة في السعر لها نسيج مختلف.

ـ لا.. وعنده قدرة على شرح أصعب الأمور بأيسر السبل.

ـ موش بس بأيسر السبل.. بفنيات لا أظن إن الشعر عرفها بهذا القدر من قبل.

ـ حكاية الفنيات دي.. أنت تفهمها أكتر مني.

ـ العفو.. العفو.

ـ لأ.. صحيح.

وقال محمود أمين العالم ـ أنا ح أكتب عن ظاهرة فؤاد حداد الفنية.. لازم الناس تحس بأبعادها المتشابكة.. أنتهت الندوة، ورحت أنهب الطرق المزدحمة أريد أن الحق بـ«فؤاد حداد» قبل أن ينام لأزف إليه خبرًا أعرف أنه سيسعده، وربما يخف عنه ألمًا من تجاهل النقد لشعره، ألمًا يحرق جوانحه في كل ساعة من ساعات النهار والليل.. لقد كان هذا التجاهل.. بقدر ما هو مؤلم لـ«فؤاد حداد» ومحبيه، غريبًا، خاصة وهو يصدر من رفاق نضاله «النقار». ركنت العربة تحت بيت فؤاد حداد ورحت ألتهم السلالم اثنتين اثنتين بجسدي الثقيل ولهاثي يكاد يقرع أبوان جيرانه وأذانهم فتحت لي الباب السيدة زوجه ورحبت بي وبان عليها الارتباك فعرفت أن الأستاذ فؤاد قد نام وأنى لم الحق به.. ووجدتني أقول.

ـ ممكن حضرتك تصحيه.

كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي طلبت فيها هذا الطلب.. فقد كنت أعرف أن نوم فؤاد حداد ليس كالنوم، ولكنه تمهيد ذهني لكتابة الشعر في الصباح.

جاء فؤاد حداد إلى حجرة الجلوس يحكم الحزام حول روبه المنزلي.. ويحاول جاهدًا الا يريني ـ لفرط حساسيته ـ إمارات النوم على وجهه:

ـ أهلاً وسهلاً..

رحت أقص على فؤاد حداد كل ما سمعته وأنا متهلل الأسارير، بينما عيناي تبحثان عن تهلل مماثل في وجه فؤاد حداد ولا تجده.. وانهيت كلامي بقولي:

ـ راجل جدلي.. ح يكتب عن الأبعاد المتشابكة خلي بالك يا أستاذ فؤاد من حكاية الأبعاد المتشابكة دي.

قال فؤاد حداد وقد فشلت في أن اضع أبتسامة فوق وجهه بموضوع «الجدلية» هذا.

ـ موش ح يكتب.

ـ يا أستاذ فؤاد قال قصارى إنه ح يكتب.

ـ موش ح يكتب.

وارتسم ألم شديد على وجه فؤاد حداد أهذا ما جئت متعجلاً وأيقظته من نومه من أجله؟!.. أصابني إحباط معذب.. ولم أعر ماذا أقول.. جئت أسعدجه، وها أنا ذا أمامه وقد أصبته بكابة خرجت من كلماتي الفرحة كطلقات الرصاص.. وقال لي فؤاد حداد وهو يودعني:

ـ أنت طيب.. والأيام بيننا.. ومن دلوقت باأقولك موش ح يكتب.

بقيت بعدها لأيام طويلة أتمنى أن يخيب ظن فؤاد حداد، وأن تتحرك البركة الراكدة بأمواج تعطي شعر فؤاد حداد حقه من النقد.

وفي واحدة من الزيارات التالية أو (لنقل المتوالية) قال لي فؤاد حداد:

ـ أنا قابلت محمود العالم.

وقص على أنه ـ وأمين فؤاد حداد ـ قابلا محمود العالم إن لم تخني الذاكرة في دار النشر ـ التي تشرف عليها السيدة زوجته، وقال الأستاذ العالم لـ«فؤاد حداد» كلمات طيبة عن الأمسية، وعن قصيدة نشرها فؤاد حداد في صباح الخير «قطر السعيد»، ذات بناء شديد الإبهار لم يُر له مثيل في الأدب العالمي (في رأي الأستاذ العالم)، وأنه ـ فؤاد حداد ـ قال للأستاذ العالم حينما استمهله شهرًا ليكتب عن شعره:

ـ موش شهر قدامك سنة يا محمود.. بس لو ماكتبتش نشوف بعض بعدها وكإن كل منا ما يعرفش أخوه.

قلت لـ«فؤاد حداد»:

ـ أنا مصدقك من ساعة ما قلت لي.. أنا نفسي إنك أنت تصدقني.

ـ في أيه يا أستاذ فؤاد..

وقال وملامحه تعاني ألمًا محضًا:

ـ فيه إنه موش ح يكتب.

بعد هذا اللقاء بشهور توفى فؤاد حداد في أول نوفمبر عام 1985م، وكان قد نشر عدة قصائد من فيض كان يكتبه، وكان قد أعاد أمسيته بمسرح الجمهورية، وقدم أمسية ثانية بعنوان «في نور الأدان».. ولم يكن الأستاذ العالم قد كتب عنه حرفًا.. وبعد وفاة الأستاذ فؤاد قرأت للأستاذ العالم مقالة نقدية عظيمة عن فؤاد حداد بعنوان «الله.. الوطن.. الشيوعية»، وفي كل سطر من مقاله كان قلبي الباكي يقول:

ـ لماذا لم تكتب هذه الكلمات وهو حي.. لماذا تركتموه يموت كمدا؟!

«وجهي الجميل انجلد»

ف.ح

وكأنك السودان؟

كان فؤاد حداد وسيمًا معتزًا بملاحته، وكان يشكر الله كثيرًا على ما وهبه من جمال الصورة (والصوت طبعًا) بل كانت له أراؤه ـ دومًا ـ في ملاحة الآخرين أو ما هو عكس هذا لكن هذه الآراء لم يكن ينبني عليها أي تصرف من تصرفاته، هو الذي يرفض أي سخرية من الآخرين، وكان أنيقًا للغاية ملتفتًا لهندامه بشكل ملحوظ له طريقة خاصة يحبها في تفصيل بدلاته، وقد رأيته عند الترزي يلف ويدور أمام المرآة لوقت طويل رافعًا ذراعًا ومخفضًا الأخرى لاويا رقبته ليستطيع أن يرى كل جزء بدقة، بينما تتوالى ملاحظات التي لا يستطيع أن يلاحظها غيره في تصميم «رقيق» على أنم يستوعبها الترزي بعدها يبدأ بسؤال من حوله عن رأيهم غير مفلت لأي ملاحظة لا تجعل البدلة تُصب صبًا على جسده الرشيق.. فإذا ضمنا البدلة بدأ الكلام ع الكوفية التي تكون لائقة عليها، فقد كان ـ يرحمه الله ـ يكن عشقًا خاصًا وخالصًا للكوفيات.

كان اعتزازه بنفسه وكبرياؤه يفرضان عليه عناية فائقة بأناقته وأه من قصر اليد!

أكاد اراه الآن واقفًا أمام مرآته في حجرة نومه يعاين نفسه قبل أن يغادرها ليلتقي بضيوفه وقد صفف شعره إلى الوراء في عناية وضع «روبه» الشتوى ـ على «البيجاما». وعقد حزامه أو ببدلة كاملة وكوفية ومعطف أو بدونه، وقد حرص على أرتداء جورب عال يليق وانتعال حذاء يبرق.

وأذكر مرة أن كنا في زيارة للأستاذ خيري شلبي في مجلة «الإذاعة والتليفزيون» بصحبة الشاعر ماجد يوسف، وصاح الأستاذ خيري متهللاً ـ كعادته كلما جالس فؤاد حداد ـ:

ـ احنا ما اتصورناش مع بعض أبدًا يا عم فؤاد.

وأرسل الأستاذ خيري شلبي في طلب مصور المجلة.

جاء المصور وانشغل فؤاد حداد بتعديل هندامه (الذي على سنجة عشرة!) وشعره وجلس للتصور ونحن من حوله.. التقط المصور لنا الصورة، وبعدها بأيام أرسل لنا الأستاذ خيري على بيت فؤاد حداد نسخًا من الصورة بعددنا، ولابد أن فؤاد حداد عاين الصورة بمنتهى الدقة، ذلك أنه بادرني وأنا أزوره بعدها بقوله وهو يريني الصورة:

ـ تصور أنت بتطلع حلو في لاصور!

قلت أداعبه:

ـ الكاميرا ما بتكدبش يا أستاذ فؤاد.. وما بتخترعش..

وجاء رده العفوي البرئ:

ـ إزاي بقى!!!

وأمعانا في المداعبة أخذت الصورة مقهقهًا أريها له قائلاً، وأنا أشير على نفسي فيها:

ـ يا سلام أحلى واحد في الصورة.

واستلقى فؤاد حداد من الضحك..

وأذكر عندما قام عبد الغفار عودة بإعداد أمسية شعرية لـ«فؤاد حداد» عام 1985م، أن كان الأستاذ قد دوخنا بحثًا عن كوفية حمراء ذات درجة أحمرار خاص، وكان يقف في الكواليس شديد الأناقة شديد القلق، فقد بقى قبلها أكثر من خمسة عشر عامًا محرومًا من إلقاء شعره على جمهور كبير، وكان فؤاد حداد قد تأكد من الكواليس أن الجمهور يملأ المسرح المقاعد والممرات بحيث لا مكان لقدم.

أنعكس قلق فؤاد حداد ألامًا بالصدر كان مصابًا بجلطة في القلب، وكنت وقتها إلى جواره أراقبه خشية أن يصيبه الإرهاق بما لا تحمد عقباه، وعيناي معلقتان على مسامة تكادان تتلمسان العَرَق بنظراتهما، فالعَرَق مع ألام الصدر ظاهرة مخيفة طبيًا.

كان لا يفتأ يسألني:

ـ أخذ تحت اللسان.

و«تحت اللسان»تلك هي حبة الدواء الموسعة للشرايين التي يضعها المصابون بالجلطة تحت لسانهم إذا ما عانوا الألمًا بالصدر.. من رعبسي قلت له في المرة الأولى.. ضع واحدة.. لكن عندما تكرر السؤال.. بينما عيناه تراقبان تمام الأستعداد ـ بدقة متناهية ـ للظهور على المسرح قبل فتح الستار.. ولأنني لم أجد عرقًا يتصبب من وجهه فهمت أن القلق هو السر وراء هذه التساؤلات أو أنني أحببت أن أفهم هذا قائلاً في نفسي. أن قلقه سرعان ما يزول حين يواجه الناس، وكعادتي قلبت الأمر مداعبة شعرية له إذ كنت متأكدًا أن أجمل المداعبات لديه ما كانت بالشعر. قال، وقد فُتح الستار، بينما يتقدم خطوة ويتوفق:

ـ أخد تحت اللسان؟

قلت:

ـ تأخد تحت اللسان/ ونأخد بالودان/ إحنا بينا تكامل/ وكإنك السودان..

ألتفت فؤاد حداد ضاحكًا وهو ينقض على المسرح وحشًا شعريًا في هيئة الطير.

ـ أنا برضه اللي أسود يا هشام؟!

صوتك لكل الناس

يُرجى كمثل أخ من أب نودى

من أشعر؟

سُئل فؤاد حداد ذات يوم ـ من أشعر.. عبد «الرحمن» الأبنودي، أم عبد «الرحيم» منصور؟!

قال فؤاد حداد:

ـ بسم الله «الرحمن».. «الرحيم».

وتوقف عن الكلام.. إذ كان قد أوضح رأيه بما لا يدع مجالاً للشك.

إيه اللي يفضل واللي يبقى لي

غير الجميل بيغني موالي

ف.ح

ربنا يخليك لمصر.

في ليلة من الليالي التي حرص سيد مرعي على إحيائها، يستمع فيها لأهل الفن غناءً وحديثًا، والظن أنه يمتلك منها تسجيلات في منتهى الندرة، كان سيد مكاوي يجلس وعوده على رجليه، ووصلت أم كلثوم وملأت المكان بقفشاتها المدوية تتبادلها مع الشيخ سيد، وبحديثها الشيق تبثه في أذان الحضور، وكان لـ«سيد مكاوي» هواية جميلة تطلب منه في القعدات الخاصة هي إلقاء النكت ملحنة على عوده، ولما جاء الدور على الشيخ سيد ليغني، فوجئ الجميع بـ«أم كلثوم» تقول:

- غنّي لنا يا شيخ سيد «أول كلامي سلام».

وأول كلامي سلام هي الافتتاحية الشهيرة للبرنامج الإذاعي من أشعار فؤاد حداد «من نور الخيال وصنع الأجيال في تاريخ القاهرة»، والذي لحنه بعبقريته الفذة سيد مكاوي.

قال سيد مكاوي:

- عاجباك يا ست؟!

وقالت أم كلثوم تقفش الشيخ سيد:

- عاجبني اللي مألفها.. عمركم سمعتم شاعر بيقول عن مصر «وتزقفيني الكلام»!!

وعندما بدأ الشيخ سيد العزف والغناء.. شاركته «الست» في أداء الأغنية ثم ترك لها الملحن العبقري المجال، فغنت أم كلثوم الأغنية كاملة (ليتنا نستمع إليها إذا أفرج عن بعض التسجيلات)، وبعد الغناء أعربت أم كلثوم عن أن الغناء لـ«فؤاد حداد» إحدى أمانيها، ويا ليته يتصل بها ويقدم لها ما تغنيه من أشعاره.

وبالمصادفة علم فؤاد حداد بما حدث بعد مرور وقت طويل، وغضب لأن سيد مكاوي لم يخبره بالأمر في حينه، وحصل على تليفون أم كلثوم، ومن عند الخردواتي أمام بيته اتصل بها تليفونيًا (دخل التليفون بيت فؤاد حداد بعد وفاته!).

ويحكي فؤاد حداد متأثرًا وسعيدًا أن الست قالت له إنها تتمنى لو غنت له، وأنها في نهاية المكالمة قالت له بعد مديح لشعره أطربه كصوتها الذي وصفه في قصيدة له:

«وجهلت مصر وسرها ما لم».

هذه الأغنية كتبها فؤاد حداد في الثمانينيات.. لكن المتتبع لشعره سيجده قد فعلها كثيرًا من قبل.. أي أنها خايلته وأعطته سرها من «بدري قوي»، والذي يقرأ ديوان «كلمة مصر» سيجد مثالاً صارخًا لها كتبه فؤاد حداد في أوائل السبعينيات في قصيدته «يا أخضر يا ريحه مصر»:

«أنده عليك يا أخضر وقلبي حزين

ساعة ما يرجع كل طير للعش

لون السما والأرض لون العشق

وأنا طول حياتي وعشت..

أنده عليك».

الآن يلاحظ القارئ أن فؤاد حداد مُحقًا ـ وجد في العش، والعشق، وعشت قوافي جميلة، لاستراكها في أكثر من حرف، وكون اخملاف حرف الروى لا يصدم الأذن.

ومرة قلت لـ«فؤاد حداد» إن النون بعد مدّ، والميم بعد مدّ كالحنان، والكلام يرى فيهما الأدب الشعبي قوافي إن اختلطت لا تؤذي الأن، قال:

ـ طب ما أنتو بتلاحظوا أهوه.

ـ بس ما بنقدرش نعملها.

قال:

ـ تقدروا.. بس تبقى أحلى لو الكلمتين مشتركين في حروف ـ موش بس أحل.. ح تبقى حلوة قوي.

ولم يفكر كثيرًا، وقال ضاحكًا:

ـ شوف «الكلام» و«الكمال» ينفعوا قافية حلوة خدهم هدية.

وأذكر أنني قلت لـ«فؤاد حداد» إن «المسحراتي» معرض للقوافي الجميلة سـواء في المقدمـة أو في التسحير أو الموال الذي يقفل التسحير.. فقال:

ـ الحمد لله..

وفكر قليلاً ثم قال:

ـ المسحـراتي بيتقدم بصوت سـيد مكـاوي مـع البـازة (طبلـة المسـحراتي الصـغيرة) يعنـي مفـيش موسيقى.

ـ الموسيقى كانت من عند حضرتك.. بحر كله موسيقى.. وقوافي روى فيها لـزوم مـا لا يلـزم.. وقوافي داخلية، وتوافق حروف.

ـ خلاص.. أنت اللي قلـت أهوه.. بس في ظني إن القوافي كانت العامل الأكبر.

وصمت قليلاً وقال:

ـ أسمع لأجمل حسّ في العالم.

قالت أم كلثوم لـ«فؤاد حداد» بعد إصرارهم على أنه يستحق مديحها وأكثر منه:

ـ ربنا يخليلك لـ«مصر».

وعلى جناح السرعة أرسل فؤاد حداد على الشيخ سيد مكاوي أغنيتين لتختار «الست» إحداهما (الأمر الذي لم يفعله فؤاد حداد مع غيرها أبدًا)، وإن اشترط ألا يتم تغيير كلمة في الأغنية المختارة. بعد أن وصلت الأغنيتان إلى يد الشيخ سيد منع الكبرياء فؤاد حداد من أن يسأل هل أعجبت «الست» بأغنيتيه، وضاع الوقت على أن ألم الرمض بـ«أم كلثوم» ولم تقم منه للغناء مرة أخرى ضاعة فرصة كان فؤاد حداد يتمناها لكنها أبقت ثلاثة أشياء مع الألم أولها فرحة فؤاد حداد وهو يقص لنا الحكاية، والتماعة عينيه وهو يردد قول سيد الغناء الأولى ـ بحق وحقيق ـ له «ربنا يخليك لمصر..»، وبقى ثانيهما، وهو إحساس شبه مؤكد لدى فؤاد حداد بأن أغنيتيه لم تصلا إلى أم كلثوم إحساس منعه الكبرياء من أن يسعى إلى توكيد له، أو توكيد لعكسه، أما ما بقى ثالثًا فهما الأغنيتان يضمهما ديوانه «كلمة مصر..»، وإحداهما «يا أخضر.. يا ريحة مصر»، قال فيها:

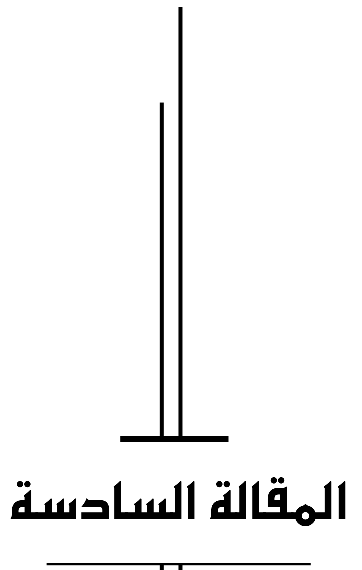
«باأنده عليك يا أخضر وقلبي حزين

ساعة ما يرجع كل طير للعش

لون السماء الأرض لون العشق

وأنا طول حياتي وعشت

أنده عليك».



المقالة السادسة

لماذا رفض فؤاد حداد أن يكتب أشعار مسلسل عن حياة أنور السادات ؟

نده عليك كإن الدنيا نادهالك/ قولة «يا ليلى» ليالي العمر قادهالك/ «يا عيني»بالمواويل اتلحمر قادهالك غنى الأمل والشهامة والفرح والنصر/ ولولاكي يا مصر كان قلبه رقد هالك.

ف.ح

- **ولماذا اعتذر لـ«الأهرام» عن الكتابة في عيد تأسيسه المئوي رغم الوعد بأن ينشر مقاله في الصفحة الأولى؟**

لا أظن أن رمضان يجئ إلا إذا غنى الفنان الجميل محمد عبد المطلب أغنية «الرؤية»: «رمضان جانا/ وفرحنا به/ بعد غيابه.. أهلاً رمضان». ولا أظن أن إفطارًا يحين وقته في أي يوم من أيام رمضان ما لم يصدم فينا وبيننا صوت «الجنة» محمد رفعت مرتلاً آيات الذكر الحكيم. وبالمثل لا أعتقد أن العيد يهل علينا إذا لم تغن أم كلثوم العظيمة «يا ليلة العيد أنستينا» أما المؤكد فالصوم لا يبدأ إلا إذا صدم فؤاد حداد بزقزقات «المسحراتي» جميلة الوقع عظيمة التأثير. هكذا، فإن لمحمد رفعت وفؤاد حداد عشرة جميلة نعايشها طوال الشهر الجميل والفضيل. وفي هذا العام كان فؤاد حداد معي «عشرة على الغالي»، بصورته الاعتيادية، وبصورة أخرى مكثفة في هذا العام لم يفارقني فؤاد حداد لهنيهة واحدة، فقد استدعيت. لأكتب هذه الحلقات. كل لحظة جميلة «أوحشتني بحق» عشتها معه «كإنسان»، وكل الجميل الذي صاغه شعرًا ونثرًا «كشعر»، وكل ما أضاء لنا به السبيل «كشاعر». في هذا العالم كان فؤاد حداد معي «كلاً جميلاً» نابضًا بالحياة، لا يتركني في مكتبي، وأنا أكتب، ولا نفترق في أي مكان أخر حيث يكلمني كل من يقابلونني عنه، وعما كتبته، والحقيقة أنني في هذا العالم برغم الافتقاد الذي يأكلني كالنزيف، سعيد سعادة غامرة، فالشكر لكم أيها القراء الأعزاء، والشكر لـ«القاهرة»، ولرئيس تحريرها صاحب الفكرة مليار شكر وزيادة.

الأرض طالبة العدل قبل الماء

طالبة الرسالة الخاتمة من السماء

ف.ح

في بطن حُّسه

في مقدمة ديوانه «من نور الخيال وصنع الأجيال في تاريخ القاهرة» ـ المقدمة التي كتبها في الثمانينيات لديوان أنتهى منه في العام 1969م، حين جاءته الفرصة لنشره ـ قال فؤاد حداد وكان أول بيت كتب في نور الخيال، مقبلاً من صنع الأجيال «الأرض بتتكلم عربي» ثم ألهمت بعد ذلك «الأرض بتتكلم عربي وقول الله/ إن الفجر لمن صلاه/ ما تطولش معاك الأه/ الأرض بتتكلم عربي».

وحكاية فؤاد حداد مع أول بيت يجيئه في عمل يريد أن يكتبه حكاية:

وخل بالك من «يريد أن يكتبه» تلك..

ففؤاد حداد ـ في الأغلب الأعمال ـ كان يكتب ما يريده الشعر لا ما يريده هو، فما بالك بما يطلب منه أن يكتبه، لكن شيئًا عجيبًا كان يحدث له، كان يحدث أن ينضبط إرسال بصيرته مع قنواته الشعرية، فكان يستطيع لحظتها أن يكتب ما يريده، وأن يكتب ما يراد منه أن يكتبه ـ أيضًا ـ وكأنه يكتب ما يريده الشعر.

وقد يجد قارئ ألا غرابة فيما أقول، قد يرى ما أقول شيئًا من طبائع الأمور، والحقيقة تبقى أنني لا أستطيع أن أوافق هذا القارئ.

وقد يرى قارئ أخر أن الشاعر عندما يكتب ما يريده، أو يكتب بقصدية وتعمد، فإنه واقع لا محالة في إسار الصنعة التي تحرم العمل من أهم سلاح لأختراق وجدان الأخرين والتربع داخله، وهو سلاح البراءة التي تتنافي مع كل تكلف، وبالطبع مع كل تكليف، وهذا القارئ الآخر ـ في الحقيقة ـ لا أستطيع إلا أن أوافقه.

نعم، الأعمال الكبيرة أعمال تفرض نفسها فرضًا على الأديب والفنان، وتتدفق من براءة الحيرة، والأسئلة المؤرقة، ومحاولة الرسو على بر والإجابة.

والمشكلة التي نحاول حلها هنا ـ مستعينًا بما عرفته من فؤاد حداد وبما المحت به عنه ـ هي أن فؤاد حداد كان يكتب في مرات ما يطلب منه «كبرامج شعرية ذات طبيعة خاصة للإذاعة، أو تتابعات شعرية في موضوع واحد لمجلة صباح الخير»، بينما كان ـ في ذات الوقت وهذه حقيقة يمثل تجاهلها جريمة ـ أذكى ذاتيًا وفنيًا من أن يكتب ما لم تحتشد له كل العناصر الجدلية الضرورية في الجزء الغامض من عقلنا المسمى «ما دون الوعي» لديه.

وبقدر ما تبدو المشكلة عصية «ولا أقول مستعصية» على الفهم، فإن حلها ـ لدى فؤاد حداد ـ كان أمرًا في غاية اليسر.

كان الحل الذي هداه إليه ذكاؤه الفني الذي راهن عليه دومًا وكسب الرهان في كل المرات يدفعه إذا ما طلبت منه الكتابة عن شيء معين إلى أن يرفض مبدئيًا وينتهي الأمر، أو يقبل مبدئيًا مؤجلاً قبوله النهائي إلى اللحظة التي تأتيه فيها إشارة فنية هادية مما دون الوعي.

طلب منه في محاولات عديدة في السبعينيات لترويضه أن يكتب عن تاريخ جريدة «الأهرام» بمناسبة مرور مائة عام على تاسيسها «أسست عام 1875» وتم إغراؤه بأن ما سيتكتبه سينشر في صفحة الأهرام الأولى، ورفض وقال للشاعر سمير عبد الباقي وقتها «ولنا بعد سنوات» ما الذي أستطيع «وخل بالك من أستطيع هذه» أن أكتبه عن عائلة «تقلا» لا أستطيع أن أكتب عنهم غلا ما أريده، وما أريده لن يعجب «الأهرام».

وفي نفس الاتجاه طلب منه بإلحاح شديد وبتهديدات تحاول أن تغطيها الابتسامات أن يكتب للإذاعة أشعار مسلسل «البحث عن الذات» قصة حياة أنور السادات «لا كما كانت ولكن مثلما احب لها أن تكون»، ورفض وكتب عن أدهم الشرقاوي.

في مثل تلكما الحالتين عرف فؤاد حداد أنه لن يكتب فوأد الأمر في بداياته، إذ لم يكن الأمر ـ بالنسبة له ـ يستحق أن يحاول فيه أو ينتظر إشارة فنية هادية مما دون وعيه ذلك أن بصيرته لم يكن من الممكن أن ينضبط لها إرسال مع قنواته الشعرية.

كان من الاحتياج في شدة، وكانت الحالتان «أو أيتهما» كفيلتين «بتغيير مجرى حياته ماديًا»، ففي الأولى كان سيتم تعيينه في الأهرام «وما أدراك ما الأهرام»، وفي الثانية كان له أن يختار بنفسه المكان الذي يرغب أن يعين فيه لكن تغيير الشاعر فيه كان أشد خطرًا في رأيه إذا ما وازن بين خسارة مادية لا يحتملها لقد عاش فؤاد حداد هو والشاعر فيه منذ قفز الشاعر من داخله وهو صبي، وقال له ستبقى العمر رفيقين يخلص كل منا للأخر، ولا يتخلص واحدنا من الثاني عاش منذ تلك اللحظة وليس أهم لديه من الوفاق بينه وبين هذه العطية التي كان كلما أهدته بارقًا من أنوارها سجد لله شاكرًا.

هذا ما حدث له في تلكما الحالتين.

لكن في حالات أخرى كانت له خطة بديلة كما أوضحنا، وكانت خطته البديلة أن يقبل مبدئيًا وأن ينتظر الإشارة من منطقة الإبداع الخفية لتكون موافقته نهائية قبل مبدائيًا عندما رشحه صلاح جاهين «فيمًا أظن» ليكتب المسحراتي.

وقبل مبدئيًا عندما رشح عن طريق عبد الحميد الحديدي رئيس الإذاعة في نهاية الستينيات وعاشق أشعار فؤاد حداد ليكتب عن القاهرة في ألف عام ضمن احتفالات مصر بألفية القاهرة عام 1969م.

وقبل مبدئيًا حين طلب منه الأستاذ لويس جريس في الثمانينيات أن يستكمل «الحضرة الزكية» التي كان قد بدأها قبل ذلك بعام في رمضان عام 1980م.

قبل مبدئيًا، وقلنا إنه بعد قبوله المبدئ كان ينتظر الإشارة، وكانت الإشارة التي تحول قبوله المبدئي إلى قبول نهائي هي بيت من الشعر.

والقارئ يتذكر الآن ما بدأنا به الحكاية من آن أول بيت جاء فؤاد حداد في «من نور الخيال وصنع الأجيال في تاريخ القاهرة»، كان «الأرض بتتكلم عربي»، وأن بعدها ألهم أبياتًا أخرى.. والآن نحاول أن نفهم حكاية أول بيت هذه.

في صيف العام 1981م ذهب فؤاد حداد إلى مجلة «صباح الخير» في الصباح، ولا بد وأن لويس جريس طلب منه أستكمال الحضرة الزكية أستعدادًا لرمضان من ذلك العام، ويبدو لي أيضًا أن فؤاد حداد وافق مبدئيًا، وفي الليل، وكنت في زيارته قال فؤاد حداد في جدية جميلة كان يقطب لها حاجبيه ويهز رأسه:

ـ أنا جاي لي عمل كبير قوي.. قوي..

وكان كلما قال «قوي» رفع يده لأعلى في تدرج صاعد إلى أقصى ما تمتد به ذراعه.

ـ خير يا أستاذ فؤاد.

وفجأة سرح فؤاد حداد وهو يقول:

ـ «لابس ثياب سجان.. حديد في دهب/ وف بطن حسه نوح يتامي صغار».

أخذتني الصورة الشعرية «الفظيعة» غرقت فيها لينتشلني فؤاد حداد بسؤال غريب.

ـ مين ده؟!

وتساءلت بدوري:

ـ اللي هو مين؟

وابتسم فؤاد حداد وملامحه ترقص على إيقاع بهجته، وعطور تطير من حوله:

ـ اللي لابس ثياب سجان حديد في ذهب.

ـ موش عارف.. بس.

وقاطعني فؤاد حداد ولمعة عينيه تضم جنينًا حبيبًا في أحشائها:

ـ ده أبرهة

ـ أبرهة!

عاد فؤاد حداد يقول:

ـ أنا جاي لي عمل كبير قوي.. وح يكون حاجة تانية، ما تشبهش الحضرة الزكية اللي كنت بدأتها السنة اللي فاتت.

ومرة أخرى شردت خيول أفكاره في مثل تلك اللحظات كنا نفهم أن فؤاد حداد لا يقرر شيئًا في كلامه بل يفكر متكلمًا، وكنا نصمت لنتركه يفكر «الأمر الذي لم يكن يأخذ غير ثوان» حين نتأكد من ذلك بعد صدمة المفاجأة الأولى أخذ الصمت وقته، وبعد لحظات قال فؤاد حداد:

ـ العمل اللي جاي ده، ح يخلي اللي كتبته قبل كده كتابة «على أعتاب الحضرة الزكية».

والذي حدث لفؤاد حداد وجعله أسير سرحاته المفكرة، أنه وهو في طريق العود من «صباح الخير» مستقلاً الأتوبيس جاءه هذا البيت الإشارة «لابس ثياب سجان حديد في دهب/ وف بطن حسه نوح يتامى صغار» لحظتها عرف أن أن إرسال بصيرته «قلنا خل بالك من حكاية البصيرة هذه» اشتبك مع قنواته الشعرية فعرف أنه محتشد لعمل شعري، وعرف أنه يستطيع الأن أن يعطي موافقته النهائية أكثر من ذلك عرف حجم وقيمة العمل الذي سيأتيه، وأن بدايته ستكون تعام الفيل الذي ولد فيه الرسول عليه الصلاة وأفضل السلام.

الأن نستطيع ـ القراء وأنا ـ أن نفهم قيمة الإشارة الهادية التي ينتظرها فؤاد حداد بشغف حين يكلف بعمل، وتقول له بصيرته عن هذا العمل على هواها، وأن عليه أن ينتظر التحامها بقنواته الشعرية الثرية الخلافة حتى في كمونها.

تستطيع أن تعرف قيمة «دي ليالي سمحة/ نجومها سبحة» ف تخلق المسحراتي، ونستطيع أن نعي أهمية «الأرض بتتكلم عربي» في تخلق «من نور الخيال» نستطيع أن نفهمها جميعًا كإشارة مخاض لجنين بدأ تكوينه فعليًا، وطمأن فؤاد حداد على ولادة وشيكة.

ولأن التكليفات الثلاثة كانت منبعًا لثلاثة أعمال من أهم وأحلى وأعظم وأخلد ما كتب فؤاد حداد «وسطره الشعر العربي الحديث»، فإن أمر بصيرة فؤاد حداد يلح علينا لوضحه، فهيى البئر حيث يكمن السر ويتموضع غطاؤه.

الحقيقة ـ كل الحقيقة ـ هي أن فؤاد حداد كان يمتلك بصيرة متأججة متوهجة نافذة وجاهزة تخترق الواقع كما هو لتصل إلى أعماق لا مرئية فتعاينها وتلمسها بالأنامل، بل وتحتفظ بروائحها الآتية من مكامن مستقبلية، ولعل القارئ يتذكر من الحلقة الثانية قول فؤاد حداد عن بيرم التونسي في مجال إثبات أنه شاعر عظيم إنه كان يرى الأشياء والوقائع كما هي بالضبط ويستطيع أيضًا أن يسبر أغوارها الشاعر في نظره كان هذا الكائن قوي الملاحظة مرهف التوقع والاستشعار «هل جاء اسم الشعر من الاستشعار؟» عبقري البصيرة.

كان متأجج البصيرة متوهجًا، وكانت بصيرته تجعله محتشدًا طوال الوقت.

وبصيرته قالت له أقبل المسحراتي في رمضان عام 1964م، وقد أطلق سراحه من المعتقل الذي قضى فيه ما يزيد على خمس سنوات، وكانت أسانيد بصيرته تؤكد له أن الشيوعيين ـ وهو منهم ـ دخلوا المعتقلات وهم يؤيدون عبد الناصر، ويدعون إلى وحدة صف القوى صاحبة الحق في الثورة، والمعادية للاستعماروالإمبريالية، والحفاظ على صداقة الاتحاد السوفيتي ودول التحرر الوطني، وأن الشيوعيين اعتبروا في تحليلاتهم داخل المعتقل ـ أن القبض عليهم واعتقالهم جاء نتيجة لاصطياد الجناح اليميني في الثورة «وأه من الجناح اليميني الذي أكل الأخضر ـ واليابس وتركنا فتاتًا وشتاتًا» المتربص لها ولهم في الماء العكر الذي وقف على شاطئيه عبد الناصر من ناحية وعبد الكريم قاسم على الناحية الأخرى في العراق، ولما كان الشيوعيين يرون أن الثورة المصرية 1952م والثورة العراقية 1958م قوتان معاديتان للإمبريالية قوتان مع العدالة الاجتماعية والتنمية الشاملة في قطريهما،

وأن الاثنتين حليفتان لكل قوى التحرر الوطني المعادية للوحش الرأسمالي الذي يغير اقنعته ولا يغير قناعاته في نهب ثروات الشعوب «وحتى يومنا هذا» والعمل على إبقائها ـ بتخلفها واختلافاتها ـ لقمة سائغة في فمه، وفي مواجهة ذلك المخطط الذي لم يتورع عن إنزال قواته العسكرية في لبنان، وقف الشيوعيون يرأبون الصدع بين الثورتين ويرفضون الانقسام والخلاف في هذه الأيام استطاع الجناح اليميني المتربص أن يصور الأمر وكان الشيوعيين يرفضون الخلاف مع من يتبادلون الشتائم مع عبد الناصر بل ويتبادلون الأدوار أيضًا مطالبين بالزعامة من فم جمال عبد الناصر، وقد رأت تحيلات الشيوعيين ـ في معتقلاتهم ـ أن الجناح اليميني للثورة قد نجح في استغلال الأمر مع سعي الشيوعيين لتقوية جناح النقابات العمالية لتصطف قوية مع غيرها من القوى صاحبة المصلحة في التغيير الثورة في جعل عبد الناصر لا يتوانى عن إيداعهم ـ الشيوعيين ـ في المعتقلات وتعذيبهم تعذيبًا رهيبًا يحطم ـ أو يطمح إلى تحطيم ـ إرادتهم المستقلة، ونواياهم الضاغطة حتى لو كان ضغطها في نفس الاتجاه.

كانت بصيرة فؤاد حداد مستوعبة ـ في المعتقل الراسبوتيني الرهيب ـ إن اعتقال اتلشيوعيين أدى إلى استفراد الجناح اليميني بالعمل بعد استبعاد عدوهم التقليدي «الشيوعيين»، وأخفة القوى الحليفة لهم وللثورة من أن ينالهم نفس المصير المتجبر إذا اهتموا بشئون وطنهم وثورتهم، ولأن الاستفراد والاستبعاد والإخافة ـ جميعًا ـ تصب أكسير قوة في عضلات اليمين المستنفرة، أصبح خوف الشيوعيين على الثورة بحجم خوفهم ـ إن لم يزد ـ من مصير غائم مؤلم بتهددهم، لكل هذا قالت بصيرة فؤاد حداد له أقبل المسحراتي، وانتظر الإشارة الفنية التي تؤكد أن قنواتك الشعرية جاهزة بل وعطشى.

ولما كانت النكسة قالت بصيرة فؤاد حداد لفؤاد حداد أقبل المشاركة ـ تكليفًا ـ في احتفالات القاهرة بمرور ألف عام على نشأتها، وقال فؤاد حداد في مقدمة ديوانه الاحتفالي «من نور الخيال، وصنع الأجيال في تاريخ القاهرة» هذا الديوان جاء ردًا على النكسة.

أما الحضرة الزكية، فقد جاءت «وهذا أمر أتفهمه ولم يرد على لسان فؤاد حداد» الموافقة الأولية المستبصرة عليه، لكي تقف بين غضب الشباب العارم من الظلم الاجتماعي، وفساد المتنفذين، والهوان الوطني «الذين لم ير المصريون مثيلاً لهم في تاريخهم الحديث»، وبين نسيان القيم الإسلامية الحقيقية الخالدة والعظيمة في اتكائهم - الشباب الغاضب - على فهم خاص للإسلام سياسي الطابع، ومغلوط في مواجهتهم للظلم والفساد والهوان على لاقوة العظمى، قالت بصيرته هذا الشباب «المعارض» قوة تتبدد وتبدد قوى غيرها، فلتكتب لهم عن الإسلام كما فهمته، ليكون احتدادهم في المواجهة متناسبًا مع حدة ما يواجهونه.

ولقد قلنا إن فؤاد حداد كان دائم الاحتشاد، ولعل هذا كان السر في أن الإشارات الفنية كانت تسرع إليه كلما قبلت بصيرته تكليفًا قبولاً مبدئيًا، وكانت تؤكد له أن قنواته الشعرية جاهزة بل ومتفاعلة «وعلى سنجة عشرة».

ولا أظن أن من كلفوا فؤاد حداد قد تصوروا بذلك الحجم الهائل من عمق المفتوح ومن فاعليته وإلا لما صادف عملية حظ وافر وصادف الثالث حظ عاثر.

وفي المسحراتي «150 حلقة» رسم فؤاد حداد حلم التقدم والتنمية الشاملة والعدالة الاجتماعية وراح يصف الصفوف ويقويها راجعًا بهم إلى التاريخ يسئلهم نجاحاتهم، وقافزًا بهم على المستقبل مستنهضًا وصابًا وقود شعره في ماكينات عزائمه، وصالبًا ظهرهم في لحظة الانكسار حفاظًا عليهم وعلى الحكم الممكن الجميل.

الأولة نمشيها خطوة ثبات/ والثانية خطوة بنات/ والثالثة ع الدبابات/ أحنا مشاة النصر/ أحنا قلوب مؤمنة/ النور جرى في دمنا/ يا مصر يا أمنا/ يا أمنًا يا مصر.

وفي «نور الخيال» راح يتعقب ـ للمتخبطين في ظلام الهزيمة والانكسار ـ مسار تلك الحزمة الضوئية التي انبعثت وانطلقت من تاريخ الهجرة «هجرة الرسول ﷺ» وراحت تشق طريقها في الأزمنة تنير الموجود و«الأرض بتتكلم عربي»، ويريها للناس وهي تسير في الفراغ في الفضاء باحثة عن واقع جديد تنعكس عليه وتبين يريها للناس في ظلام فضاء ماشية بعرق الناس بصنع الأجيال وسعيهم لمعايشهم، تقول لن يتشكك أنا لم أنقطع عن السير منذ انطلقت وإن عزت رؤياي في لحظات مدلهمة.

«كان الأمل قايد فتيله/ الله خلق لي عينين علشان أشوفها/ وإيدين أحوطها من الإعصار/ ولسان أغنيها/ وصبر مؤمن أتابعها ليوم الشمس».

وفي «الحضرة الزكية» قدم فؤاد حداد نسيجًا إسلاميًا مغني منقوشًا بقيم الإسلام الحقيقية في العدل وما ينفع الناس مغزولاً بهؤلاء الذين غيرهم الإسلام فأفادوا حضارات عصرهم واستفادوزا منها صانعًا خيوط ومجهزًا أنواله من فنيات شعرية كالألئ «مازالت في أصدافها» ومن لغة لا هي عامية ولا فصحى من لغة حدادية وهي لغة ليست بين الاثنتين ولكنها ـ حين ينصفها النقاد ـ لغة فوقهما «إذا استثنينا لغة القرآن».

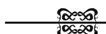
ليلة فيها اضاءت/ كلمات عربية/ أرسل الله نبيه/ رحمة للعالمين/ يا قلوب الفقراء/ يمموا غار حراء/ ليس في الحق سراب/ لمبيع وشراء/ سيرة هذا التراب/ بعيون لا تراب/ عسجديًا/ مسجديًا/ طؤطئت فيه الحراب/ وصراطًا أحمديًا/ وحنانًا أبجديًا/ أبديًا.

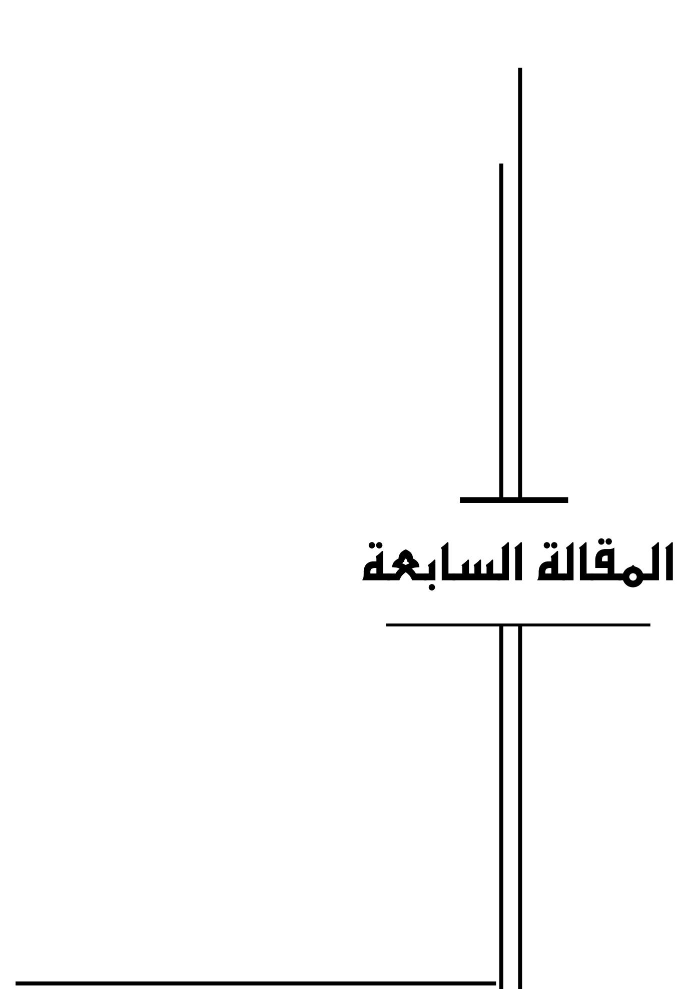
إنه فؤاد حداد كان كلاً لا يتجزأ كان إذا كتب أو تكلم أو عاشر الناس هو ذلك الشاعر الإنسان، وهو ذلك الإنسان الشعر، وه الشعر الإنساني، كان هو المناضل الشيوعي المسلم العروبي الأممي الوطني الإنساني، كان هو القائل والعائش في.

ويا مصر كوني/ بهجة عيوني/ هلالي ثابت/ وعودي نابت/ على تراكي/ علمي اشتراكي/ إيماني مسلم/ اختار وأقدم/ اللي بيخدم.

إنه فؤاد حداد الذي يعرف أن الماركسية علم، وليست عقيدة، إلا لدى المتوحشين المستغلين الذين يريدون أن يضيعوها في مواجهة مع الإسلام بينما إنجاز «مؤسسي- الماركسية مع ماركس» منذ قرن ونيف يقول: «الماركسية منذ غدت علمًا تطالب أن نعاملها كعلم» نعم إنها علم تغيير المجتمع لصالح جميع أفراده، وليس لصالح طبقة البروليتاريا، إنها تحمل البروليتاريا جهد التغيير لأنها صاحبة المصلحة الأكبر فيه، هل فهمنا الآن قيمة أن يقول فؤاد حداد بهذه البساطة العميقة المذهلة «علمي اشتراكي/ إيماني مسلم».

إن الذين كلفوه بهذه الأعمال الثلاثة لم يكونوا يعرفون أنه محتشد ومكلف كمناضل مكلف ببصيرته، وأن بصيرته لم تكن تخضع إلا لتكليف الوطن، ولذلك فوجئوا وفرحوا بأن ما كلفوه به لم يكن على الصورة التي يتخيلونها، أقول في حوا لأنه كان على صورة فؤاد حداد.





المقالة السابعة

سعاد حسني
في بيت فؤاد حداد

بيقوموا وبيفتحوا الشبابيك وببطلوا

من حتة في الأرض واحدة على الزمن كله

يلقوا البيوت والقمر، بينها وبينه هيام

والرملة زي النجيلة في ندى الأحلام

يلقوا الهدى والرضا في طريقة الأيام

والرحمة بين البشر يا أمة الإسلام

يا ساهرين ذاكرين الله في كل مقام

سلام ورد سلام

رمضان بيوحشني

ف.ح

عيد الفطر المبارك.. كل عام وأنتم بخير، أعاده الله علينا بالحرية والديمقراطية والوحدة العربية.. ورفع الرأس.. في عيد الفكر نذكر هؤلاء الذين يفطرون دون أن يعيدوا، نذكر إخواننا في فلسطين وإخواننا في العراق.. الأبطال والأبطال، المقاومين والمقاومين، الشهداء والشهداء، ونذكر فؤاد حداد الذي قال: اتني أنده على أسوان على حلوان.. أنده لبحر البقر.. أنده على شدوان/ أسامي تحت السما لها ملحمة وديوان/ يا شعب يا قوة الشهداء على العدوان ننادي مع../ اتني أنده على «بغداد» على الأقصى/ على كل شبر العدو داخل له في مناقصة/ أنده يا سوريا يا سودان يا إيران أنده وأقول «أمتنا موش ناقصة».

وأنت بتوحشنا

لولا «الشديد» حاشنا

باسنان تقرقشنا

كنا معاك في انسجام

***

سلام ورد سلام

وتعيش بشعرك ألف مليون عام

«هـ.س»

قال واحد اتنين تلاتة واللي كان في الجرن

كله اتفتل وانقتل وانشال وراح الفرن

عيني على رصة راحت والا رصة جات

عمال أسحر وأنا ماشي ورا الصاجات

باللمة يبقى العيد جميل يا أولاد...

لا يأتي عيد الفطر إلا واذكر بيت العائلة، أذكر خالتي «فردوس» رحمها الله، وقد لمت حولها في حجرة «العقاد» (وقد لمت السجاجيد وفرشت بدلاً منها ملاءات بيضاء نظيفة، وتربعت وهي «الهانم») بنات العائلة ليلي، نبيلة، بثينة، أسماء، ومنى، وتحولت إلى قائد لا يتوقف عن إلقاء التعليمات، بينما الجميع «يتشاقون» عليها، وتجلجل ضحكاتهن وضحكاتهم، كلما أظهرت غضبًا من تعليقات ليلى وبثينة التي لا تتوقف، والكل يصنع الكعك، وعصام «رحمة الله» ينتظر امتلاء الصاجات ليأخذها إلى الفرن مع تعليمات مشددة، تتضمن درجة إحماء الفرن «البلدي»، والوقت الذي تقضيه الصاجات داخل النار، ونحن «الأطفال» نضحك ونفرح وأهم من هذا وذاك «نذوق»، أيام طويلة في نهاية الشهر الفضيل بعدها تعبأ صفائح الكعك، والبسكويت، والبيتيفور، ونوع لذيذ يصنع بجوز الهند «لم أذقه منذ وفاتها»، تحمل الصفائح إلى العربات المنتظرة لتنطلق إلى بيوت العائلة كهال توزع خيرات تبقى في «الدلسوارات» التي لا تعرفها حجرات السفرة الحديثة حتى يهل رمضان من العام المقبل.

رحم الله خالتي لم تكن تنتظر بعد كل هذا التعب، وكل هذه المناهدة مع الشقيات الضاحكات إلا أن نتجمع كلنا ـ العائلة كلها ـ في العيد، ونبيت كلنا أيامه جميعًا التي نقضيها في فرح وسمر «أوحشني» لم تكن تنتظر ثمنًا لتعهبأ الفادح غير أن تقول المهات واحدة بعد الأخرى:

ـ الكحك جميل قوي السنة دي يا فردوس.

ساعتها تنفرد خالتي وتقول قولة من تعرف قدراتها حق المعرفة:

ـ السنة دي بس يا أختي!!

رحم الله خالتي، ورحم فؤاد حداد الذي أحسن وصف الحالة ليقرأها من يشترون الكعك جاهزًا هذه الأيام «الـ...» دون لمة، وفرح، أو ضحكات.. دون رحم موصول ومسئول عن الآخرين ولنسمعه يقول:

خالاتي/ عماتي/ سيداتي/ على تل عجوة وعسل وسمن/ ولا مجلس الأمن/ سهرانين/ لت وعجين/ يبنوا الهرم/ قالت حماة المحترم/ يا كعك يا سيد الكرم/ نبطلك في المشمسي/ يا بنت قومي وفرفشي/ لا تحوشي/ ولا تختشي/ احميالوابور واستحمي/ إشي وإشي/ تلاقيه مشي-/ إشي نغبشي-/ وإشي حبشي/ وإشي دندشي/ سكر عليه/ بركة إيديه/ فرحة عينيه/ قال إيه وإيه/ المشي طاب لي....

هكذا رسم فؤاد حداد الصورة التي كانت تطالعنا في كل البيوت في عيد فطر المسلمين، وعيد المسيحيين (كنا نأكل كحكهم ويأكلون كعكنا) وبفنيات جعلت حماة المحترم، وهي «توز» ابنتها على عمل الكحك شيئًا بهيجًا، هو العيد قبل أن يسمخ الزمن الأعياد، هل يستطيع هذا غير فؤاد حداد؟

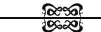
***

كل عين بتشوفه بتحلم

كل قلب بيحلم شايفه

والكلام اللي بيغني

حب ودنى وحب شفايفه



حتى القمر يا أستاذنا!

للأستاذ فؤاد أشعار وأغان للأطفال، فصيحة وعامية، كان ينشرها في مجلة «ماجد» الخليجية «الأشعار، والأغاني الفصية، وفي مجلات أخرى للأطفال مع رسومات غاية في البساطة والجمال والعمق الفنان الكبير (الذي أوحشنا) «حجازي» الذي أعطى فنه في رسوم الأطفال لـ«ماجد» شخصيتها المعروفة بها، وأعطانا بدوائره الطيبة العبقرية، ومثلثاته المعشقة المخيفة، إنه رسام للأطفال من الدرجة الأولى الممتازة مثلما هو فنان كاريكاتير ذو أفكار حلوة المرارة مريرة في حلاوتها صامدة بعمقها، وبضحكاتها التي هبي بحق «ضحك»كالباء، وكانت قصائد فؤاد حداد كلها عذبة، جانية، عميقة الغور، مليئة بالإيحاءات الحدادية التي أعتدناها في كل قصائده «إذ لا ينفع معها أن نقسمها للصغار أو للكبار»، لقد كان فؤاد حداد الذي يحترم نفسه وموهبته يحترم عقلية الطفل وذكاءه، ويراهن على قدرته الفذة في الاستيعاب مثلما يراهن على نقائه وبراءته.

كانت «ماجد» قد اشترکت أن تكون القصائد باللغة العربية الفحصى- «وكان العامية لا تفصح!!»، وأستطيع أن أؤكد أن فؤاد حداد قد وجدها فرصة ليمارس عشقه للكتابة بالفصحى، هذا العشق الذي ينافس عشق ابن الملوح لليلاه، ولقد وجدناها نحن فرصة أيضًا - لنقرأ لفؤاد حداد ونترنم بفصحى (استفادت الكثير من العامية، كما أشار في حديثه الصحفي الوحيد) سيالة متدفقة حنانًا وبساطة ورصانة وجمالاً (هي الوجه المنير من القمر الذي لا تختار وزارة التعليم منه إلا وجهه المظلم بتصميم محير في كتب الأطفال).

ولقد قلنا إن فؤاد حداد كان «كُلاً» لا يتجزأ، ولا يقبل القسمة إلا على الواحد الصحيح في كل أعماله، لهذا بقى فؤاد حداد فؤاد حداد.. وهو يكتب للأطفال وخذ عندك هذه القصيدة لتصدقني. وهي من ديوان «الشرط نور: الشقي والعاقل على مزاج الوطن» للأطفال.

لا للقط ولا للفار/ الاثنان طويلا الذيل/ من أمكر أبناء الليل/ الأول يدعو بالويل والثاني وغد فرار/ لا للقط ولا للفار / لا يجدى الفكر الإنساني/ أن يعلم أيهما الجاني/ في رأي الأول والثاني/ أن الحق مع الأطفال/ لا للقط ولا للفار/ في رأي الثاني والأول/ أن الدنيا لا تتبدل/ إما أن تأكل أو تؤكل/ هل للعاقل أن يختار؟! لا للقط ولا للفار.

قلت له مداعبًا: يا بختك سعاد هتجيلك.. فقهقه من الضحك وهو يقول: معاها كمال الطويل!

الغريب أنني وأنا أستمع إلى فؤاد حداد وهو يلقي هذه القصيدة، وبرغم عشقي للطريقة «المثلى» التي كان يلقي بها شعره محافظًا على إيقاعه الصخاب، وعلى التعبيرية الأخاذة باعثًا في ثنايا الألفاظ من روحه مزيجًا لا يتكرر من الفرحة والشجن من النشوة والألم والجمال إلا أنني - وهذا هو الغريب - كنت اسمعها منه لا أعلمه له بصوت سعاد حسني! وبمجرد أن انتهى من ترنمه صحت في نشوة ترجني رجًا.

- الله.. الله يا أستاذ فؤاد! هذه هي الثانية والثانية ثابتة!

وارتفع حاجبا فؤاد حداد دهشة.. ولم انتظر أن يتكلم.. قلت:

- الأولى كانت «شهرتنا ضاعت/ على بضاعة/ الأمريكان».

ونزل حاجبا فؤاد حداد، وارتفعا مرة أخرى، وارتسمت ابتسامة «شقية» على وجهه الجميل، لقد التقط وفرح بأول الخيط الذي لو كررناه معًا لاطمأن إلى وصولي للفكرة التي أطلقت أمامه تباشيرها.

و«شهرتنا ضاعت/ على بضاعة/ الأمريكان» (فضلاً عن حلاوة القافية) كانت تسحيرة صحنا فيها فؤاد حداد بفنيات عالية ودم كالسكر منبهًا الجميع إلى الخطورة الكامنة التي تتعرض لها الإنسانية - كلها - من الدس الأمريكاني، وسموم العم «سام» في أفلام «الكاوبوي» الأفلام التي تجعل من المستوطن الأمريكي «القادم عبر المحيط» وهو يمارس إبادة الهنود الحمر ليستولى على خيرات أراضيهم، وقد حل محلهم في مكانهم بطلاً، قد ينخدع به الناس وفيه، وقد يصفقون له وهو يفعل فعلته الشائنة التي تدين ثقافته إلى أبد الأبدين (وللقارئ أن يعود للقصيدة «بضاعة الأمريكان» في «ديوان المسحراتي» ليرى كيف كانت - ولا تزال خصوصًا لمن يتشدقون بفضل التدخل الأمريكي في إسقاط صدام حسين البشع - فكرة نيرة وتنويرية، وكيف كان سبكها بديعًا).

تساءل فؤاد حداد بمكر لطيف:

ـ ودى التانية!

قلت مهللاً ـ بما يعتمل داخلي من فعل النشوة:

ـ توم وجيري.. لا للقط توم، ولا لجيري الفار.

في تلك اللحظة ارتفع حاجبا فؤاد حداد مرتين متتاليتين تعبيرًا عن سعادته..

والحقيقة أن مع أحترامنا الشديد لفنيات والت ديزني (فنياته الورطة الكارثية) في تومه وجيريه، إلا أن الخطر الكامن فيها ـ الذي انتبه له فؤاد حداد ـ أن المتفرج عليها يعتاد دون أن يشعر ـ على أن الدنيا ليست إلا صراعًا أبديًا حلوًا!! بين قوي وضعيف.. يحقق فيه الضعيف انتصارات «مسلية ومضحكة» لا يمكن التقليل من شأنها وتأثيرها على القوي، ويصبح من فرط تمتعه بالصراع الأبدي ذلك، متمنيًا ألا يتخلص «جيري» تخلصًا نهائيًا من القط الظيف الذي يسمح له بانتصارات مبهرة «مؤقتة» يضيع أثرها في اللقطة التالية مباشرة، إنها الفكرة الرأسمالية تتجلى في ملامح مبهرة بقدر ما هي كذوبة تقول لنا دون أن تجاهر أو تجهر لماذا تضيق من القط وأنت تستطيع أن تكيل له الضربة تلو الأخرى، وتحصل منه على تنازل بعد الأخر ـ أيضًا تقول دون أن تصرح إن القط سيظل قطًا، أو لا يمكن إلا أن يكون قطًا، وإن الفأر من غير المعقول إلا أن يبقى فأرًا، وأن الصراع بينهما مثلما صدعنا «فوكوياما» (بعد موت فؤاد حداد بسبع سنوات) مستمر إلى «نهاية التاريخ».

ـ إذا كانت التانية تابتة طب والتالتة والرابع.. يبقوا إيه؟!

ـ أي تالتة ورابعة.

ـ التالتة «ميت بوتيك (ديوان نشر فعليًا لفؤاد حداد في حياته).

- والرابعة..

- ريـان يا فجـل «ديـوان نشـر لفؤاد حداد بعد وفاته بسنوات من الهيئة العامة للكتاب».

قلت في حماس ليس له ما يبرره، فالدواوين التي ذكرها تحمـل أراء سياسـية في غايـة مـن العمـق والجمال:

- التانــية تابــتة.. ففكــرتها لا تخطـر إلا عـلى قلـب فـؤاد حـداد.. وكـما مكتوبـة بفنيـات عاليـة وللأطفال اللي بيقع عليهم التأثير المباشر.. ده إلى جانب عمقها.. وتألقها..

وكعاد الفنانين الصادقين الذين يغارون من أعمال لهم تحصل على سمعة وصيت يفوقـان غيرهـا من أعمالهم وكان فؤاد حداد يغار من «المسحراتي» على باقي أعماله العظيمة مثلهـا قـال فـؤاد حـداد في طيبة تشبه الغضب.

- كهلا ثابتين بإذن الله.

وقد صدق فؤاد حداد الذي عرف «وبرغم هذا كان يغضب غضبًا طيبًا» أن المتلقـي حـين يقـع تحت تأثير عمل يظن أنه أفضل الأعمال، فإذا انتقل إلى عمل آخر جيد انتقل معه الظن.

ولنعد الآن إلى الشعور الغريب الذي تملكني وأنـا أسـمع هـذه الأغنيـة، والـذي جعلنـي أسرح معهـا عـلى موجـات صـوت سـعاد حسـني «رحـم الله الجميـع» المعـبر الحنـون الفـاهم ذي القبـول الأخاذ، وقدرتها على التأثير في الصغر «والكبار طبعًا»، هل استطاع غيرها أن يجعل البنات فرحات بكونهن بنات عندما غنت رائعة صلاح جاهين «البنات..البنات/ أجمل الكائنات»، وقلت للأستاذ فؤاد.

ـ يا سلام لو غنت سعاد حسني الأغنية دي..

وقال فؤاد حداد الغيور على أعماله:

ـ دي بس..

وقلت بلا أدنى محاولة للمجاملة..

ـ لا.. دي وغيرها.. هي عايزة تعمل شريط أطفال.

كانت أقصد بغيرها كل الأغاني الجميلة التي يضمها «الآن» ديوان «الشرط نور..» وأكاد أجزم أن لمعة عين فؤاد لحظتها كانت تؤكد أنه يريد ذلك الأمور، وأنه فكر فيه قبلاً، وإن منعه كبرياؤه ـ العنيد ـ من التصحيح به.

ومرت شهور، وقال لي فؤاد حداد وابتسامة فرح تتراقص في ملامحه:

ـ سعاد حسني ح تجيني..

ثم أكمل بسرعة وبجدية مكشوفة:

ـ عايز أغاني..

وهو يكمل جملته كنت أنا أتصايح:

ـ يا بختك يا أستاذ فؤاد..

ويبدو أن ملامحي ارتسم عليها ما أضحكه، إذ لا أريد أن أظلمه وأقول إن ما أضحكه شيء آخر، فقد رأيته يرتج بقهقهات مجلجلة.. وبين القهقهات قال لي:

- ح تيجي هيّ وكمال الطويل.. اتصلوا عشان ياخدوا ميعاد..

والحقيقة أن بعض ما ارتسم على وجهي كان تمنيًا لأن أحضر اللقاء، فسعاد حسني ليست أجمل من رأت العين فقط لكنها حبيبة جيلنا كله وأخته وأبنة خالته وعمته وصديقته، والمعبرة أفضل تعبير عما شاله الزمن «من بلاوي» وحطه فوق رؤوسنا، لكن بعد أن قال الأستاذ فؤاد إن كمال الطويل سيحضر المقابلة، صارت أمنيتي رغبة أكيدة في أن أشارك في اللقاء، ذلك أنني أعرف فؤاد حداد وأعرف أن كمال الطويل منذ عمل في السبعينيات منتجًا فنيًا للشركة الكويتية للإنتاج التليفزيوني «وكان مقرها مسرح الجيب في الجزيرة» أكتسب سمة المنتج الذي بيده أن يقول للعمل الفني أنتج فينتج، ومن هذا المنطق كان تعامله الذي حرص على أن يبدو رقيقًا تعاملاً من «فوق» الأمر الذي لن يقبله فؤاد حداد بأي شكل من الأشكال حتى ولو كان الشكل يبدو رقيقيًا، أردت أن أحضر المقابلة لألطف الأجواء خوفًا من أن تضيع الفرصة الجميلة.

كدت أطلب من فؤاد حداد أن يسمح لي بحضور اللقاء، زاعمًا أن رغبتي تنحسر في الجلوس للحظات إلى السندريللا ولو للحظات، لكنني خطلت إذ قلت لنفس لا بد يا ولد أن سيتطرق الحديث إلى أمور مالية، قد لا يحب فؤاد حداد أن أطلع عليها.

بقيت واضعًا يدي على قلبي منتظرًا نتيجة اللقاء، وكلي أمل في شريط كامل تغنيه سعاد حسني لفؤاد حداد يضم فيما يضم من أغنياته الجميلة «لا للقط ولا للفأر» خدمة لجيل يلاحقونه بأن تسعة وتسعين في المائة من أوراق اللعبة بيد القط!! جيل يريد فؤاد حداد ألا يكون جيلاً من الفئران يرضى بما يستطيع أن يستخلصه من فتات القط جيل يتعلم أن لو كان القط بشعًا، فإن ما يساويه بشاعة من لا يفكر بالنصر النهائي على الرأسمالية المتوحشة.

بقيت متمنيًا أدعو الله أن تتم المقابلة على خير، وعلى شريط كامل تغنيه سعاد حسني لفؤاد حداد، وبعد المقابلة ذهبت إلى فؤاد حداد.. وللأسف الشديد وجدت أن ما خشيته قد وقع، وأن الأستاذ كمال الطويل تكلم مع فؤاد حداد بطبيعته «المكتسبة» من عمله كمنتج فني لشركة «يجري ريق» الجميع لكي يعملوا معها تلك الطبيعة التي بقيت معه حتى بعد توقف نشاط الشركة المذكورة، والتي لا تتوافق مع الأستاذ فؤاد وطبيعته.

وفيما أذكر أن الأستاذ فؤاد كان غاضبًا من كمال الطويل عندما ذهبت إليه، وما فهمته من «طراطيش الكلام» أنه تكلم مع فؤاد حداد بطريقة يزعم أنها الطريقة التي يتكلم بها مع كل الشعراء. وأن فؤاد حداد لم يقبل الطريقة، وقال له لكنني لست ككل الشعراء، وعندما أراد الأستاذ «رحمه الله الجميع» أن يبرر أسلوبه في الكلام أشار إلى أن فلانًا وفلانًا وفلانًا لا يتعرضون على طريقته تلك، وأن فؤاد حداد أوضح له أنه «برضه موش زي أي حد».

ولكي لا أظلم كمال الطويل، ولكي لا يظلم فؤاد حداد أقول إن البعض نشروا «في أخبار الأدب في عددها الاحتفالي بفؤاد حداد» كلمات زعموا فيها أن كمال الطويل قالها عن فؤاد حداد مضمونها أن فؤاد حداد تكلم عن شعراء أخرين بألفاظ لا تليق لكي لا أظلم أيا منهما، كما الطويل وفؤاد حداد أؤكد أن هذا الأمر لم يكن ممكنًا، أن يحدث من فؤاد حداد على الإطلاق، لقد قضيت مع فؤاد حداد وقتًا طويلاً لم أسمع منه خلاله تهجمًا على شخص كانت له أراء في أشعار الآخرين، لكنه لم يكن يتكلم عن ذواتهم فضلاً عن أنني لم أسمع منه «والله شهيد» كلمة نابية أو كلمة لا تليق، كان شديد التهذيب مع عدم تنازله إطلاقًا عن أن شعره لا يقارن بأشعار غيره، ورفضه التام لأن يغير له أحد كلمة في أشعاره، وهو حق لشاعر قال عن نفسه، وعن تعبه في صقل موهبته:

قسيت على صوتي وكرمته/ ياما اهتديت بالصيحة من عنترة/ لما رفع بين الشعوب قامت/ وفرض معاني الشعر.

أقصى ما كان من الممكن أن يصدر عن فؤاد حداد إذا ما استفز «فقط» بمحاولة تغبين شعره وموهبته حقها أن يقول:

ـ أنا أشعر الجن والإنس.

كان يقولها إذا اتسفز أو إذا ما تكلم عن ظلم يحيط به وبموهبته كزنزانة بلا أبواب تثقل عليه قضبانها السود التي لا يرى لنفسه فكاكًا منها، لم يكن يقولها كما يحلو للبعض أن يصور الأمر «عمال على بطال».. أكثر من هذا لم يكن يسمع لمن يجالسونه بأن يتعرضوا لشعراء «حتى ممن يكرههم» بكلمات لا تليق.

أعود لما كنا فيه، وأقول إنني لكي أخفف عن فؤاد حداد غضبه، سألته:

ـ هي سعاد حسني كانت قاعدة فين يا أستاذ فؤاد؟

وأشار فؤاد حداد إلى الفوتيه المجاور لركن «الكنبة الاستوديو» الذي قلما جلس هو في مكان غيره، وقال:

ـ هنا.

قلت غامزًا بعيني والكلمات:

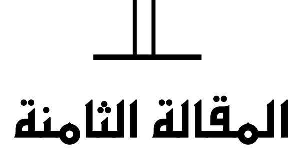
ـ يا محاسن الصدف!!

وأبتسم فؤاد حداد، وقلت:

ـ يعني الجمال مالوش حقوق.. مايستاهلش إننا نهاود شوية.. حد يقول للقمر لا..

وقال فؤاد حداد ذو النظرات الثاقبة في الجنس اللطيف:

ـ بصراح.. هي حلوة قوي..



المقالة الثامنة

قصص فؤاد حداد التي كتبها في سجن الواحات لتسلية الصائمين الشيوعيين

- علاقة الحب التي حيرتني بين ابنتي مي وفؤاد حداد
- عندما جلست إلى جواره في السيارة وتمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني

أكذب إذا قلت لكم: إنني كنت أتصور أن بداخلي بحرًا من الحكايات عن فؤاد حداد بحرًا أخذ منه وأكتب لكم ولا ينقص.. كنت أحكي كثيرًا عنه.. كنت أتكلم كثيرًا عن الكثير الذي فهمته من فؤاد حداد.. وكنت أتصور أن لدى كمية لا بأس بها من الكلمات عن شعره، وعن الشاعر فيه والإنسان. وها أنا ذا أكتشف، وقد كتبت الكثير، وما زال لدى الأكثر، هذا الحجم الهائل الجميل لفؤاد حداد في داخلي. ها أنا ذا أكتشف أنني عش معه الكثير الكثير في ستة أعوام. ها أنا أكتب عن الكثير الكثير الذي فهمته منه وفهمته عنه ذخيرة للأيام..

والمهرة بترقص رقصة

وتخطى الخطوة الناقصة

وعينيها للناس باصة

وغرضها التسقيف يزداد

«ف.ح»

حكايات الجدة.. في منتهى الجدة

لفؤاد حداد فن مثل الكثير من فنونه لم ينتبه إليه النقاد هو فن الحكاية.

كان فؤاد حداد يستطيع أن يغزل الحكايات على نول صوته الجميل فيعجب قارئها وينتشي، ويؤخذ سامعها ويهيم، ويجعلك تحتار من هذا الذي عجن فنون الأس، وإمتصها مستحلبًا جمالياتها، وهضمها، وراح يفرزها كنحلة إذا ما شبعت أفرزت عسلاً صافيًا.

حكايات فؤاد حداد يكتبها منغمة ومسجوعة فيها عبقرية التكثيف، والاختصار «وهما فنان قرآنيان»، وفيها رنة صوت الجدات الحانيات، وفيها فعل السنين الذي يصقلها ويحليها ويهبها فوق ما فيها قدرة مضافة على البقاء والخلود.

كتب فؤاد حداد حكايات خالصة تمتع الصغار والكبار، وكتب حكايات فيها ضحك كالبكاء، وحكايات فيها بكاء كالبكاء.

ودرة حكاياته الخالصة هي الشاطر حسن التي كتبها في معتقل الواحات بالاشتراك مع متولي عبد اللطيف لتسلية الصائمين «الشيوعيين» في آخر رمضان لهم بالمعتقل «وكان الخامس!»، وقدمها لهم في حلقات كان يجيد فيها صناعة نهايات مشوقة «حراقة» تجعلهم في انتظار على نار لكمالة الحدوتة.

ولنقرأ معًا كيف وصفت الحكاية صراع الشاطر حسن مع «ملك الغابة في وادي الأسودة».

شاطر حسن قال: السيف اللي في إيدي ما يحبش الدم، أنازل أشد من فيكم، ملك أو وزير ببطن إيدي، إن فرسني فرسني، وإن فرسته تحق عليكم كلمتي.

اتنحنح ملك الغابة ما تعرفش كشر والا أتاوب والا ضحك قال: «ما بين الغربة والتربة إلا فجر بني أدم». الشرط مقبول! وتعال بالسيف لو حبيت يا شاطر.

كل الأسود خدوا جانب، والمهرة خدت جانب، قال: صنعتك إيه يا شاطر؟ قال: باسقي ورد الجناين واصرع سباع الفلا فز الأسد طوله طول الشاطر حسن مرتين، لكن الحيلة صناعة بن آدم، في غمضة عين كان الشاطر حسن قاس المسافة والعواقب، وبخطوة لا زادت عقله ولا نقصت اتفادى فزة الأسد، هيفت، وراحل كل جسمه طايش في الهوا.

قال له: ما كانش الهوا على بال، لو تقدر على النسمة جرحها يا أبو الأشبال!

اتملخت عضلات الأسد من نطرتها على الفاضي، ما لحقش يسمع ولا يلتفت وراه، شاطر حسن كان مخاوي رقبته بالدراعين، الأسد يتلوي وشاطر حسن على أنفاسه.

كل الأسود حمحمت من الغيظ، فردوس ما حبتش تفرح قبل ما يرتاح لها قلب.

شاطر حسن اللي أصلب من عروق الصخر، كان أمرق من عود الخرزان: الأسد يقب لفوق يقب معهاه، يغطس لتحت يغطس معاه، يتمايل يتحايل يمين شمال يشيل يحط يحط معاه، فضل يعافر بالساعات لا قدر ينطر الشاطر حسن ولا يتخلص من قبضته، لما اتخنق من القهر راح زاعق زعقة «الحمد لله.. دا احنا هنا في أمان يا ولاد».

الجبال اتقلقت، والمهرة فردوس جفلت مت تحت جلدها، لكن ماحقتش تخاف على الشاطر حسن، كان الأسد ريح وسلم، نريح احنا كمان يا ولاد؟ والا نقول زي الشاطر حسن ما قال:

الحمد لله أنا الشاطر حسن يا ولاد/ نزلت وادي الأسود ويهمتي يا ولاد/ صبحت ملوك الغابات زي البنات يا ولايد/ اسقي البنات يا جنايني.

هل رايتم كيف يحكي الحدوتة فتسمعها وأنت تقرأها؟ هل رأيتم كيف رسم استصغار شأن الشاطر حسن في عين الأسد «ما تعرفش كشر وإلا أتاوب وإلا ضحك» ولم يقل إن الأسد استهان بالبطل.

هل ذقتم طعم حواديت الشعب وهو يقول للأسد الذي «هيفت» قفزته «ماكانش الهوا على بال، لو تقد على النسمة جرحها يا أبو الأشبال».

وهل تعودون إلى وصف التلاحم بين الشاطر والأسد لتتاكدوا من براعة وبساطة الوصف، والقدرة على إثارة الانتباه والخوف بجمل تقصر حتى تصل الواحدة منها إلى كلمة لا غير «يتمايل، يتحايل، يمين، شمال،يشيل...».

ثم توقفه حين زعق الأسد زعقة «لم يصفها بأنها قوية أو مزلزلة أو...» ليقول لسامعين «الحمد لله ده أحنا هنا في أمان يا أولاد»، فتكون هذه القلة المفاجأة أفضل وصف لزلزلة الزعقة الغضنفرية.

ثم هل رأينا ما يسمونه في الدراما ضرورة الإرخاء بعد الشد التراجيدي، حفاظًا على قدرة المتلقي على المتابعة لما سيأتي من جديد، والإرخاء هنا جاء أغنية غاية في الجمال.

إنني أدعوكم للاستماع لفؤاد حداد وأنتم تقرءون «الشاطر حسن» فهي مليئة بالحيل الفنية المستقاة من فن الحكى المصري العظيم، وبالفصاحة والبلاغة «العاميتين» لنراه وهو يصف الشمس الغاربة بأنها «زي اليوسفي المقشور»، وشعر المهرة فردوس وهي تجري تسابق الريح «شالت الجبال وحطتها، طلت على الوادي هبطت زي السيل، وعرفة المهر» (شعر رقبتها) هاجت زي بحر الليل!

لله ما أحلاك يا فؤاد حداد!

في المعتقل عندما انته فؤاد حداد من الحلقة الأخيرة، قامت مظاهرة عارمة من المعتقلين يقودها عادل سحين «وكان شيوعيًا أنئذ يرحمه الله» يغنون الغنوة الخاتمة للحدوتة «الشاطر لابس يا ولاد، جلابية صياد صياد، وطاقية حداد حداد» يغنونها هكذا «الشاطر لابس ياولاد، جلابية صياد صياد، وطاقية فؤاد حداد».

كان هذا حماسهم المباشر بعد سماع «الشاطر حسن»، تأليف فؤاد حداد ومتولي عبد اللطيف كما كان يصر فؤاد حداد على تسميتها صادقًا.

وكان حماسهم في محله فمن يقرؤها فيسمعها سيحس بطاقية فؤاد حداد تملؤها من السطر الأول إلى الكلمة الأخيرة.

طاقية فؤاد حداد التي تتمثل في «السيف اللي في إيدي ما يحبش الدم».

طاقيته التي تصفه حين تصف الشاطر حسن..

موالي أخضر وقلبي دقته خضرا..

ومهرتي من سواد الليل

وأنا فارس..

هلالهنا زي الهلالي في تونس الخضرا..

وحافرها ناعم على بساط العجم «فارس»

أنا اللي كفى اتكفي وصنعتي حاضرة

وأنا بالعمل والكلام حرب وسلام فارس

هذا هو فؤاد حداد في حكايته في الشاطر حسن، وفي ليمونة المحاياة.. الشاعر الذي أعطى للأميرة كل ما يملك لكي يحبيها، أما الآخرون فقد كسبوا في الحاية من أجل هذا أحبته الأميرة، وإن كان فؤاد حداد قد مات محاصرًا إلا أن أميرة الأميرات مصر- أحبته حين فك الشعر الحصار بقوته وحلاوته وفنياته وقدرته على الخلود، وكان هو الكاسب - بعد موته - كما بطل «ليمونة المحاياة» وحكاياته الخالصة.

أما حكاياته التي فيها ضحك كالباكاء، والتي فيها بكاء كالبكاء، فسوف يكون لها وقت آخر بيننا وصفحات تجمعنا بإذن الله.

يا مهون انا ملك الطرش

على بالي الكدب ما يخطرش

ف.ح

إن من أولادكم..

تزامنت ولادة ابنتي البكرية «مي» (الدكتورة من بعد شهرين بإذن الله) مع بداية معرفتي بالأستاذ فؤاد حداد «تقريبًا» وقد نشأت علاقة حب وطيدة بين مي والأستاذ فؤاد بشكل حيرني، جعلها كلما زارني التصقت به - إذا كانت مستيقظة - طوال الفترة التي كان يشرفنا فيها بحضوره الجميل، فإذا حان وقت رحيله صممت - تصميمًا لا تتراجع عنه إلا بشق الأنفس - على واحد من أمرين، إما أن يستمر في البقاء معنا أو تمضي هي معه، فإذا نزلت - بعد لأي وغجراءات مشددة - مع الأستاذ فؤاد لأوصله أنطلق صوتها من الشرفة التي يخفي سورها جسدها الصغير، فلا تبين منه غير كف صغيرة مستنجدة.

- يا حداد.. خدني معال يا حداد..

والذي كان يحيرني في الأمر برغم تأكدي من أن الأطفال لابد يعشقون هؤلاء المتخمين رقة وإنسانية وحنانصا، هذا التفاهم العظيم بينها وبينه الذي لم يكن يحتاج إلى لغة، فالأستاذ فؤاد كان ضعيف السمع إلى درجة كبيرة «وهذه واحدة من هدايا المعتقلات لطير يصدح بالزقزقات ويناغي بها»، كانت تكلمه فلا يسمع صوتها الطفولي الخافت «المدشدش»، وكان يكلمها وتسمعه، وبرغم دائرة الكلام المقطوعة والتي كان الأستاذ فؤاد يصر على أن تبقى على حالها، ولا يقبل أن نرفع نحن - أمها وأنا - اصواتنا لنعلمه ما تقوله له، إذ كان يستشعر أن أمرًا كهذا من الممكن أن يصنع جفوة بينهما «حين يحتاجان في تفاهمها لثالث»، إلا أن دائرة الحب والتعاطف كانت واصلة وشديدة الفعالية «حتى إنني تصورت أنها قد ورثت جينات حبه من خلاياي وخلايا أمها».

ولقد بدأت العلاقة الجميلة بين فؤاد حداد وابنتي تتوطد بشكلها المذهل، ومي لم تتم عامها الثاني بعد لتصبح تفاهمًا وتفهمًا غير محتاج للغة مسموعة عندما ذهبت مرة إلى فؤاد حداد وقلت له: «وكان معنا آخرون»:

ـ عايز أقول لحضرتك حاجة غريبة يا أستاذ فؤاد..

وانتبه الأستاذ:

ـ مي كانت مامتها منيماها على ظهرها وبتغير هدومها وفجأة قالت: «قدامي نور كبير ولمبة صغيرة». وبعدين عجبتها الحكاية، وفضلت تقولها شبه منغمة أو منغمة على طريقتها، وهي بتسقف وتتهز لدرجة أن أمها وجدت صعوبة في أنها تكمل لبسها.

وسرح فؤاد حداد، وملامح وجهه تتراقص من الفرح، وعندما قال واحد من الحضور:

ـ دي حاجة عادية.

صاح فؤاد حداد:

ـ عادية إيه؟ دي شاعرة.

والحقيقة أن الدهشة التي أصابت من كانوا معنا أصابتني أنا الآخر من حماس الأستاذ فؤاد ومن جديته، وأيضًا مما قاله مستطردًا لمن قال إن الأمر عادي:

ـ بيقول لك عجبتها الحكاية، وفضلت تقولها منغمة فرحانة بيها.

وسكت لحظة وقال:

ـ وبتسقف..

وفجأة وجدنا حسن «الابن الأصغر لفؤاد حداد والذي سمى بكريته «مي»، بعدها بسنوات كثيرة وأتمنى أن تكون التسمية الحلوة قد جاءته من ابنتي».

ـ ده بيت شعر عبقري.

وقال أحدهم مستخفًا دمه:

ـ يبقى هشام اللي مالفه.

وقال فؤاد حداد:

ـ هشام مألف إيه.. هشام يعرف يجيب بيت زي ده؟

بعدها بأيام.. ذهبت إلى فؤاد حداد وقلت له:

ـ مي كتبت قصيدة ثانية.

وضحك فؤاد حداد وسألني:

ـ قالت إيه؟

قلت مصفقًا بيدي مثلما فعلت ابنتي بالضبط:

ـ أنا أخت ماما.. أنا أخت ماما.

والغريب ـ الذي لا يكون غريبًا مع فؤاد حداد ـ أن ما أعجبه أو لأقل غير مبالغ ـ بهره في القصيدة!! هي علاقة الأخوة بين مي وأمها، وقال فرحًا:

ـ لا.. ده شعر حلو.. جامد.

وقبل أن أستطرد لا أريد للقارئ أن يتعجب من أن ابنتي كانت تتكلم بهذه الطلاقة وهي لم تتم عامها الثاني بعد، فهي أول أحفاد جدتها لأمها، وكانت بهذا لعبة ومحل اهتمام الجدة والأخوال، محل اهتمام مكثف جعل قدرتها على الكلام تنمو أسرع مما نقدر أو نتوقع، أضف إلى هذا أن البنات يتكلمن بدري «ثم لا يتوقفن عن الكلام بعد ذلك».

ولنعد إلى فؤاد حداد الذ فوجئت به وقد صدر ديوانه «من نور الخيال وصنع الأجيال في تاريخ القاهرة» يهدي نسخة خاصة لابنتي بتاريخ 16/ 2/ 1982م، وعليها إهداء حسدتها عليه، إذ كان الإهداء قصيدة كاملة كتبها بخطه الجميل إلى جوار العنوان في الصفحة الأولى، لتملأ كل فراغات لاصفحة «وكانت ابنتي لم تتم عامها الثالث، سنتين ونصفًا».

كنا في نور الخيال/ أربع خمس عيال/ بنشق من الليالي/ زي الناس الغلابة/ اللي مالهمش زي × الأولاني يفلح/ في الأرض اللي بتطرح/ وفي الدايرة السنية/ ينجح في الإنسانية/ يسقط في كل شيء × والثاني كان نايـاتي/ من طهطا بعد طنطا/ في الشمس يقوم ليلاتي/ من فوق سور المحطة/ ويقول سلم علىّ × والثالث كان مدرس/ فتح العقل المتربس/ من غير كماشة لكن/ بقلبه فص لادن/ أفهمني يا بني × والرابع شيخ بلحية/ داير من كل ناحية/ بيصبح ع اللي نايم/ سلامات يا حاج يحيى/ ويسبح الله حي × والخامس مغلواني/ في البيع وفي الشرا/ متلفع بالأغاني/ في اصيف وفي الشتا/ والساتت لسه جاي × والسابع في الطريق/ والتامن قام ينادي/ والتاسع في الغريق/ شق البحر الليلادي/ على نور الحريق/ دول كلهم ولادي/ والكل يحبوا «مي»/ وكلهم بيبكي/ لكن ما يقولش أي.

حسدت ابنتي وفرحت لها، وبها، وخصوصًا أن الإهداء الذي سطره لي على نسختي من الديوان كان كالآتي: «إلى الشاعر هشام السلاموني، مع حبي وأطيب تمنياتي، فؤاد حداد».

وكانت مي تكبر والعلاقة تكبر، وكان فؤاد حداد كلما جاء جلست على حجره فيحكي لها حكايات من التراث العربي، ويقول لها شعرًا ولما حاولت أن اقلهد، واشتريت كتاب «ألف حكاية وحكاية» من الأدب العربي القديم أعدها حسين أحمد أمين، ورسمها حلمي التوني، وأردت أن أقرأ لها منه خبأته في صندوق لعبها، فإذا دخل علينا فؤاد حداد أخرجته، وسعت إلى حجره، وهي تمد له يدها بالكتاب، ليقرأ لها منه فإذا غادرنا أختفى الكتاب مرة أخرى.

وعندما اقتربت مي من غتام عامها الرابع، أدخلتها المدرسة «كي.جي»، واشهد ـ والله على ما أقول شهيد: أن ابنة لم تجنن أباها كل صباح لتذهب على المدرسة مثلما جننتني مي، كانت تحتاج يوميًا ـ خل بالك من يوميًا هذه ـ لألاعيب ومؤامرات محبوكة ومحايلات وتمثيليات، لتنزل من البيت، فإذا نزلت وركبنا العربة أحتاج الأمر إلى أن أغني لها طوال الطريق ـ لأشغلها عما في رأسها من رفض عنيد للذهاب إلى المدرسة ـ أغنيتين، أظل أكررهما، من أغنيات فؤاد حداد «ولا في قلبي ولا عيني إلا فلسطين» و«في كل حي ولد عترة وصبية»، كانت تحب الأولى متصورة أن فؤاد حداد، كما في القصيدة الإهداء يذكرها بالاسم، ففي الأغنية بيت يقول «ليالي ما يفارقها نهار» كانت مصممة على أنه «ليالي من فارقها نهار» فكيف لا تحب أغنية اسمها واحد من مكوناتها، وكانت تحب الأغنية الثانية لجمالها الذي لا أعرف كيف تسرب لإحساساتها الصغيرة الساذجة.

غنائي ذلك لأغنيتي فؤاد حداد أوقعني معه في مشكلة من النوع الذي يستعصى- ـ تمامًا ـ على الحال.

كان فؤاد حداد وترًا مشدودًا تجاه من يحاولون التقليل من قيمة شعره، ولو بالدعابة، ولو عن دون قصد، وعلى سبيل المثال ظل يذكر للشاعر طاهر أبو فاشا أنه قال مرة عن «المسحراتي» لأن بحرها قصير، إن بحرها يُشبه الأحذية الصينية قاصدًا تلك الأحذية الحديدية الضيقة التي قيل إن المرأة الصينية (اليابانية) تلبسها لكي لا تكبر قدمها وتتضخم، وهو الأمر الذي تراه هي مهددًا لجمالها وأنوثتها، قالها طاهر أبو فاشا مع أن أجمل أشعاره على الإطلاق لسيدة الغناء العربي في رائعتها «رابعة العدوية» قصيدة «حانة الأقدار» مكونة من مجزوء بحر صغير للغاية، وبعد أن قال طاهر أبو فاشا ما قاله ولسنوات طويلة بقى فؤاد حداد إذا ذكر أمامه طاهر أبو فاشا ارتسمت على ملامح وجهه إمارات الغضب والأسى والنفور غير قابل تفسيرنا مقولته بأنه غيرة فنية» يجب أن تسعده.

لم يكن فؤاد حداد على الإطلاق يسامح أو يصالح إذا ما حاول أحد أن يقلل من قيمة موهبته، أو يجعل شعره مثارًا لسخرية كان دون شعره وهذا الأمر «خرط القتاد» كما يقول العرب.

وكنت وأنا أوصل ابنتي ميّ إلى المدرسة إذا ما وجدت أن غنائي لأغنيتي فؤاد حداد «السابق ذكرهما» لا يوقف «زنّها»العنيد أعمد إلى تغيير كلمات الأغنية فتنتبه وتنسى «الزن» وتبدأ في إصلاح ما أفسدته من الأغنية، ويتراجع إلى حين كنت أتمنى أن يطول إلى أن نصل إلى باب مدرستها، رفضها المطلق للاعتراف بأن الذهاب إلى المدرسة إذا لم يكن أمرًا جميلاً فهو على الأقل أمر مطلوب وضرور لكي تكون أحسن بنت في الدنيا.

كنت إذا غنيت لها «في كل حي ولد عتره وصبية حنان» أصل على:

«أميرة عاقلة وفي يالحجلة العقل يطير/ كانت صغيرة بضفيرة وكان هوّه صغير/ ساعة ما تضحك مع أخوها تلاقيه بيغير/ ولما ترفع قلتها تلاقيه عطشان/ زمانه ماشي بخطوة يضم/ زمانها كبرت وبقت أم/ زمان جواب جاي لها بيجري على العنوان».

كنت إذا وصلت على نهاية المقطع ـ أغيّر ـ إذا كانت هناك ضرورة ـ «زمان جواب جاي لها بيجري على العنوان» إلى «زمانها في العتبة بتشحت حق الدخان».

كان التغيير ينبه ابنتي، ويجعلها تصرخ في غضب وتصحح لي.

وذات مرة كنت في الأستاذ فؤاد في العربة، وميّ التي كان من المفترض أنها جالسة في المقعد الخلفي تقف بين المقعدين الأماميين لتكون قريبة من الأستاذ حبيبها، وفجأة وجدتها تقول:

ـ أنكل فؤاد بابا بيقول «زمانها في العتبة بتشحت حق الدخان».

ساعتها ارتعش قلبي من الرعب، وكدت انهرها لتسكت لكنني كأب لم استطع أن أبدو أمامها في صورة من يفعل أمرًا ويخجل منه، وقلت في نفسي أن الأستاذ لن يسمعها، الم نقل إنه كان سعيد السمع ولكيأطمئن نفسي أكثر قلت ـ في نفسي أيضًا ـ إن عاملاً آخر لن يجعله يسمعها وهو صوت موتور العربة، وضجيج الطريقز. وإمعانًا في التخلص من الموقف الذي كنت لا أعرف ـ بل كنت أعرف ـ كيف سينتهي، بدأت أتكلم مع الأستاذ بصوت مرتفع الأمر الذي جعل ابنتي ترفع صوتها بشكواها مني لفؤاد حداد، وفجأة وجدت فؤاد حداد يسألني:

ـ إيه حكاية «زمانها في العتبة بتشحت حق الدخان» دى.

وبينما كنت أبحث عما اقوله لاتجنب غضب فؤاد حداد واهتزاز صورتي أمام ابنتي بدأ مي «تشرح له الموضوع والأمر العجيب أنه كان يسمعها، ويفهم طريقتها المرتبكة في الحكي.

قال فؤاد حداد متسائلاً، وهو مازال بين الغضب والهدوء:

ـ أنت بتعمل كده في الأغنية؟!

قلت متلجلجًا:

ـ أنا با أعمل كده عشان هيّ تصلح لي.

واستطردت أشرح الأمر كما كان بمنتهى الصدق ومعدتي بين يديّ مارد تفعصانها بمنتهى القوة والقسوة والسادية.

تركني فؤاد حداد وسأل ميّ بجدية:

ـ أنت عاجبك الكلام ده؟!

قالت البنت متشفيه في أبيها الذي لا يرحمها ويذهب بها إلى المدرسة يوميًا:

ـ لا.. موش عاجبني.

والتفت فؤاد حداد لي وكنت ساعتها أتمنى لو انشقت العربة وانشقت الأرض تحتها وابتلعتني وحدي وقال:

ـ هي حلوة.

قلت له مندهشا:

ـ إيه اللي حلوة؟!

قال:

ـ «زمانها في العتبة بتشحت حق الدخان».. بس أوعى تعمل كده في شعري مرة ثانية..

ولأنه القى إلى بحيل النجاة قلت بسرعة:

ـ حاضر موش ح أعملها تاني.

وتنفست الصعداء بل قل عرفت ما يعنيه العرب بقولهم «تنفس الصعداء».

وحين توفى فؤاد حداد وكنا نستعد لتأبينه بغصدار عدد خاص من مجلة «الغد» (التي كان يرأس تحريرها ويصدرها الشاعر الكبير كمال عبد الحليم) يضم كل القصائد التي كتبت في تأبين «والد الشعراء» بحق، قلت لـ«مي»، وكانت قد أتمت عامها السادس، وكانت تعتبر نفسها شاعرة، ولم يكن الفصل لي في اعتقادها ذلك بل لـ«فؤاد حداد»:

ـ إحنا بنعمل شعر للأستاذ فؤاد، تحبي تقولي له حاجة.

لم أكن بالطبع قد جرؤت على أن أقول لها إن الأستاذ فؤاد قد توفاه الله كنت أكلمها وكأنه حيّ، ونحن نسعده بالكتابة عنه، وفوجئت بـ«ميّ» تملى عليّ قصيدة رائعة، نعم رائعة بكل المقاييس لا أذكر منها الآن إلا:

«كان فيه شاعر حبيبي/ كان بيحكي لي عن بنت حلوة/ في مشربية/ جنبها وردة وقُلة»

ظللت مأخوذًا أكتب ما تمليه إلى أن قالت:

«وكان بيغني/ ولا ف قلبي ولا عينيه إلا فلسطين..»

أنتظرت أن تكمل لكنها قالت:

- خلاص..كده..

كانت النهاية كالبداية أروع مما تصورة أن ابنتي تستطيع أن تترنم به.

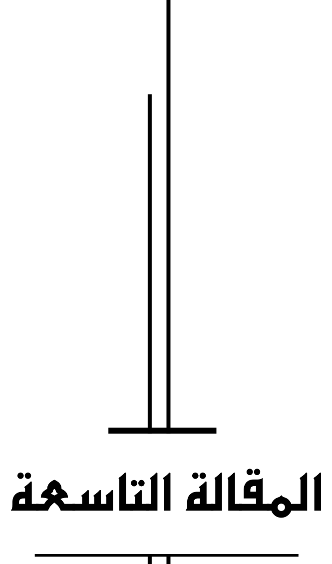
بعد أن غادرتني ميّ، وبينما استعيد مندهشًا مأخوذًا، وعيناي ممتلئتان دمعًا برغمى قلبي السعيد لابنتي سطور القصيدة وأتساءل لماذا بداتها بـ«كان» وهي لا تعرف أمر وفاته التقطت الكتاب الذي كان يقرأ لها منه فؤاد حداد «ألف حكاية وحكاية» وزاد عجبي إذ لم أجد على الغلاف الذي رسمه الفنان حلمي التوني فتاة بل ثلاثًا، ووجدت زهورًا ولم أجد «قُلة»!.. والأعجب لم أجد رسمًا صريحًا لمشربية.. عدت للقصيدة حائرً لكن حيرتي ضاعت، فقد وجدت في القصيد فؤاد حداد.

حملت قصيدتها، وذهبت إلى بيت الأستاذ فؤاد، وقد شبكت بالقصيدة صورة ميّ، كما كان مقررًا أن يفعل الجميع، كان في بيت الأستاذ فؤاد اجتماع لتحرير العدد (وربما لترتيب أمر التأبين) وقرأت لهم القصيدة.. وفوجئت بشاعر كبير أطال الله لنا في عمره، ومد لنا في حبل إنتاجه الشعري المميز للغاية والوفير يقول:

ـ أنا ما أعرفش اكتب الكلام ده يا أستاذ «....»، أنا لو أعرف أكتب بالبراءة دي كان زمان حالي غير الحال.

أقول بألم إنني لا أذكر من القصيدة غير ما كتبته الأن، فقد أهملت القصيدة ولم يضمها العدد الخاص، واختفت للأسف الشديد.

الآن أتصور ـ بل أنا متأكد ـ من أن الأستاذ فؤاد كان سيصدق ابنتي، الآن أعرف كم أفتقدته ميّ، مثلما افتقده وأعرف أن افتقادها له، وسوء مستوى التعليم هو السبب في أنها تكتب الآن شعرًا بالإنجليزية.



المقالة التاسعة

لماذا اعتبر فؤاد حداد سنوات السبعينيات .. محنة كبيرة ؟!

- ولماذا أعلن رفضه لديمقراطية السادات.. وتوجسه خيفة من المثقفين الذين يخدمون اتجاهاته؟!
- في عام 1976 أصيب بمرض أسماه «الدوخة» منعه من صلب طوله وحرمه من كتابة الشعر
- في نوفمبر 79 أصيب بجلطة في القلب تزامنت مع اتفاق كامب ديفيد

«ابن المبادئ هواه صادق يحسّ بها/ أما اللي كداب رقص ع الباب وحيسيبها

يا للي بتسمع وتجمع طلّ واحسبها/ يا عم اللي بتسالني عن الإحساس

أكمني شاعر مغني صنعتي الإحساس/ القلب بيحس لكن أصدق الإحساس على كتف شايل هموم الناس يحسّ بها».

«قال الصبي للبنت من حبك ح أموت

قالت له والدي يا صبي صاحب حانوت».

«ف.ح»

كلاكيت ثاني مرة.. باختلاف

قلنا إن فؤاد حداد قد برع وفاق أهل زمانه، وسابقيه ولاحقيه في صوغ الحدوته على واحد من أشكال ثلاثة، أولها: «الحدوتة» الخالصة، وثانيها: حدوتة فيها ضحك كالبكاء، والثالثة: حواديت فيها بكاء كالبكاء.

والغريب الذي ليس غريبًا عند فؤاد حداد ـ أنه جرّد أراجوزه من غمده،وجرّد لأراجوزه عصاه من غمدها في الستينيات الأمر الذي يؤكد فكرة عرضناها قبلاً ـ من أن بصيرته أكدت له أن الجناح اليميني يرتع و«يبرطع» ملتفًا على الاشتراكية مستفيدًا من أعتقال الشيوعيين وراء الأسوار الشائكة في الواحات، ومن خوف السابئيين اليساريين بعد مجزرة المربوطين هناك.

في المعتقل جمّد فؤاد حداد أراجوزه من غمده، وحين خرج من المعتقل، ولا نقول أطلق سراحه. (إذ لم يحدث إلا تقييد سراح غير المامونين المنضمين «بمزاجهم» لتنظيم عبد الناصر «الطليعي»، ولأحضان الحماية الهيكلي (التي تفهم الكفت) في «الأهرام»، ظل فؤاد حداد بأراجوزه يضرب في هؤلاء اللااشتراكيين (الذين ينفذون الاشتراكية!!) في مواقع عديدة بعصا أراجوزية موجعة.

والذين يهمنا الآن أن ديوان أراجوزه قد تضمن فيما تضمن في العهدين الثوري «الناصري»، والمنقلب على العهد الثوري «الساداتي»، ومن ينهجون نهجه سلاح الحكاية التي هي ضحك أراجوزي كالبكاء، وخذ عندك هذه عن «سيد أفندي» (جهاز الدولة المنفذ للاشتراكية!!) على لسان «الأراجوز» الحدادي.

«دخلت على السيد أفندي اللي ودانه من برّه قرطاس، ومن جوه بير، بص لي بصة واحدة، وقال لي: فوت بعد أربع تيّام».

«بعد أربع تيام فُت على سيد أفندي اللي ودانه من بره قرطاس ومن جوّه بير واللي شنبه مهرجل كل فردة مطرح التانية، وعملت تافة علشان يحنّ عليّ شوية، حنّ وقال لي: فوت بعد تلات تيام».

«بعد تلات تيام فُت على سيد أفندي اللي ودانه من بره قرطاس ومن جوّه بير واللي شنبه مهرجل كل فردة مطرح التانية، واللي نفسه يطبق في جيبه منديل ما ينفش فيه، وعملت تافه زيّه علشان يحن عليّ أكتر، حنّ وقال لي فوت بعد يومين».

«بعد يومين فُت على سيد أفندي اللي ودانه من بره قرطاس ومن جوّه بير واللي شنبه مهرجل كل فردة مطرح التانية، واللي نفسه يطبق في جيبه منديل ما ينفش فيه،واللي عينيةنسخة زفرة من نضارته، وعملت أنفه منه علشان يحن عليه خالص..».

«فقسني.. وقال: فوت بعد أسبوع..».

والقارئ لابد قد لاحظ أن الحدوته قصيرة وفاعلة كطلقة رصاص، ما إن تنطلق حتى تدمى.. وأنها برغم قصرها تتضمن ثلاثة عناصر للتصعيد الدرامي، تشد انتباه القارئ (المستمع في نفي الآن) كوتر القوس مرة بعد مرة بعد مرة حتى يصبح جاهزًا للإطلاق والأنطلاق.

أولهم: هذا التصاعد في وصف «سيد أفندي»، وهو تصاعد يزيد من حجم مسخرته مرة بعد مرة.

ثانيهم: هذا التصاعد الذي ينزل بعدد الأيام من أربعة إلى ثلاثة إلى اثنين.. وهو تصاعد يحقق اعتيادًا لدى القارئ «المستمع» بالتناقص، ويمهد للمفاجأة النهائية التي تعطي العمل معناه الكلي.

ثالثهم: هذا التصعيد في «الحنّية» الناتجة عن «عملت تافه» ثم «عملت تافه زيه»، وبعدها «عملت أتفه منه»، وهو تصعيد يخدم رسم شخصية «سيد أفندي» التافهة.

في النهاية تأتي المفاجأة عكس التصاعد، مثلما يحدث في القصة القصيرة، وليس كما يحدث في الحواديت الشعبية ذات النهايات السعيدة، تأتي المفاجأة بعد أخر درجة في الصعود مباشرة، وهي «عشان يحن عليّ خالص» (خل بالك من «خالص» هذه)، فنجد أن سيد أفندي قد فقس «الأراجوز» وقال له فوت بعد أسبوع.. هذه المفاجأة التي تفجر ضحكًا له طعم البكاء.

وليس التصعيد ثلاثي الأبعاد هو الشيء اللافت الوحيد في قصة فؤاد حداد فيها أيضًا التكثيف الشديد الذي يصل إلى التجريد، فالحكاية تبدأ بـ«دخلت على السيد أفندي»، ولولا أننا نعرف أن الراوي هو الأراجوز (لأن الحكاية في ديوانه) لما احتجنا أن نعرف شيئًا عن هذا الذي دخل، أيضًا لا تحاول الحكاية أن تقول لنا لماذا دخل من جخل على السيد أفندي؟.. ما هي الحاجة التي دخل من أجلها؟.. لا يهم إنه فقط صاحب مصلحة يملك السيد أفندي تحقيقها، لكنه لا يحققها، التكثيف الذي يصل إلى التجريد، وغياب التفاصيل يخرجان بالحكاية من ملامح الخصوصية إلى كونها أمرًا عامًا كلنا ضحاياه، وليس ضحيته فلان بالذات، فالحكاية ليس فيها فلان بعينه.

وزيادة الوصف من فقرة على أخرى هي حيلة شعبية في الحكي تزيد من شد انتباه القارئ المستمع كما قلنا، ولها فعل أخر.. إذا تجعل المستمع مشاركًا، فيكفي الحاكي أو الحكاء أن يقول في المرة الثانية «بعد أربع تيام، فُت على السيد أفندي اللي..» ويصمت فيقول المستمع مشاركًا «ودانه من بره قرطاس ومن جوه بير»، وهنا يكمل الحكاء مُزيدًا الوصف أي أنه يزيد مساحة المشاركة للمستمع في الفقرة التالية، وهكذا يضمن بمشاركته انتباهه ويتملكه.

وبرغم أن الحكاية لا يمكن وزنها على بحور العامية أو الفصحى، إلا أن الموسيقى التي تلضم كلماتها كالمسبحة من الأول حتى النهاية تبقى شيئًا محسوسًا يزيد متعة المتلقي، وتزيد قدرته على حفظها ومن ثم ترديدها بل إن لها فعلاً لا يقل أهمية عن الامتاع وسهولة تداولها هو أنها تفرض بإيقاعها طريقة أدائها مثلما فرضت أسلوب تلقيها (ألم نقل إن قارئها مستمع إليها في نفس الآن).

كل هذه البراعة وما سوف يضاف إليها حين يهتم النقاد حق الاهتمام بإنتاج فؤاد حداد مترامي الأبعاد، وعطاء شعراء العامية الذين راحوا دون مبالغة «يطورون الشعر العربي في قصائدهم وأغنياتهم محافظين على مصرية (عربية) فنونهم في وقت كان تغريب الشعر العربي (فن العربية الأول والأعظم!!)

قد قطع شأوا طويلاً بعد شوقي في الأوطان والمهاجري بداية بالمدرسة الرومانسية وجماعة الديوان مرورًا بالمهجريين وأبوللو، وشعر التفعيلة «الحديث»، وموجة «المهموس» المندورية، ودوامة الانكفاء الداخلي و«موت الشاعر النبي» السبعينيانية، وما تلاها من أشعار تكاد تقرأ كترجمات التغريب و«الاستغراب» لم ينج منها أحد من شعراء الفصحى، وإن كان الإنصاف يدعونا إلى التأكيد (دون لبس) على أن عمليتي التغريب والاستغراب في «ديوان العرب!!» كانتا تتناسبان عكسيًا مع حجم موهبة الشاعر (الفصيح)، وأنه كلما كبر حجم الموهبة تناقصت سطوة «الاستغراب» والتغريب، وإن لم تنتف تمامًا تلك السطوة التي يتساءل البعض برغمها عما أفقد الشعر الفصيح جمهوره، وعما جعل فن «الناس» فنًا يزعم مبدعوه أنه فن نخبوى!!.

الحقيقة أن شعر العامية (الشعر المكتوب باللهجة العامية) كان قد أكتسب منذ زمن طويل ما بحثت عند الفحصي أطلقت عليه «وحدة الموضوع»، «الوحدة العضوية للقصيدة»، «وحدة الجو الفني»، بعدها أنطلق جليلاً مفصحًا رصينًا معجز البساطة على يد بيرم التونسي حرًا وتلقائيًا غائرًا في عبقرية المجاز الشعبي، والكلمة العادية على يد «بديع خيري» العظيم خالق العظماء، ثم جاءه فؤاد حداد فتخطى بأفاقه كل مدى لتحلق فيها طيور موهوبة طيور أسطورية كصلاح جاهين، والأبنودي، وهذا الشاعر الذي دلف إلى مركبة الشعر الذهبية ليصل بها إلى «أخر حدود الزجل» وأعني به سمير عبد الباقي الذي لم يدرسه النقاد حق الدراسة بعد مرورًا بجيل انحسر عنه النشر، ولم ينحسر فيه القول بعد ردة السبعينيات التي أهملت الشعب فأهملت أدابه، وصولاً إلى صادق شرشر.. عصافير تنزف حناجرها وأجنحتها وتصر على الطيران والزقزقة.

أقول هذا ليس انتصارًا لاتجاه أو لوجهة نظر، فعظمة الفن تأتي من كونه يستطيع ليس استيعاب العديد من وجهات النظر، بل إنه يستطيع استيعاب عدد من وجهات النظر تساوي أعداد الفنانين والمبدعين منذ انطلقت شرارة الإبداع في الإنسان العاقل وحتى أبد الأبدين أقول هذا لكي أبين أن فؤاد حداد الذي استوعب تراثه العربي، وتراثه الشعبي مثلما لم يستطع أخر تفتحت أمامه من الأشكال الأدبية ألوان وألوان، وأتاه الحظ فانتهى من بعضها ولم يواتنا الحظ فبقيت لنا أعمال ثلاث لم تكتمل. وكان فيما أكتمل وفيما لم المصري المجدد عربي الذوق والمذاق.

في الفن قانون لا تستطيع الهروب منه ـ إن أزمعنا ـ قانون يؤكد أن «المضمون» يعطي «الشكل» مبناه، وأن الشكل يعطي المضمون معناه، من هنا تأتي الخطور غير المنظورة حين نستدعي اشكالاً غريبة فتعطي مضامينا معناه، إن الذين كرروا ليعلموا الشطار أن الإغراق في المحلية سبيل إلى العالمية، كانوا يؤكدون ـ دون أن يعلنوها ـ أن أشكالاً مبتكرة من تراثنا هي القادرة على حمل مضامينا، ومن ثم ملامحنا الخاصة لمن لن يقبلوا «بضاعتهم» وقد ردت إليهم بأقلام تحمل أسماء لا تشبه أسماءهم.

لقد كان نجيب محفوظ عاديًا في «ميلودراماته» الأولى لكن فتحًا مبينًا حدث له بداية من الثلاثية التي تستطيع أن تستطعم فيها فن السيرة العربي، ثم في أشكال الحكي المصرية في نقلته الكبرى «اللص والكلاب» وصولاً إلى هذا العربي المحفوظي الذي استطاع أن يكتب «الحرافيش» ويبهرنا في «ليالي ألف ليلة» فاستحق نوبل، إن استلهام القديم لا يعني تقليده بناء ولغة، ولكن يعني هضمه لكي تفرزه النحلة الجديدة عسلها الذي لا يتشابه عليها مع عسل أخر!

هكذا كان فؤاد حداد الذي رأسيناه يبكي حكايته وهو يحكيها ببنية النكتة الفنية، وها هو ذا قبل أن يستورد لنا إدوار الخراط ما أسماه «عبر النوعية» أو الفن الذي سيشترك في بنيته أكثر من نوع أدبي يصل بنا (فؤاد حداد) إلى عبر نوعية عربية يشترك فيها الشعر الموزون الموقع والنثر المرسل، وإليك هذه الحكاية العجيبة واسمها «عوض الله» من ديوان الأراجوز والتي كتبها فؤاد حداد في أربع فقرات تبدأ كل فقرة منها ببيتين من الشعر لتستمر منشورة دون سجع وبتوقيع بسيط.. لتنتهي أخر الفقرات ببيتين إضافيين هما القمة في السخرية.

بدأ فؤاد حداد حكايته بهذين البيتين:

«يزرّ عينيه كإن عينيه ماهيش زارّه..

ويفتى يقول في الاشتراكية والذرة..».

هكذا رسم لنا فؤاد حداد الشخصية في بيتين من الشعر من فرط وضوحهما وقدرتهما على الدلالة يصبح شرحهما ضربًا من المماحكة.

ورغبة مني في أن يعود القارئ إلى ديوان الأراجوز ليستكمل الحاية أكتفي بالفقرة الأخيرة للدلالة على ما اقول مبقيًا المتعة مؤجلة ومتاحة لمن يعود إلى الديوان:

«وعنده مطرح فوقاني وشقة محجوبة

وعنده تلاجة من غير تلج.. أعجوبة

ومكتبة فيها الفلسفة والفولكلو..»

وجت عيني على الرف اللي فيه الشعب والأمثال قلت يا عوض الله مش المثل اللي بيقول الشاطرة تغزل برجل حمار عكس المثل اللي بيقول اطبخي يا جارية كلف يا سيدي؟

عوض الله ضحك في سره وابتسم في وشي وقال: بص لي تعرف ما فيش تناقض بين المثلين:

«وزرّ في عينيه.. رفع نظره.. ونظره خفض.. سيجارة دخن.. مشاكل حل.. طافية نفض».

لعل القارئ لاحظ أفضل مني أن الشعب ـ عند عوض الله في شقته المحجوبة التي لديه فيها تلاجة من غير تلج.. أعجوبة ـ على الرف وهي إشارة تحدث فعلها يعبر عليها فؤاد حداد بسرعة واثقًا من قدرة الناس على ألفهم، ولعله لاحظ أنه رجل «مستفيد» من افتائه في البيتين «مطرحًا فوقانيا» و«الثلاجة» التي تبرد قلبه فتجعله عمليًا لا يبالي إلا بمصلحته هو مصلحته في الإتاء بما يرضى السيد الذي كلف بمهارة تجعله يغزل كتاباته برجل حمار!! ثم لعل القارئ قد لاحظ وأنا متأكد من أنه فعل هذا التقطيع في البيتين الأخيرين الموحي بقلاطة عوض الله (الذي أعطى عوضًا من حيث لا يحتسب) وهي قلاطة على الفاضي تدل على أهمية لا وجود لها،زرفى عينيه.. رفع نظره.. ونطره خفض.. دخن سيجارة.. مشاكل حل.. طافية نفض.

عوض الله ماعندوش وقت بيفتي «على ودنه».. حتى قبل أن ينفض «طافية» السيجارة.

إن هذه البساطة المذهلة لا تتأتى إلا بفن كبير.

أليس فؤاد حداد مستحقًا للبيت الذي كتبه عن سيد درويش معظمًا قدره «ورفعت صوتي إلى مقام الشعب!!».

إنه يستحقها هذا الذي استوعب فنون شعبه فصيحة وعهامية فافرز لنا عسلاً شديد الحلاوة لا يثقل على المعدة الفنية.

***

«شربت ميّه من الساقيه..

وقلت للأرض أتشاهدي

في الجو بذر استعماري

أخاف ينبت على لحدي».

ف.ح

لكن هل انتهت؟!

كانت السبعينيات أشد العقود ظلامًا في عيون فؤاد حداد، ولعل القارئ يذكر أنني قابلته أولها في مجلة «الطليعة»ضائقًا بكل شيء غاضبًا من موقف المثقفين الذين انفجروا بعد كبت يجلدون الذات معلنين رفضهم لكل ما كان في وقت رأه هو وقت اختيار صعب ووقت فرز دقيق لما يجب التمسك به، وما يجب مقاومته والوقوف ضده، كان الوقت في نظره وقت مقاومة وليس وقتًا لتصفية الحسابات مع نظام كان يتوجس من الفكر، ويعادي الأيديولوجيات المتكاملة، ويشيع ثقافة بلا جذور، ويهدد الناس في أمتهم في الوقت الذي عجز فيه عن الحفاظ على أمن الوطن.

والحقيقة أن السبعينيات كانت مثلما رأي فؤاد حداد وأكثر كانت محنة كبيرة، ففي أول سنيها فقدنا جمال عبد الناصر الصمان الوحيد المانع لأن يحقق الغرب الرأسمالي والرجعية العربية أغراضهم في السيطرة على مقدرات الأمة من المحيط إلى الخليج، لكنه كان في نفس الوقت ولأسباب لم تدرس جيدًا بعد حجر عثرة في مواجهة تغيير مطمئن كان مقتنعًا دون مبرر واضح - أن أي دعاوي للتغيير هي مقدمات لا يمكن السماح بها للانفضاض على نظامه المهزوم، وأنها سوف تعطل تحرير الأرض الذي رأه المشروعية الحقيقية لبقاء النظام، ومن هنا جاء شعاره في بيان 30 مارس الذي استجاب او كان استجابة لمطالب وطن وأمه، كانت حناجر الطلبة أبواقًا لإعلانها جاء شعاره «لا صوت يعلو على صوت المعركة» محققًا ارتباكًا لم يكن يهدئ من جموحه إلا حرب أستنزاف عظيمة شنتها تضحيات جيل عظيم على العدو في سيناء، وإن كان قد قبل - لعظم التضحيات - مبادرة روجرز الأمريكية لكي يتمكن من استكمال حائط الصواريخ الذي كان التقنية الوحيدة الممكنة في زمن قصير لمواجهة تفوق الطيران الإسرائيلي المدعوم بطائرات وطيارين غربيين على أن تتولى الصواريخ المضادة للدبابات، والمحمولة في أيدي المشاة،

وقد تم تجربتها على العدو مرة وحيدة في لسان بور توفيق، وأثبتت نجاحًا يعادل نجاحاتها في التدريب المستعر، ثم أبقيت بعد ذلك في طي الكتمان لتحرم إسرائيل ميزة التفوق في استخدام المدرعات في حرب كان لا بد وأن تندلع لضبط النبض في شرايين الوطن، كانت لدينا رؤية عسكرية استراتيجية متكاملة للمعركة المزلزلة، وكان الشعب قابلاً بالتضحيات مهما عظمت، لكن الأمة برغم كل شيء كانت شديدة الارتباك إذ لم تكن تستطيع أن تصدق أنها قادرة على هزيمة هذا العدو، وفي نفس الوقت لم تكن ـ الأمة قادرة على ألا تصدق أنها لا تستطيع.

توفى جمال عبد الناصر ـ إذن ـ ونحن من الارتباك في غاية، وكان فؤاد حداد يحاول أن يتمالك نفسه، والغريب ـ الذي لا يعد غريبًا عليه ـ أنه بعد أقل من ثلاثة شهور من وفاة جمال عبد الناصر، أو استشهاده في رأيه، ورأيه حق أعلن تخوفه على المقاوم الفلسطينية.

«حقيق الدم هاجمه/ لازم تعيش المقاوم/ من كل وادي لوادي/ فوق الكفوف زوادي/ بارئ من الأبرار/ وصاني ليل ونهار/ إما ولاد الديب/ إما ولاد الدار/ من بعد أب ايلول/ يجري الشتا المستخفي/ يحكي ربيع زغلول/ يورد أثر من زحفي/ على رملها المبلول/ حلفتكم بالنعمة/ لازم تعيش المقاومة.

كان فؤاد حداد قد بدأ رثاء جمال عبد الناصر في نوفمبر 1970م، وأضاف له خوفه على المقاومة في يناير 1971م.

وفي ظني ـ ويؤكده مقابلتي الأولى لـ«فؤاد حداد» ـ أنه ظل متوجسًا خيفة من السادات ومن المثقفين الذين يخدمون اتجاهاته التراجعية بحسن نية وبسوء نية أيضًا، ويؤكد هذا الظن كذلك هجوم فؤاد حداد على الديمقراطية، كلما جئت بسيرتها أمامه، وأظن أن موقفه هذا من الديمقراطية كان موقفًا من الخداع الذيب مارسة السادات بها قبل أن يحصل على شرعية انتصار أكتوبر مستخدمًا إياها مطية لمحاسيبه من الجناح اليميني للثورة يركبونها للهجوم على جمال عبد الناصر «الله يرحمه»، فلما حصل على شرعية أكتوبر أخرج أنيابًا لديمقراطية جدًا، إن خداع السادات بالديمقراطية الذي لم ينطل على الطلبة الذين خرجت حركتهم مرتين في عام 1972 و1973م ضد السادات مطالبين بديمقراطية حقيقية فاعلة، وحلاً للقضية الوطنية بمواجهة العدو الصهيوني لم ينطل على فؤاد حداد بالضرورة.

ولقد تحمل اليسار ما لم يتحمله بشر من جمال عبد الناصر مقابل إنجازاته للفقراء وخطوات أرادوا لها أن تكتمل في طريق الاشتراكية، ومواجهة الرأسمالية العالمية وذراعها الاستعماري الإمبريالي بصورته الاقتصادية الجديدة ـ وقتها ـ فكيف كانوا يستطيعون احتمال السادات وتراجعه كان بيناً في الاتجاهين.

لكن مراجعة «كلمة مصر» الديوان الوحيد «الجديد» الذي صدر لـ«فؤاد حداد» في السبعينيات (صدر له ديوان صغير للمسحراتي كتبت قصائده في الستينيات) يؤكد أن فؤاد حداد أخفى توجسه بعد انتصار أكتوبر وعبأ الديوان (صدر 1975م) بكل ما تريد مصر. قوله (من هنا اسم الديوان كلمة مصر)، وأقول عبأ الديوان لأن من يرى الديوان الآن سيجده وقد ضم عدداً هائلاً من القصائد كتبت في كل صفحة على عمودين في قطع متوسط ضم (241) صفحة، كان يقول فيها كلمته (كلمة مصر) الأخيرة لعهد تملؤه إشارات مقلقة ومزلزلة.

في ذلك الديوان كتب فؤاد حداد «مبدأ الكلام»:

«بعد السلام على حضرة الجمهور/ أطلب من الرحمن هداية ونور/ أول كلامي نتفق/ ما افهمش دور الفن إلا دعاية/ موقف مع العامل مع الفلاح/ والخط والجبهة اللي شايلة السلاح/ أطلب من الرحمن تتم الآية/ إحنا وطن عربي اشتراكي/ آخر مدى يوصل إليه إدراكي/ إن كنت فنان أخدم المطلوب/ أفتح بيبان دقت عليها القلوب/ على الميدان أنزل بشباكي/ إن شفت شعبي شفت كل الشعوب/ أطلب من الرحمن يقدرني/ مادمت صادق في هوى المحبوب/ كإني في يد المزارع حبوب/ على أرض مصر. من الصباح وبدرني/ كلامي زي الخير يروح المضارب/ كلامي يتقدم كلامي يحارب/ وف مرة تانية حنسال بعض ونجاوب/ ليه المغني كل ما يقول آه/ الناس تقول الله».

وفي هذا الديوان «كلمة مصر» سيجد القارئ ثلاث قصائد عن عبد الله النديم المثقف الحقيقي الذي صنع الثورة العرابية، وجعل الإنجليز يندمون على إقامتهم سكة حديد في مصر حملته خطيبًا إلى كل القوى المصرية، القصيدة الأولى بعنوان «عبد الله النديم»، والثانية «مطلع أغاني النديم»، والثالثة بعنوان «مذهب أغاني النديم»وكأنها ـ الثلاثة ـ دعوة للمثقفين أن يأخذوا مواقعهم ويقوموا بدورهم الحقيق مثل عبد الله النديم:

«لما التفت فوق المأسي وقال/ يا مصر. كنا رجال/ بنعلي أسمك للزمان الجاي/ طول السنين بندور وبنجاهد/ وأنا أسمي عبد الله النديم شاهد/ كان الضمير المصري دائمًا حي».

ودهم مصر الانفتاح، ودهم فؤاد حداد كتب الانفتاح الاقتصادي نهاية ثورة 23 يوليو ونهاية الحلم الذي هوّن التضحيات، وصنع هاوية يتردى فيها الوطن في نفس الوقت كان الأولاد قد كبروا وكبرت مسئوليات فؤاد حداد، وأصبح بكريه «سليم» في الكلية الفنية العسكرية، وأصبح هو مترجمًا في وكالة الشرق الأوسط تطارده الأخبار الآليمة ماذا يستطيع أن يفعل هل يسكت ليربي أولاده بالقليل الذي يحصل عليه، هل يتكلم ويدفع الأولاد الثمن لا يستطيع أن يتكلم، ولا يستطيع أن يسكت، لا يستطيع العيش، ولا يستطيع أن يسلم أسرته للضياع، وفجأة إنهار الجبل.

في عام 1976م أصيب فؤاد حداد بمرض أسماه الدوخة لم أره في هذه المرحلة لكن أمين ابنه يحكي عنها ما يؤلم أصبح فؤاد حداد غير قادر على صلب طوله لا يستطيع أن يمشي. وحده في شارع وشخص الدكتور يحيى الرخاوي أستاذ الطب النفسي. بكلية الطب جامعة القاهرة حالة فؤاد حداد مرضًا نفسيًا، وعالجه، لكن الأدوية التي منعت الأعراض منعت الشعر كيف يعيش فؤاد حداد معافى دون شعر وأصيب فؤاد حداد في نوفمبر 1979م (شهر اتفاقية السلام) بجلطة في القلب جلطة كبيرة أفسدت جزءًا لا يستهان به من عضلة القلب، وسعى الساعون لتعيينه في مؤسسة روز اليوسف ليستطيع أن يحصل على العلاج.

وكما إنهار الجبل فجأة شمخ الطود فجأة بعد أكثر من شهر بقليل دخلوا على فؤاد حداد ينعون رفيقًا من العمال زامله في المعتقلات.. وقام فؤاد حداد قام لأن لا شيء أكثر مما حدث من الممكن أن يحدث، والموت جاء قام رافضًا أن يتعاطى المهدئات قام بقلبه المطعون بالجلطة صادحا (أدي أيام العجب والموت).

«أدي أيام العجب والموت/ جات بسرعة زي غمضة عين/ ليه ماقلتش زي لمح البصر/ كنت با اتقلب على الجنبين/ والكابوس من كل جنب يجيني».

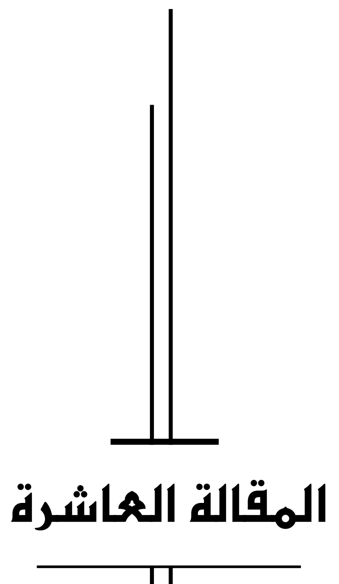
عاد إلى الشعر يرثي كل من أكلهم الموت، وأزاحهم في طريقه إليه.

قال في أولى قصائده «أتونهمت الخوف دهسني الخطر» وانطلق يجري أمام موته، وموت الوطن، يجري شعرًا في الست السنوات التي عاشها بعد الجلطة كتب ما لم يكتبه عشرة شعراء عاشوا حياة مديدة.. كان يذهلنا بحجم ما يكتبه يوميًا، وبنوعيته حتى أنني تصورت بل اقتنعت، وأنا اراه يكتب بمعاناة نفسية (وإن كان الشعر يطاوعه) تفتت الصخر أنه لا يجري أمام موته، أنه يجري وراءه.. وعبثًا حاولنا تهئته.. ولكن كيف كان لنا أن نهدئ من كتب في بداية جريه أمام الموت أو وراءه:

«كنت حالف تحت عين الله/ إني أخد حقي من موتي».

رحم الله فؤاد حداد شاعرًا لم يعشق شيئًا قدر ما عشق الوطن، وأولاده، وشعرًا كان يقتله ليحييه.. ويحييه ليقتله إلى أن استشهد شعرًا ليس كمثله شعر.. ولا استشهاد.





المقالة العاشرة

سيد حجاب يفتعل
مشاجرة مع صلاح جاهين
ليفسد فرح فؤاد حداد!

إن كنت أديب وقالوا لك «بخّ»/ تنخّ.. ح تصبح أدباتي/ وقالوا لك نخ كمان سنّة../ راح تصبح أدباتاتاتي/ وكمان سنّة وكمان سنّة../ أدباتاتاتاتاتاتي

«ف.ح»

- **كشف المستور عن محاولة عم سيد إنكار ريادة فؤاد حداد الشعرية**
- **لمعلوماته.. عم فؤاد داخل المعتقل عام 54 وليس عام 1951م.**
- **لا يا أستاذ.. دراويش فؤاد حداد ليسوا من التنابلة العميان!**
- **المطرب الذي تبناه فؤاد حداد وكان يظن أنه سيصبح خليفة عبد الحليم حافظ.**

هل عليّ أن أذكر القارئ بأنني أكتب الحكايات لأرسم له وأمامه صورة فؤاد حداد الشاعر والشعر والإنسان.

لا أظن أنني احتاج لهذا التذكير وقد أعطاني القارئ الكريم فوق ما أستحق بكثير متفهمًا متفاعلاً وكريمًا في إعجابه وحبه.

واليوم تتعدى واحدة من الحكايات حياة فؤاد حداد نفسه لترسم صورة عما لاقاه من تعدٍ بعد موته مثل ما لاقاه من حجب في حياته.. بينما شعره كالسهم ينطلق إلى قلوب الناس وعقولهم لا تحوشه أيادي تحاول التقاطه وإخفاءه.

الذنب ذنب من يحاول أن يلتقط السهم..

فالسهم البارق في طريقه يدمي من يحاول أن يصده.. ويبقى منطلقًاز

موالي بحر وكلهم صياد فيه

والنقل زي اللؤل في صدفية

ف.ح

الفرح منور بصاحبه...

في 13 أكتوبر 2002م أصدرت «أخبار الأدب» عددًا خاصًا احتفاليًا جميلاً وراقيًا بفؤاد حداد «سمته» العدد وفؤاد حداد «شاعر الشعراء»، وهي تسمية جميلة مستحقة، كان جمال الغيطاني «رئيس تحرير أخبار الأدب» صاحبها إذ جللت عموده «نقطة عبور» في الصفحة الثالثة: عنوانًا له.

كتب جمال الغيطاني في مقدمة عموده «أحيانًا» أتساءل هل من قبيل المبالغة إذا قلت إن فؤاد حداد يعتبر أشعر من خطأ فوق أرض مصر بعد المتنبي وأبى نواس وشوقي؟ كما عدت إلى قراءته أتأكد من صدق الإيجاب في الإجابة، إنني أقرأه باستمرار أشعاره تعجبني في أسفاري أستغرقها وتستغرقني، هذا التركيب المبهر، وتلك الصور الغزيرة التي يفاجئني بعضها ويبدو كأنه أكتشاف أمسك من خلاله بجوهر الوجود والصيرورة.

هذا بعض ما كتبه جمال الغيطاني مما يستحقه فؤاد حداد، ويستأهله صاحب ذوق فني رفقيع كالغيطاني نفسه معبرًا أفضل تعبير عن «روح» العدد المحتفية المحتفلة بفؤاد حداد.

في هذا العدد بالذات، وليس في رأي عدد أخر «أخبار الأدب تصدر كل عام 52 عددًا على الأقل» أراد الأستاذ سيد حجاب، أن يضرب كرسيًا في «الكلوب» مفتعلاً مشاجرة من جانب واحد، وهو يمسك بجلباب أبيه ومكتشفه وصاحب الفضل عليه «وعلينا» صلاح جاهين الشاعر العظيم الذي لا يحتاج شهادة من أحد تؤكد عظمة شعره الذي يخترق الدروع ساخنًا على وجدان القراء والسامعين والمشاهدين فاعلاً فيها الأعاجيب.

بعد مقدمكة «هي بعض حق فؤاد حداد» كتبها «الأستاذ سيد حجاب» بروعة يجسد عليها أقر فيها أن فؤاد حداد والد الشعراء، راح يوجه سهامه إلى النقاد «البُعدا على حد قوله»، وبعدهم إلى «الإخوة الأحباب دراويش فؤاد حداد قائلاً: سماح يا إخوانا لن أنزل إلى ساحة الذكر مثلكم، ولن أشطح... معكم في الحضرة الذكية (والذكية ربما كانت خطأ مطبعيًا، فالحضرة الزكية بالزاي وليست بالذال كما جاءت أكثر من مرة في المقال ص11 من العدد، إلا إذا كان صدق ما دون الوعي أراد أن يصف الحضرة بالذكاء منصفًا «الأحباب دراويش فؤاد حداد»)، فلست من جملة الدراويش والمريدين، ولست أحب لنفسي ـ الكلام لسيد حجاب ـ أن أكون.

أما لماذا توجيه السهام للنقاد والدراويش «وقد أسهاهم المدعين في مكان آخر»، فليس لشيء آخر غير هذا التساؤل الذي أطلقه هل خرج شعر العامية المصرية الحديث حقًا من إطار الزجل وتقاليده القديمة على يدي فؤاد حداد كما يقول الدراويش والمريدون؟ لمن تنعقد بالفعل راية البداية والريادة؟ وماذا كانت البداية الحقيقية؟ هل هي قصيد «شاي باللبن» أم قصيدة «القمح مش زي الدهب» صلاح جاهين أم هي قصيدته «بكره أجمل من النهاردة» حيث اكتملت ملامح الرؤية الحديثة، كيف يكون فؤاد حداد هو البداية والريادة وهو وراء الأسوار، بينما جاهين خارجها يشارك ويؤسس مع تلاميذه هذا التيار الجديد ليخرج فؤاد حداد من معتقله فيجد حركة شعر العامية المصرية في انتظاره.

هذا هو التساؤل «الكرسي في الكلوب»

ولنا كمثله سؤال من هم تلاميذ صلاح جاهين المقصودون؟ هؤلاء «التلاميذ» الذين حولوا صلاح جاهين من «رائد» إلى شاعر بحسب كلمات سيد حجاب «يشارك ويؤسس مع تلاميذه».. كان صلاح جاهين «يشارك»؟! يعني لا فؤاد حداد ولا صلاح جاهين؟!

من هم التلاميذ ـ الذين كانوا شعراء ـ وصلاح جاهين يكتب «الشاي باللبن» في عام 1952م، و«القمح مش زي الدهب» في عام 1951م؟ و«بكره أجمل من النهاردة» في ديسمبر 1955م؟!

الإجابة التي نستشفها من المقال هي أن هؤلاء «التلاميذ الذين جعلوا صلاح جاهين نفسه مشاركًا في التأسيس هم جميعًا سيد حجاب»، فهو يقول في المقال «سمعت من أستاذي صلاح جاهين..»، والأهم أنه يقول كنت في السابعة عشر من عمري «...» وعلى الرصيف أمام «عم الرملي» الكتبي وبائع الصحف بمحطة الرمل توقفت عيناي عند عنوانين صغيرين كان الأول هو «موال عشاق الكتال» لصلاح جاهين الذي كان اسمه قد ذاع من خلال أغنيات رائعة شارك بها في معارك العدوان الثلاثي، واحتوى هذا الديوان بعضًا منها (الديوان اسمه «كلمة سلام وموال عشاق القنال»). وكان الثاني هو «ها نبني السد» لشاعر لم أكن سمعت به من قبل، وأعجبني الاسم، اسم الديوان واسم الشاعر فالديوان «هانبني السد» يعني بالعامية المصرية التي «خل بالك» كنت كتبت بها بعض محاولاتي الشعرية الأولى «...» وشرعت في القراءة:

قال لك ح نبني السد/ قالك ح نبني السد/ قال الوطن كلمته/ ومشينا يد في يد/ والسرب لما أنطلق الفرع الأخضر مد/ شفنا السنابل بتعلا/ والطفاة تنهد/ وللسلامو عليكم ألف مليون رد.

«يا الله (الكلام مازال لسيد حجاب الذي اختصرت ذاكرته ثلاثة أبيات بستة سطور من القصيدة) هذا شاعر جميل قادر يمتلك أدواته، ويفكر بالصورة، ويلملم اشتاتها، لينسج منها لوحة كلية تنبض بصدق فني غنائي، وهذا شعر جميل ممتع سبيكة رائعة مكن ذات شاعر، ووجود ممتلئ بالوطن وناسه، وقيم النضال الإنساني مع تشكيل جمالي محكم، ولكن..».

أما لماذا «لكن» هذه، فيقول لنا سيد حجاب بعد سطور كثيرة فشاعرنا كان يكتب في إطار التقاليد القديمة «الموال = عمود الشعر العامي» ولم يكن بعد قد غامر بالدخول إلى عالم قصيدة التفعيلة «خل بالك ح نرجع للكلمة دي» إلا في مسألة التشكيل بالصورة «برضه خل باللك»، وقد أثارت قصائده إعجابي بجمالها وقدراته.

بعدها يقول إن اتلقصائد لم تثر دهشته إلا في بيت واحد اتصور.. بعد كل ما كتبه عن الشعر!! فتحت شباكي على كل البلاد/ وفتحت عني وشفت أحلامي رطب.

والآن أظن أننا وصلنا إلى مربط الفرس بعد كل ما أوردناه من فقرات من المقال «الكرسي»، ومربط الفرس يصبح شديد الوضوح حين نورد هذه «المستقطعة» من المقال.

وتابعت من موقع المشاهد معارك تأسيس ما اصطلح على تسميته بعد ذلك بقصيدة التفعيلة «وهو دون السابعة عشرة« وأحببت من الطالعين عبد الصبور وحجازي والفيتوري والعنتيل »من المصريين« والبياتي وقدوي طوقان »من العرب« وترسخت في ذائقتي الشعرية بعض قيم الثورة عن (خطأ مطبعي وصحته «على») التقاليد الشعرية القديمة «التي كان يكتب في إطارها فؤاد حداد» لإبداع شعر يتسق مع زمائنا ويحتويه.

من الواضح أن سيد حجاب يقصد بالشعر الذي يتسق مع زمائه ويحتويه شعر التفعيلة المكتوب العامية المصرية «ويقصد شيئًا آخر سنعود له»، أي أنه يقصد أن التطور المنشور هو نقل شكل جددته بالفصحى «في نظره، فلو عاد إلى موال الأدهم الذي كتبه مصطفى مرسي الشاعر العظيم في العشرينيات لوجده مكتوبًا بما يمكن أن نسميه شعر التفعيلة غذ لا تتساوى سطور كثيرة منه في عدد التفعيلات، فالموال مكتوب بالعامية لشاعر متمكن من طريقة الموال السبعاوي ومكتوب بلا فواصل بين أجزائه متنقلاً بحرية بين القوافي المختلفة»، هو شعر التفعيلة إذا كان ـ وهذا ظني ـ يقصد ذلك بالتطوير فنحن نحيله إلى كلمات صلاح عبد الصبور في مقاله «التعليق» على كتاب نازك الملائكة «قضايا الشعر المعاصر» في عدد مارس من مجلة «الكاتب» عام 1962م: «الشكل.. الشكل وحده هو ما دعا نازك إلى إطلاق كلمة (الشعر الحر) على هذا النوع الأدبي، وهو الذي صبغ نظرتها إليه ومحاولتها لدراسته، فوقفت عند «العروض» (التفعيلة) ولم تكد تتعدى دائرة العروض إلى أفق أرحب من الدراسة الفنية المتذوقة».

نحيله على كلمات صلاح عبد الصبور هذه، ونضيف ما قاله في تقديمه للدراسة الفنية المتذوقة «كان العروض عندئذ يصبح مجرد فرشة موسيقية، ويصبح الغرض الأوضح من تأليف الكتاب هو الفن الشعري».

الفن الشعري هو الأساس يا أستاذ سيد، وهو محك الريادة، وليس شعر التفعيلة، ولهذا قال صلاح جاهين أستاذك وأستاذنا عن ريادة فؤاد حداد في مقدمة أعماله الكاملة مقررًا حقيقة وليس على سبيل الحب «الحب والاحتواء» لفؤاد حداد كما تقول، وهو ما لم أفهمه فالحب ليس بديلاً عن الحقيقة عند أستاذ بحجم صلاح جاهين ومكانته، أما الاحتواء فهي كلمة دلالتها عندك وحدك، فأي أحتواء كان من الممكن أن يسعى غليه صلاح جاهين لفؤاد حداد عام 1977م، وهو يقدم أعماله الكاملة لأصدقاء ابنه بهاء، وقد قال أحدهم لبهاء «نحن نسمع دائمًا أن أباك شارع، ولكننا لا نرى حرفًا واحدًا من شعره» الأمر الذي يقول عنه صلاح جاهين: «فاستفزني هذا القول، وشجعني على أن اتخذ الخطوات العملية لإعادة طبع دواويني كلها في مجلد واحد»، وقد أهدي المجلد لجيل كان يظن أنه يجهله. بعد ان توقفت دواوينه بسبب النكسة التي القت به «في هاوية من الحزن لا قرار لها».

دعنا من الاحتواء هذا، ودعنا من الحب غير المنكور، وتعال نتمعن في كلمات الشاعر الكبير العظيم «أستاذك وأستاذنا».

كان الغليان الثوري قد بلغ ذروته في عام 1951-1952م عندما قرأت في إحدى المجلات السياسية بالبنط الصغير قصيد بالعامية بتوقيع فؤاد حداد تقول سطورها الأولى:

«في سجن مبني من حجر/ في سجن مبني من قلوب السجانين/ قضبان بتمنع عنك النور والشجر/ زي العبيد مترصصين».

فلما قرأت هذه القصيدة المتجهمة «الكلام مازال لصلاح جاهين» المتقشفة في ألفاظها بحثت مبهورًا عن كاتبها حتى عثرت عليه، وكنت قد بدأت أنا الاخر بضع محاولات بالعامية أغلبها متأثر بالأستاذ الكبير بيرم التونسي، ولذلك هالني أن أقرأ نظمًا بالعامية يسير في طريقه الخاص «خل بالك من الخاص هذه» ويستمد منطقه من نفسه.

أي كلمات هذه إذا لم تكن «الريادة» التي حاول سيد حجاب إنكارها.. أليست الريادة شاعرًا جديدًا لا يشبه بيرم التونسي له طريقه الخاص يستمد منطقه من نفسه، ويكتب شعرًا هال صلاح جاهين.

في هذه الكلمات يتضح أن ما كان يعني صلاح جاهين هو الفن الشعري عن فؤاد حداد.. إنه يؤكد عليها قبل أن يقول «بدأت أغازل الشعر الحديث الذي حطم عمود الشعر»، والذي كان شعراء الفصحى قد بدأوا ينشرونه، ولكنه «وهذه كلمات صلاح جاهين» لم يكن ينزل لفؤاد حداد من بلعوم.

قدم صلاح جاهين الفن الشعري «بكلمات صلاح عبد الصبور» على الشكل الذي أقر بأنه كان الرائد فيه.. «ونحن نقر له بالريادة فيه أيضًا، ةولا نقبل أن يكون مشاركًا تلاميذه في تأسيسه».

الآن نراجع «اللغة» الطويلة التي لف بنا سيد حجاب فيها ونلخصها لنعرف لماذا كان كرسيه في الكلوب.

أول عناصر اللغة أن يعتمد الشكل «شعر التفعيلة» عن التطور، وليس الفن الشعري بكل عناصره عند فؤاد حداد بل إنه يعتبر «الشكل» خروجًا على تقاليد الزجل، ولا يعتبر الشعر بكل خصائصه هو الخروج، وكان الزجل نمط موسيقي فقط، وليس فنًا شعريًا ذا خصائص محددة خرج عليها فؤاد حداد بحق حين جلب من شعر العربية والشعر الشعبي، وشعر المقاومة الفرنسية ومن الشعر اللبناني المرتجل، ومن تكوينه الفريد العاشق في المقام الأول لعبقرية اللغة«كل لغة واية لغة» جلب ـ فؤاد حداد ـ خصائص فنية زرعها في العامية فأخرجها من تقاليد الزجل «وكل ما أوردته يعترف به صلاح جاهين في مقدمته المشار إليها لأعماله الكاملة عام 1997م».

ثاني عناصر اللغة الحجابية هو اعتبار فؤاد حداد سجينًا ومعتقلاً من 1951 إلى أن بدأ «التلاميذ سيد حجاب» يشاركون صلاح جاهين في تأسيس شعر العامية المصرية الحديث، أو نبض كلماته «وخرج حداد من المعتقل وبكل الحب التفقنا مع جاهين من حوله»، والواقع أن فؤاد حداد لم يكن معتقلاً منذ 1951م تاريخ كتابة (القمح مش زي الذهب)، إذا اعتقل عام 1954م، وخرج من المعتقل بعد ثلاث سنوات ليعود إليه بعد ثلاث سنوات ويقضي فيه خمس سنوات أخرى ما يعني أنه تواجد خمس سنوات «حرًا» أثناء فترة تأسيس شعر التفعيلة في العامية المصرية، هذا فضلاص عن اعتراف سيد حجاب نفسه في المقال عينه أن فؤاد حداد خرجت له اشعار من المعتقل وخرج من المعتقل بأشعار أي أنه لم يمنعه الأسر من أن يمارس كتابته الجديدة بفن شعري أخرج العامية من تقاليد الزجل.

ثالث عناصر اللغة الطويلة هي وضع عصا في عجلات صلاح جاهين المطورة لشعر العامية المصرية «وصلاح جاهين هو صاحب التسمية، وناقل التقنية من شعر لافصحى» ووضع «حجاب» على جهوده عشر سنوات كاملة كان فيها ملء السمع والبصر. والقلوب حتى يظهر تلامذته «المؤسسون» في بداية الستينيات غذ يشهد ديوان سيد حجاب الاول «صياد وجنية» الصادر عام 1966م، أن أقدم قصائده كتبت في عام 1961م «معقول الاكم ده يا عم سيد!!» هذه هي عناصر اللغة الطويلة التي لم تدوخنا.

أما لماذا هذه اللغة الطويلة فإن المقال يجيبنا عنها في فقرة تثير العجب، قال فيها سيد حجاب بفصاحة لا تنكر ـ عن فؤاد حداد «أراه» مع بيرم وجاهين ـ من الأقطاب الأربعة الكبار لوقتنا الشعري.

هل لاحظ القارئ أن «لوقتنا الشعري» أربعة أقطاب حدد منهم سيد حجاب ثلاثة بيرم وحداد وجاهين، ولم يحدد الرابع، وحسنًا فعل.. وإن كان «الرابع» هو «سر» اللغة، وعين المطلوب من الألتفاف المدوخ.

والحقيقة أنني أتفهم تلك المقاتلة العنيفة التي أثارها الأستاذ سيد حجاب في موضوع الريادة والتأسيس أتفهم وقلبي معه لكن عقلي لا يطاوعه إذ إنه من بين شعراء العامية الوحيد «غيري، إذا اعتبرت نفسي من شعرائها» الذي ليس له غير دواوين فقط في مسيرته الطويلة التي تقترب حسب تأسيسه هو من نصف القرن. بقى فيها مخلصًا لشعر التفعيلة في العامية، ومقدمات المسلسلات والأغنيات المكتوبة بأنساق زجلية، وليس هذا عيبًا ـ على الإطلاق ـ كما صور لنا المقال، في وقت تجاوزت العامية إلى أشكال والوان كثيرة أخرى على يد فؤاد حداد «كما سنرى منها الكثير في حكايات مقبلة بإذن الله»، وبالطبع والطبيعة على يد صلاح جاهين والأبنودي وسمير عبد الباقي، بل وتلاميذ التلاميذ.. أتفهم موقفه بقلبي، وأكاد أبرر له حرصه على أن يدخل نفسه في موضوع «التأسيس» الذي لا يستطيعه إلا إذا أخرج من الموضوع فؤاد حداد وأعطاه حقه ـ وهذا ما نذكره له ـ في غيره.

الآن نعدل المقلوب ونتجاهل ـ في مقال سيد حجاب ـ «المطلوب» ونظهر المحجوب.

فؤاد حداد كما قال لنا صلاح جاهين بشاعريته وشعريته «فنه الشعري» الجديدة أخرج العامية من تقاليد الزجل التي وصل بها بيرم التونسي إلى قمة لا تطال أخرجها ـ العامية إلى دنيا رحابتها بلا حدود «وحين ندرس ديوانه الأول لن نرى شاعرية وشعرية جديدة فصب، ولكن سنرى تجارب عديدة لكسر النسق العمودي، وسنجد محاولة لقصيدة النثر سبق بها أشعار الماغوط الفحصيحة وسنجد أشياء أخرى».

وصلاح جاهين منذ عام 1951م كان مؤسسًا لشكل جديد في العامية مثابرًا على توطيد أركانه، والشكل الجديد لا يظل شكلاً وحسب، ولكن يستدعى مضامين جديدة كان فيها شديد السمو والقوة والفعالية بعد أن وجد في فؤاد حداد ـ كما قال ـ شعرية جديدة من الممكن أن تحتويها العامية، وتحتوي بها، وتشبه زمانها وتعبر عنه.

أما «رابعهم» فهو ابن الاثنين الكتابة بالصور الحدادية وبالشكل والمضامين والحساسية الخاصة الجاهينية وهو ابن لمحاولات كما قال اسمعها له سيد خميس بعد زيارة الواحات والمعتقلين في متاهاتها، قام بها «من شعراء اليسار الذين غيبتهم المعتقلات كسمير عبد الباقي ومحسن الخياط».

هكذا ينعدل المقلوب، وتتم المصادرة و«السك» على المطلوب ويبين المحجوب بعد أن ظهرت خبايا المكتوب.. ولكن «على طريقة الأستاذ سيد حجاب في مقاله» يبقى أمران نريد أن نذكر بهما الأستاذ سيد.

أولهما: إن لصلاح جاهين قصيدة في ديوانه الأول «أطلع عليها ابن السابعة عشر» أسمها «بحري» فيها الصياد والجنية التي جاءنا بها سيد حجاب في ديوانه، جاءنا بها عنوانًا لديوانه الأول، وفيها كثير من الاختلاف وكثير من المشابهة بما يثبت الريادة في الشكل لصلاح جاهين، وفي المضامين التي يستدعيها «جديدة» الشكل الجديد.

الأمر الثاني: أرجو أن يعيد سيد حجاب قراءة مقالات العدد الاحتفالي بفؤاد حداد من أخبار الأدب «وليس لي شيء فيها» ليعرف أن من اسهاهم «دراويش فؤاد حداد» ليسوا كما قال عنهم «من التنابلة العميان» إذ أبصروا بجهد وفير ما أراد أن «يحجبه».

ومرة أخيرة «قلبي معك يا عم سيد.. والله العظيم».

أما عقلي فمع جمال الغيطاني وصحبه وكتاب عنده الجميل الذين أقروا جميعًا بالريادة لفؤاد حداد حين أسموا العدد وأسموه «شاعر الشعراء» وبقى العدد منورًا بصاحبه لم يؤثر فيه كرسي في الكلوب.

كل شيء ماشي بالمقلوب

الهدوم اللي لابسه الجتت

التذاكر طالعة الأوتوبيس

يصرفوا لها بني آدمين..

ف.ح

الموجي قال..

أنتم لا تعرفين «نبيه الصادق محمد» أو لنقل «الأستاذ نبيه»، وليس كل الذنب في هذا الأمر ذنبه معظم الذنب ذنب الزمان الذي نامت فيه «القوالب» وأختفت وأقام «الانصاص» واحتفى بها وبه احتفت «رحم الله الأستاذ فؤاد كان هذا السجع سيعجبه».

أو كان الزمان منصفًا لعرفتهم «الأستاذ نبيه»، ذلك أن نبيه الصادق محمد يمتلك صوتًا غاية في الجمال والعذوبة والرقة والاتساع صوتًا إلى جانب قدرته على أداء أصعب النغمات الشرقية، كان يرشحه ليتبوأ مكانة رفيعة في ساحة الغناء التي صارت بفعل فاعل «جبالاية المغنين»، وحبست الأصوات الجميلة حولها ـ في أقفاص سواء منها ما تعرفونه منها، وما لم تعرفوها كصوت نبيه.

كان في الأستاذ نبيه ـ وليس في صوته ـ عيب واحد، كان مصرًا على أن يكون خليفة لعبد الحليم حافظ بينما صوته القوي الرحيب يؤهله لأداء أنواع أخرى ـ جميلة أيضًا ـ من الغناء.

ولقد كان الأستاذ نبيه في حياة فؤاد حداد مدرسًا للتربية الفنية «لعله أصبح ناظرًا الآن أو موجهًا.. لا أعرف»، وكان قد درس لأمين فؤاد حداد (وهو ـ بالطبع ـ صاحب التسمية الثانية «الأستاذ نبيه») بعضًا من سنوات تعليمه، وهكذا تعرف على الأستاذ فؤاد «وعرفناه نحن»، وأعجب الأستاذ فؤاد بصوته أيما إعجاب «وأعجبنا نحن»، وأراد أن يساعده على الظهور بكل السبل، وكان يريد دومًا في ألم:

ـ ح أعمل له إيه، وأنا قليل الحيلة!!

وقد حاولنا نحن «الشاعر عمر نجم ـ رحمه الله ـ وجمال بخيت وأنا» أن نساعد في إصدار شريط كاسيت لنبيه، وتبرع له فؤاد حداد بأغنيته الجميلة «ولا غنى ولا صيت» في إشارة ذكية منه لما يصلح صوت عبد الحليم.. عفوًا أقصد صوت الأستاذ نبيه له، وأشرف بنفسه على اختيار الأغاني من أشعارنا، وقدم د. عمرو دوارة معاونة صادقة في الأمر بتكوين جماعة «مجانين الموسيقى» تابعة لجمعية «هواة المسرح»، و«كان يرأسها» للمساعدة في إنتاج الشريط وأوجد أنا منتجًا قام ببعض الخطوات في تنفيذ الحلم، ثم اتضح لنا أنه «موش قد الحكاية» فتوقف المشروع بعد الجهد الجهيد.

المهم الآن، وقد طال تقديم الموضوع، والذنب مرة أخرى «ذنب الزمان الذي لم يعرفكم بنبيه، وجعل أمر التعريف به منوطًا بي في هذه الحكايات، أن الأستاذ فؤاد لم ييأس وظل متحينًا لأية فرصة يستطيع فيها أن يخدم هذا الصوت، وصاحبه شديد الطيبة، نقي السريرة «من ذلك النوع من البشر الذي يحبه فؤاد حداد».

وبينما كانت محاولات إنتاج «الحضرة الذكية» تليفزيونيًا تتعثر للسنة الثانية، أو الثالثة بسبب مبالغة الشيخ سيد مكاوي في الثمن الذي يرتضيه لتلحينها، فقد صمم ـ وكنا في بداية الثمانينيات ـ على أن يتقاضى ـ كما قال «خمسة أساتك» (خمسة آلاف جنيه) عن كل حلقة ولم يتنازل في الوقت الذي كان يصر فيه فؤاد حداد ـ الذي كان يعاني معاناة مادية شديدة ـ على القيمة الفنية لألحان الشيخ سيد مكاوي في ثنايا عمله العظيم.

بعد لأي أقنع البعض ـ وكانت منهم ـ بأن الأستاذ الموجي «رحمه الله» سيكون إضافة مهمة هو الآخر بموسيقاه الشرقية الأصيلة «المختلفة»، ويحسه الصوفي في الألحان لـ«الحضرة الذكية»، ووافق الأستاذ فؤاد، وبينما كنا نستعد ونتصل بالأستاذ الموجي تحت إشراف «جميل المغازي» الذي أزمع إخراجه، قال فؤاد حداد:

ـ وناخد معانا «نبيه للموجي عشان يسمع حسه.

وهكذا ذهبنا إلى الأستاذ الموجي ـ فؤاد حداد ونبيه وأنا ـ إذ كان الأستاذ الموجي قد لحن لي أغاني مسلسل «الزير سالم»، وأبدى متفضلاً إعجابًا بالكلمات جعل لي مكانة عنده أعتز بها، ذهبنا، وفي جسة جميلة أسعدت فؤاد حداد وأسعدتني بآراء الموجي العميقة في الشعر، لم ينس فؤاد حداد أن ينتشل نفسه وينتشلني من السعادة المتدفقة، ويميل عليّ هامسًا.

ـ كلمه عن نبيه.

وما أن بدأت أتكلم مع الأستاذ الموجي عن جمال صوت نبيه حتى فوجئت بالأستاذ فؤاد يقول مقاطعًا مقدماتي بجدية حازمة «كان يلجأ إليها لمدارة خجله»:

ـ أنا مصمم إنه يغني في «الحضرة».

وابتسم الموجي وقال:

ـ طب نسمعه الأول.

صحنا ـ الأستاذ فؤاد وأنا ـ معًا:

ـ غني يا نبيه.

وفي لحظة كان صوت نبيه ينطلق جميلاً قادرًا مناسبًا بأغنية عبد الحليم حافظ ـ طبعًا: «صافيني مرة.. وجافيني مرة»، بعدها قال الموجي الذي استمع إليه بتركيز شديد:

ـ صوته كويس.. بس موش لازم يغني لعبد الحليم.

وصحنا:

ـ يغني في الحضرة..

وقال الموجي لترقص قلوبنا على إيقاع كلماته:

ـ طبعًا يغني في الحضرة.

نزلنا عند الأستاذ الموجي، ونحن سعداء للغاية، إذ أعجب الموجي بصوت نبيه، ووجهه كخبير لما يصلح له وما يصلح فيه.. وعلى السمل صحت مترنمًا بلحن «موالدي».

«الموجي قال حسة كويس/ نبيه وصوته جميل محلاه/ بكره يغني في الحضرة/ مدد.. مدد.. يا رسول الله..».

وتوقفنا على السلم، وقد «أخذت» الجلالة فؤاد حداد «الذي واجه الموجي منذ دقائق بجدية حازمة وشديدة»، فراح يغني معي مصفقين «بشويش» وماتمايلين برأسينا، وقطع فؤاد حداد الغناء وقال لنبيه الواقف بيننا سعيدًا، وإن كان لا يشاركنا الغناء لأن الأغنية فيما يبدو لا تصلح لعبد الحليم حافظ:

ـ بصراحة يا نبية.. طلعت نبيه قوي..

وتساءل «نبيه» في طيبة حائرة:

ـ في إيه يا أستاذ فؤاد؟!

ـ عشان غنيت له «صافيني مرة».

وجدت نبيه مرتبكًا بيننا، فقلت:

ـ عشان اخترت أغنية من أجمل الحانه.

وفوجئنا بنبيه يتساءل في براءة:

ـ هي «صافيني مرة..» من ألحان الموجي؟

لحظتها تعالت قهقهاتنا، ولكي لا تصل للأستاذ الموجي «فوق» رحنا نهرول على السلم نازلين مرتجين بالقهقهات ونبيه يؤججها ويكاد يوقف قلبينا بسؤال نبيه:

ـ فيه إيه يا أستاذ فؤاد؟! فيه إيه يا جماعة..

في الشارع، ونحن نركب عربة «الأستاذ نبيه» راح فؤاد حداد يحاول إيقاف ضحكاته، ليسأل نبيه:

ـ أنت أخترت الأغنية وأنت موش عارف إنها للموجي؟!

وعندما رد «نبيه» مؤكدًا:

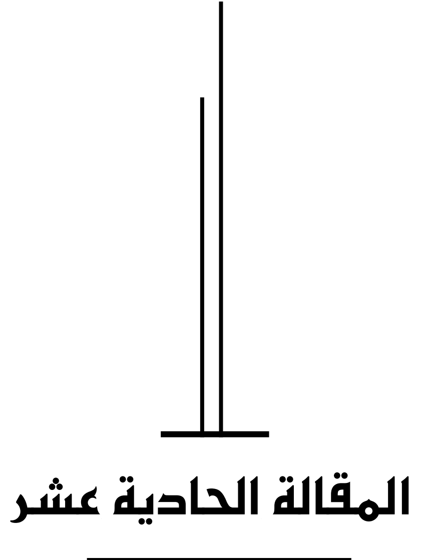
ـ أيوه..

وكنا قد استوينا في العربة قاعدين رحنا ـ الأستاذ وأنا ـ نغني ضاحكين دون اتفاق:

«الموجي قال حسه كويس/ نبيه قوي.. قوي.. يا محلاه../ بكره يغني في الحضرة/ مدد.. مدد.. يا رسول الله»

وبسرع أمسكنا أنفسنا حتى لا يغضب نبيه.





المقالة الحادية عشر

الشاعر السوفييتي الذي زار مصر في الستينيات وهلل له المثقفون وغضب منه فؤاد حداد

شوف العجيبة.. نقيم الدار

- ونسقي مية.. ونوقد نار
- وإن كنا ليل.. أولادنا نهار
- بكره تنور ملامحنا
- على قلبها لطالون إحنا

«ف.ح»

- قال لي: يوفيتشنكو لا شاعر ولا حجا.. وأظن أنه غير مخلص للشيوعية
- بعد 20 عامًا من الزيارة كتب عم فؤاد ينتقدها ويطالب بعدد خاص من «الهلال» لبيرم التونسي مثل عدد يوفيتشنكو.
- لماذا أعلن فؤاد حداد كراهيته للتعبير الشائع «نموت وتحيا مصر»

يارب علمني العطش والجوع

وأجعل لعيني دموع..

وأجعل لقلبي ضلوع

وأجعلني صوت الشهيد..

في النبض والتنهيد

ف.ح

وعيون كما الحنفية...

كنت أريد أن أكتفي بما كتبته عن فن الحكي عند فؤاد حداد «الذي فيه ضحك كالبكاء» بالرغم من أهمية تلك التقنيات الفنية التي فتحت أمام فؤاد حداد عالمًا تتمدد آفاقه وتمتد ولا ترى له حدودًا، كان قادرًا - وقد أتى بالكثير - على الإتيان بالأكثر، والأجمل، أشكال وأشكال، دواوين ودواوين. كل منها ابنة لفن الحكي. وفي الشعر كما في الطبيعة لا تتطابق ملامح الأخوات، وينبع الجمال من قدرة ملامحهن على تشكيل الجديد.

كنت أريد أن أكتفي لولا أنني لاحظت في الحكاية، التي سأوردها، أمرًا عجيبًا جاء على لسان وبين النمرددين والمغنين والمؤدين في عروض شبه مسرحية، الحكاية مشهورة بل هي الأشهر بين حكايات فؤاد حداد منذ نشر ديوان «الأراجوز»، واسمها «والد الأراجوز»، مكونة من تسع فقرات، كل فقرة ممشوقة بطريقة تقترب من تفعيلات الموال «موسيقاه»، وكل فقرة تنتهي بقافية روى واحدة في التسع، تجلل هامة قافيتين داخليتين على الأقل، الحكاية بدعة وبديعة في السبل وفي المضمون، تقص على لسان الأراجوز (وهي خصيصة التشكيل الدرامي الذي يعتمد التجسيد بديلاً للسرد، شيء أشبه بفن المنولوج المسرحي) حكاية والده مع ملك «**أعظم من العمدة**»!!، أراد أن يعيّنه «**مضحك ولي العهدة**»، (ولي العهدة تحايل عامي جميل على مصطلح «ولي العهد»يعطيه معناه الحقيقي الكامن في توريث أقدار الشعوب دون حقوقهم، وهي من عطايا «القافية» التي تهبها لمن يتعبها، ولا يتعب وراءها) طلب الملك من والد الأراجوز أن يضحك ابنه، فإذا نجح «يعلي مراتبه» وإذا فشل «يقطع رقبته»، ويقول النص على لسان ابن الأراجوز في الفقرة السابعة (الفقرات تسع).

«والدي.. الله يمسيه بالخير ما كانش ناقصه، طلع سلاح أبيضاني، وقطع رقبته بنفسه راح الولد في البكاء وأنا والدي مات مبسوط».

الغريب الذي دفعنا للكلام عن هذه الحكاية أن التصعيد الذي تصنعه الجملة «**والدي.. الله يمسيه بالخير..**» والتي تعني أن الوالد مازال حيًا، والذي تركب عليه في مفاجأة مذهلة «**قطع رقبته بنفسه**» والتي تجر نتيجة لها.. حزن ولي العهدة إلى درجة البكاء، وموت الأب مبسوطًا، من شأنه ـ هذا التصعيد ـ أن يجعل الجمهور يصفق متصايحًا (**لا غرابة في ذلك**) **مما** دعا بعض «المعدين» و«المواديين» يكتفون بهذه الفقرة كنهاية يرونها عبقرية وجماهيرية (هذه هي الغرابة)، وإلغاء الفقرتين التاليتين، غير عارفين أن هذه النهاية لم تكن لتسر فؤاد حداد (وإلا كان قد توقف عندها) أو لترضيه بجلبها التصفيق والهتاف فيرى بها نهاية لعمله «الفذ»**!**

الفقرتان اللتان يختصرهما مقدمو العمل يقول فيها «أين الأراجوز»:

«أنا والدي مات مبسوط لأنه عكس أمر الملك أيام ما كان الملك ملك، ومصر ـ وف الأمل مضغوط».

«ومن ساعتها وأنا عندي جيوب أنفية، وعين كما الحنفية، والدمع مني وفيَّ بحر ماله شطوط»

لقد كان فؤاد حداد يعشق الاستشهاد (خلي بالك)، ويرى أن الشهداء أجمل المصريين والعرب، وأن لهم من الأسماء أحلاها، وأن الشعوب هي «**قوة الشهداء على العدوان**» لكنه وهو يحب الاستشهاد «غرامًا» (وقد اختاره مصيرًا شعريًا ومصيرًا بالشعر) كان يكره التعبير القائل «نموت وتحيا مصر».

كان يقول ونظرة ألم في عينيه وملامح امتعاض في ملامحه.

ـ نموت وتحيا مصر لمين؟

وكان يردف إذا ما أحس أن من أمامه لا يفهمه حق الفهم:

ـ الصح إننا نموت لتحيا مصر لنا.. هي مصر إيه من غير شعبها.. والموت يكون أيه لو ما كانش عشان تفضل لناسها؟!.

وكنت أردد أمامه بيته الشعري الجميل:

ـ **أنا عايز ابني يعيش والظلم ما يعيشي..**

وكان صوته الهادئ يحمل صراخًا شديدًا في نبرته الأليفة ويقول:

ـ أيوه الظلم ما يعيشي.. والعدو ما يعيشي.. واحنا نعيش. نعيش ونفتكر الشهداء، عشان ما ننساش الظلم، ما ننساش العدوان.. ما ننساش للعدو إنه اضطر أجملنا إلى الاستشهاد لمقاومة ظلمه، وعدوانيته، ورغبته في استغلال الآخرين.

وكنت أقول جادًا:

ـ عشان كده ابن الأراجوز «عنده جيوب أنفية.. وعينيه كما الحنفية.. ودمعه بحر ما له شطوط».

وكان يقول:

ـ لازم يبكي.. ولازم أحنا نبكيه، والا حيتوه مننا معنى «الظلم»، ويفلت من عينينا الوجه القبيح للعدوان.

وكان يسرح كثيرًا، وأحس أنه يرى ما لا نراه ويقول متحسرًا:

ـ ما حدش ممكن يصدق إن الشهداء ما بيغيبوش عن عيني.

وكان ألمه يمضنى.. فأقول له محاولاً التخفيف من لواعجه:

ـ أنا موش مصدق...

وقبل أن يرد كنت الحق واردد شعره:

ـ وافتكر وانسى واداري/ وأنت تايه في العصاري/ يا شهيد تحت الكباري/ مُت من فرط الحنان..

وكان يلتقط بذكائه الحاد كسكين لا يبرح جديدًا.. أريد أن أقول:

ـ يمكن يوم ما كتبتها (في عام 1969م) كنت با أنسى وافتكر وأداري!!.

الآن أفهم ما كنت أحسه، ولا أريد أن استوعبه في تلك السنوات التي قضيتها معه، كان فؤاد حداد يرى استشهاده، ويصدقه.. بنفس الوضوح الذي كنا نراه نحن ولا نحاول أن نصدقه، وكان يريد لنا أن نفرح باستشهاده، وأن نبكيه في نفس الآن.. أن نبكي استشهاده حتى لا يتوه عنا معنى الظلم.. حتى لا يفلت من عيننا الوجه القبيح لعدوان الفاسدين على الشرفاء، ليمهدوا بلحومهم ونزيفهم طريقهم التي يسلكونها وقد غيبوهم.

اليوم وأنا أبكي فؤاد حداد «الشهيد» أتساءل لماذا كتب على الشرفاء أن يموتوا في سبيل الوطن، لماذا لا يعيش الوطن في سبيلهم ؟!، وحتى متى نقبل ذلك؟!، ونغني والدماء تغلي في عروقنا..

«**عمري ما أصبحت ناسي/ المظالم والماسي/ تفزعي وتنادي ابني/ ما تلاقيش في إيديكي رأسي/ لولا دمعك بيعاتبني/ ما أفتكرش قلبي قاسي/ بس كان الليل كاتيني/ في النجوم اللي بتعلا/ مش راجع لك يا آما إلا/ مبتسم أبيض شهيد**».

ولا كل مين رصّ الكلام رصّاص

ولا كل مين طلع القمر غوّاص

ف.ح

يوفيتشنكو في دار الهلال

فاجأنا فؤاد حداد في افتتاحية ديوان التسالي (**لا وأنت الصادق، ديوان التسالي بالمزاج والقهر**)، هذا الديوان الذي كتب قصائدة الثلاث والأربعين، واحدة بعد الآخرى، بنفس الترتيب الذي ظهرت به في الديوان، وكان الديوان كان جاهزًا داخله، ولم يكن عليه إلا أن يخرجه على الورق، في أقل من شهرين!!، ثلاث وأربعون قصيدة ليست بينها قصيدة قصيرة في شهرين!! (ألم نقل إن فؤاد حداد كان يملؤه شعور بأنه يجري أمام موته، حالفًا أن يأخذ حقه شعرًا من الموت، شعرًا من قاتليه شعرًا هو عين استشهاده، و هو صك خلوده الأبدي)، فاجأنا فؤاد حداد في المقدمة الشعرية (وأسمها في الفهرس «**شرح التسالي**» ، لكن في أول القصيدة اسمها «**شرع التسالي**»، وأحدهما خطأ مطبعي يجب الانتباه إليه عند نشر الأعمال الكاملة) بالكلام عن شاعر أعجوبة:

«مين اللي طل يزور وطل يزور

مصرف سنة ستين وكسر كسور؟

شاعر صغير قد إيه مثلاً؟

اليشكري؟! .. بالطبع موش قده

بس الهوى مطبطب على خده

أدباتي قشّ بأربعة سباتي

مروان أبو حفصة الكلوباتي

الفهلوة بتمثل الإخلاص

والفتونة الأمر بالمعروف

يا قمر في باب الخلق فوق الراس

فيه إبره رايحة وجاية زي حروف

المطبعة بتسجل الأشخاص

وتحطهم في العين بطئ يا هوى

زي الوجيعة والخديعة سوا

والشاعر به في عشرة مضروبة

لحساب أوروبا من ولد فنحاص

تسالي».

أثناء إلقاء فؤاد حداد القصيدة التي بدأها بالإجابة عن السؤال الشهير لماذا لا يأخذ الشرفاء حقهم ويقش كل العوبان حتى ولو كانت الورقة في يده «أربعة سباتي»، أي أن موهبته لا تستطيع أن تقش، وأنه ـ فؤاد حداد ـ قد تعلم من أبيه، أن من المستحيل أن تكون مفتريًا ومجذوبًا في نفس الآن.. فصار مجذوبًا.. بينما البهلوانات، الذين كانوا يصيدون لؤلؤًا وياميشًا من مواله، من حوله يقشون بأربعة سباتي (اشمعنى «سباتي» هل هي فيما دون الوعي تشير إلى النوم، والنوم في اللغة العربية «سبات»؟!).

«قالوا لي طير من قلب والدك طار

ما علمكش يا ولد تختار

يا إما تظلم حد يا نفسك

في الدنيا ما ينفعش الاستهتار

من قبل قبل الصارم البتار

الشفتشي نازل على أيوب

مش كل أوهام اللي ماتوا عيوب

كان قلب والدي وقلبي ما له جدار

الميه دايبه يا مناويشي

مش لسه رايحة تدوب

ما اقدرش أبقى مفترى ومجذوب

تسالي».

عندما وصل فؤاد حداد - في قراءته المتوجعة - إلى الشاعر الذي زار مصر- في سنة «حاجة وستين» صحت داخلي متعجبًا من أنني مازلت (في وقتهاعام 1981م) أذكر الاسم:

- يوفيتشنكو!!

«شاعر صغير كان يا عبد المعين

سوفيتي لابس عروة م الواسعين

وبطانة يزقل فيها ويتاوى

مكسرات الرأسمالية».

كان عقلي يعمل أو قل ذاكرتي تقذف ببعض ما فيها على السطح أثناء قراءة فؤاد حداد للقصيدة (ومرة أخرى بصوت يتوجع)، وكانت ذاكرتي تقول لي إن في الستينيات استضافت دار الهلال شاعرًا سوفيتيًا.. هللت له في عدد خاص كنت صغيرًا وقتها التهم كل ما هو شعر التهامًا، لكن شيئًا وقف بين ذائقتي وشعر يوفيتشنكو هذا.. ومقالات «العدد الخاص» من الهلال التي تشيد بعبقرية هذا الشاعر، وقد أكمل هو نفسه - يوفيتشنكو - سكة عدم التعاطف أو لنقل النفور حين وصف أداءه للشعر بأنه يشبه السيطرة على امرأة والمرأة هنا هي الجمهور!! وقال إن على الشاعر أن يشعر جمهوره في البدء بالاختناق.. يخنقه.. ثم حين يستسلم له الجسد يستطيع شعره أم يفعل فيه ما يشاء.. كنت متعجبًا - وقتها في الستينيات - لماذا كل هذا الاحتفاء بهذا الشاعر.

«يا قمر في باب الخلق بتاوى/ بيفرجوه ع السر والبلاص/ ويدوقوه المنجة من انشاص/ ويقف على صباعه ورجله لفوق/ ويعملوله من «الهلال» عد خاص/ شاعر صغير زي ديك الجن/ من ناحية نجمه بديل/ من ناحية متر دوتيل/ بيعملوله من الهلال عد خاص/ السيرك غاوي البوس والاسترخاص».

اندهشت ـ وأنا أسمع ـ لأمرين، أولهما سؤال ما الذي فكر فؤاد حداد بهذا الشاعر؟ أما الثاني فهو إحساس في الستينيات الذي خجلت من إعلانه حتى لا أتهم بالجهل، وها هو فؤاد حداد يكاد يعيده حيًا بعدما يقرب من العشرين السنة؟! وتنبهت حواسي كلها.

«أنا لما قلت اليشكر فزت/ جبال عمود الشعر واهتزت/ شديت ربابة.. رفعت سبابه/ أقيم ميزان الشعر بالقسطاط/ وأمر حجة بشبابه حبابه/ ولا كل مين رص الكلام رصاص/ ولا كل مين طلع القمر غواص/ ولا كل كومي بيلعب البصرة/ ولا كل مين ما كتبش ع «البفرة»/ وظهر في سقف الدنيا من برة/ بيعملوا له من الهلال عد خاص».

آه.. ها هو فؤاد حداد يوضح الأمر «ولا كل مين ما كتبش ع البفرة»، والكتابة على البفرة كان يلجأ لها المعتقلون ليسجلوا أعمالهم على دفتر البفرة، فهو صغير الحجم إذا كتب على أوراقه بخط صغير سهلت تخبئته في حفر يعدونها في ارض الزنزانة، وتيسر تهريبه إلى خارج المعتقل (وقد كتبت أعمالاً كبيرة علمية وأدبية بهذه الطريقة ظهرت وكان لها صدى بعد خروج المعتقلين)، فؤاد حداد كتب على البقرة وفي دفترها حين دفع الثمن لكن من لم يدفعوا ثمنًا كيوفيتشنكو الذي كانت تدلله السلطة السوفيتية آنذاك، هم الذين قشوا بالأربعة السباتي!! وها هو فؤاد حداد يعد ما يقرب من عقدين، وحين حكموا من حوله دائرة التجاهل النقدي يتساءل:

«فين بيرم التونسي- اللي علمنا/ نلف ونقلوظ عمايمنا/ ونمضي- من قبل النهاية خلاص/ح يعملوا لي يا حبايبنا/ لو يعملوا له من «الهلال» عد خاص/ تسالي»

الهذا تذكر فؤاد حداد هذا الشاعر السوفيتي يوفيتشنكو تذكره لأنه أحس (إحساسًا له الكثير مما يسوغه) إنه يستحق عددًا خاصًا (يسميه عد خاص مثلما ينطقه عمال المطابع في منشآت الصحافة الكبرى) لكن كيف له بهذا العدد، وبيرم التونسي نفسه لم يعمل له أكثر من ملف في الهلال.. لا بد أن هذا كان السبب (فلم يتعود فؤاد حداد أن يشرح قصائده كان يراها لا تحتاج منه إلى أي شرح) فقبل النهاية كتب عن نفسه.

«يا اسمر يا روحي يا امتداد النيل/ الثانية مشيت قد الفين ميل/ على قافية متقدر لها تحميل/ الفين سنة ويفضل كلامي جميل»

بعد أن أنتهى والد الشعراء (هذه هي القصيدة التي وصف فيها فؤاد حداد نفسه بحق بأنه والد الشعراء) من قراءة القصيدة، وكانت ملامحه تشي بأحاسيس تمزقه بسكين تلم قلت له:

ـ ده يوفيتشنكو..

ـ أيوه.

وحكى فؤاد حداد أنهم في «الهلال» جمعوا الشعراء المصريين وهو فيهم لندوة مع «يوفيتشنكو»:

ـ أول ما قال شعر أنا كشفته..

ـ كشفته إزاي يا أستاذ فؤاد؟

ـ شاعر ضعيف كانت القصيدة عن مناضل أفريقي (لعله لومومبا إذا لم تكن الذاكرة قد خانتني) وقال هوه.. وشك أسود لكن قلبك أبيض.. عرفت على طول إنه شاعر ولا حاجة، إيه اللي وشك أسود.. وإيه اللي قلبك أبيض وأنت بتتكلم عن مناضل واقف للاستعمار.

وقلت لفؤاد حداد:

ـ دي أوصاف تيجي على بال أي حد.. وكانت نكتة المصريين بيقولوها عن «...».

واندهش فؤاد حداد وأنا أحكي له النكتة اليت رددها المصريون عن زعيم أفريقي آخر.. وكانت تقول «إن جمال عبد الناصر قال لـ«...» تعرف أنا بأحبك ليه.. وسأله «...» ليه؟ قال عبد الناصر لأنك تشبه علم التحرير (وهو العلم الذي وضعت فيه النجمتان أيام الوحدة، وصقر قريش أيام السادات)، فسأله الزعيم الأفريقي إزاي؟ قال جمال عبد الناصر لونك أسود وقلبك أبيض و«....» حمرا..

ولم يضحك فؤاد حداد.. وقال:

ـ يوفيتشنكو ده قعد ينصحنا نكتب إزاي، وأنا ما استحملتش.. رديت عليه بإنجليزي موش قد كده.

(فؤاد حداد كان يتقن الفرنسية أكثر، ولم تكن إنجليزيته موش قد كده)، وقلت له:

ـ إنت ما تقولناش نكتب إيه.. أو نكتب إزاي.. إحنا شعراء وعندنا تراث آلاف السنين يعلمنا.

وسألت فؤاد حداد:

ـ كل ده عشان ما حبيتش شعره يا أستاذ فؤاد؟

ـ موش بس ما حبيتش شعره، ما استريحتلوش..وطبعًا ما كنش عاجبني الهيصة اللي هما عاملينها له.. ده بالإضافة إلى الأهم.. هوه سوفيتي.. وعضو الحزب الشيوعي.. بس كلامه وتصرفاته موش كلام وتصرفات واحد مخلص للشيوعية.

لماذا حكيت هذه الحكاية.. واقضت فيها؟ هل سيفاجأ القارئ إذا قلت له: إن الإجابة تكمن كلها في أن ما قاله فؤاد حداد قد تأكد بحذافيره بعد سنوات من موته، وتأكد لي صدق إحساسة وبعد نظره.

فمجرد أن بدأ إنهيار الاتحاد السوفيتي على يد جورباتشوف والجناح اليميني المتستر بالمظهرية والصوت العالي والهجوم على الخصوم والشرفاء وظهور نجم «شيفرنادزة» الذي كان وزيرًا لخارجية الاتحاد السوفيتي وأصبح في لحظة إمامًا للانفصاليين (خلع منذ أيام) بمجرد هذا.. علا نجم آخر على جواره نجم يوفيتشنكو ليصبح صوت الانفصال كأسياده الخونة وليس كالمخدوعين.

علا نجم يوفيتشنكو وهو يغازل الرأسمالية، وراح يشارك في بذر البذور «الحرام» في نفوس المحرومين ويعدهم بالحلم الأمريكي الذي زاد من إفقارهم، ويعثر بنات الاتحاد السوفيتي في أربعة أرجاء المعمورة، وأنتم تعرفون ما حدث لهن من أجل حفنة دولارات.

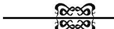
ساعتها ترجمت على الاثنين الاتحاد السوفيتي، وفؤاد حداد.. البصيرة الفذة اذى لم ينخدع في نجم يذبل أراد أن يبدو جميلاً، وراه على حقيقته من الناحية الأخرى متردوتيل.

رحم الله فؤاد حداد.. لم يكن الأمر «تسالي» كان «وأنت الصادق.. ديوان التسالي بالمزاج والقهر» واقرأوا بقية الديوان للتأكدوا.

ولا غنى ولا صيت..

وكأني بسيط..

ف.ح



وجاء فؤاد الأبيض..

من أجمل اللقاءات التي حضرتها في بيت فؤاد حداد لقاء جمع بينه وبين فؤاد الأبيض.

وفؤاد الأبيض ـ ربنا يمسيه بالخير، ويغدق عليه صحة وعمرًا أبيض فعلاً لم تستطع الشمس ـ التي فعلت في وجهي الأفاعيل ـ أن تؤثر في بياض بشرته ـ بسم الله ما شاء الله ـ إلا بأن تهب بياضه بعض الأحمرار (والذي قد يكون أصيلاً، وأنا موش عارف)، ثم هو ضخم الجثة رهيف الفؤاد كطفل مدلل لم ينزل إلى الشارع بعد، ابن بلد، وابن نكتة (دمه أخف من جيبي)، ما أن يقتعد كرسيًا في وضع بين أي وضع لا تستطيع أن تؤكد معه انتصاب نصفه العلوي، ولا تقدر أيضًا أن تحلف لي وأصدقك بأنه راقد حتى يفجر المرح والمضحكات كثريات مضيئة أو كصواريخ الاحتفالات الملونة في سماء المكان.

ولعل ما يهم القارئ أكثر من فؤاد الأبيض كونه ملحنًا عبقريًا يصلح فيه قول علي محمود طه معدلاً تعديلاً طفيفًا «ذهبي اشعر شرقي السمات مرح الأعطاف حلو النغمات ففي الحانه جمال حسن لا يجعلها تنزلق من الأذن يلصقها بها فتصاعد وتعسس في اليافوخ (الذي هو النافوخ في العامية)، ثم تسكن اللسان إذ لا تستطيع أن تمنع نفسك من ترديدها رائحًا جانبًا (وجانبًا صحيحة وإن أصرت الفصحى على قولها غاديًا)، وبقدر ما هو عملاق في الأغناي الطربية إلا أن عبقريته تتضاعف مرات ومرات في الأغاني الدرامية.

ولما كان فؤاد حداد ـ كما يؤكد الشاعر محمد كشيك هو ملك الدراما الشعري «ويخلط بعض النقاد بينها وبين الدراما كفعل مسرحي وهي بالطبع شيء آخر» تتقافز واضحة جلية في أشعاره وأزجاله وأغانيه. فقد نجح فؤاد الأبيض نجاحًا مدويًا حين اتصلت موسيقاه بأشعار فؤاد حداد (على الرغم من أن الإذاعة والتليفزيون ورسومه المتحكرة لا يكررون إذاعتها ولا يتجهون إلى إنتاجها في شكل جديد، وليتهما يفعلان إنصافًا لعبقرية الرجلين).

وإذا كان بيرم التونسي العظيم ملكًا ـ باعتراف فؤاد حداد ـ في الدراما السردية، فإن تتويج فؤاد حداد في دراما الشعر التشخيصية التجسيدية فالداما في أشعار فؤاد حداد لا تسرد. إنها تشخص.. وتقول كأنها «تفعل» مثلما الحال في الدراما المسرحية.

ولا يعني كلامنا أن فؤاد حداد لم يكن مسبوقًا في هذا المجال، كان مسبوقًا لا جدال في هذا لكن الدراما التشخيصية التجسيدية تفوق في أشعاره كمًا وكيفًا ـ وتفوقها توجه ملكًا عليها.

ولكي نجعل ما نقوله أكثر تحديدًا، ومن ثم أكثر وضوحًا وإيضاحًا، نقول إن هناك في أعمال بيرم فارقًا جليًا بين قصصه الزجلية فائقة الروعة، وبين قصيدته الزجلية عند بيرم تبدأ وتستمر بشكل سردي ـ هكذا على سبيل المثال في قصته «خليلي المنزولجي».

«خناقة دقت بين خليل ومراته/ كان السبب فيها البتوع بتوعاته/ أبصر ـ خروقه والأهم لباساته/ القصد جتهم نيلة هوّ وهيّ.

هنا يسرد بيرم التونسي (سردًا لم يبلغ شأوه أحد غيره)، فإذا ما جسد أدرج التجسيد (وهو قليل) داخل برواز السرد كان يقول: (في نفس القصيدة:

«قالت عديلة: تنضرب في كمينك/ هوه العشا نوبتين؟ حرام على دينك».

أما في خناقة في الفراش «المعضلة العبقرية البيرمية»، فإننا سنجدها تجسيدًا منذ الكلمة الأولى فالزوج يتكلم والزوجة ترد عليه والحوار الذي هو خناقة يتصاعد بعبقرية بيرم وعينه اللاقطة (التي تحير الأطباء النفسيين في العلاقة الحميمة بين الجيش والعدوان غير المؤثم) دون حاجة إلى السرد ليصل إلى نتيجة لم تكن تشى بها أوائله وينتهي بأن يعري الزوج الزوجة، وتدفعه هي دفعًا إليها وإن كان الكلام يسير في عكس الاتجاه، ويتوقف بيرم واضعًا نقاطًا بديلة عن الكلمات بعد أن شحذ خيالنا بتصاعد لا يتوقف مثلما توقفت الكلمات.

ولعل القارئ يذكر في الحديث الصحفي الوحيد الذي أجرى مع فؤاد حداد (ونشرناه كاملاً في الحلقة الثانية) قول فؤاد حداد في تذكيرنا بعظمة بيرم في موال العامل، بأنه لم يكن يستلف قضيته، وإنما كان يتكلم عن العامل «في تجسيد» قائلاً أنا...

وطبيعي ألا نتناسى قصائد «جاهينيهة» بنيت على التجسيد (كرائعتيه «المكن» و«دعاية انتخابية»)، أو نغفل قدرة الأبنودي على التجسيد في بديعته «وجوه على الشط» أو نتجاهل قدرة سمير عبد الباقي في إحداث دراما بالأصوات المتداخلة في أعماله الشعرية المكتوبة للمسرح.

مثلما قلنا إن فؤاد حداد كان مسبوقًا، نقول إنه كان له من يزامنونه ومن لحقوا بعده.

لا نستطيع أن نغمض العين عن كل ذلك.. وفي نفس الآن لا يمكن أن نقفز فوق قدرة فؤاد حداد «الفذة» على التجسيد دون سرد في معظم قصائده، الأمر الذي انبثقت منه الصور المتلاحقة في قصائدة الذاتية ومواويله مثلما جاءت لنا بأشكال جديدة عبر نوعية في ديوان أم بنات وفي طكليم الشيخة أم الأه«، وفي المكاحلة والمعاماة (والأشكال عبر النوعية سوف نعود لها في حلقات مقبلة).

لكننا بدأنا بالحديث عن فؤاد الأبيض فهل يا ترى نسيناه؟

لا.. لم ننسه وكل ما قلناه يخدم ما نريد أن نوضحه عنه، وهذا ما سنفعله الآن.. لفؤاد حداد عمل درامي تجسيدي (قدمته الإذاعة في بداية السبعينيات)، ونشره في ديوانه «كلمة مصر» هو «مصر بالمعايش والصنايعية»، وفيه أبد فؤاد حداد في الغناء بلسان أرباب المعايش والصنائع مجسدًا شخصياتهم مشخصًا لحظاتهم الفاعلة الموحية بأحلامهم وهمومهم في خمس وعشرين قصيدة لا تباري (لا ندري لماذا لا تعيد الإذاعة هذا البرنامج الجميل منذ زمن طال وباخ و...).

في هذا العمل تكلم فؤاد حداد بلسان المنشد، والمراكبي، وعامل البناء البولاقي، والعتال، والعرقسوسي، وصاحب محل العصافير، والصناع الفنانين في خان الخليلي، وعاش الجمال المسبح، وباعة «عروسة المولد»، والحدادين، والعربجي، والفطاطرية، والأرزقية، وبنت البلد، وخادم السبيل، والمنجد، والعطار، وصبي الورشة الصغير، والحكاء، والمراجيحي، وبائع الذرة المشوية، وجحا المصري الذي لا يخلو من مثله زمن من الأزمان، والتلاميذ، وبائع الفول والبليلة.

وكعادته أظهر فؤاد حداد عبقرية في افتتاح الأعمال الإذاعية بأقوال موحية مليحة (وليست ملحة) لا يملها السامع حين تذاع ثلاثين مرة (في كل حلقة) أو أكثر، وفي هذا العمل عن أرباب المعايش والصنايعية كانت المقدمة النثرية «دول ريحة الدنيا وأهل الزمان، يا أطيب الأهل كلمني عنهم...»، بعدها يسرع بتجسيد الشخصية التي كلمته مجسدًا إياها بكلامها، ويلزماتها الموحية.. في شكل هو غاية البراعة.. والدرامية (هل لاحظكت الجمال الطاغي في «ريحة الدنيا» تلك؟).

في هذا العمل قدم «فؤاد الأبيض» أجمل الألحان وأكثرها رونعة وبلغ في براعة التجسيد بالموسيقى مكانة عزيزة المنال خصوصًا في لحني «ولا غنى ولا صيت» و«اوعى ما توعاش» وفي اللحن الثاني «لحن العربجي» ستكون محظوظًا ـ مثلي ـ إذا ما استمتعت إليه بصوت فؤاد الأبيض نفسه، وهو يرددها بصوته الأجش الثري بالتعبير على غيقاع سير العربة الكارو وبتطجين العربجية الخاطف والمحدود وبالأخص في الجزء الذي يصف فيه حماره (والحمار هو أغلى ما يملك العربجي، ومن ثم حبيب قلبه وعشرة العمر).

«ولا بيرد على المتبلي/ ولا يزعل من حد/ ولا شلت له في القلب وسال لي/ ولا شديت ولا شد/ إلا مرة واحدة دخل لي/ قافية بضحك وجد/ قال شوف مين فينا اللي يجلي/ قلت له: أصلك جحش.. وقال لي/ أصلك صبي جحاش».

بعدها يصيح كأنما يوسع الطريق ـ أوعى ماتوعاش..

كان الغناء رائعًا ومعبرًا، ذكرني بغناء زكريا أحمد «يا صلاة الزين»، قلت له ذلك، وقلت إن خصوصية الأداء، والروعة التي تكسبها درامية الأغنية للصوت تستحق أن ينتبه لها النقاد وأن يكتب فيها أكثر من كتاب قال بدمه الخفيف ولماحيته:

ـ واذكر في الكتاب زكريا.

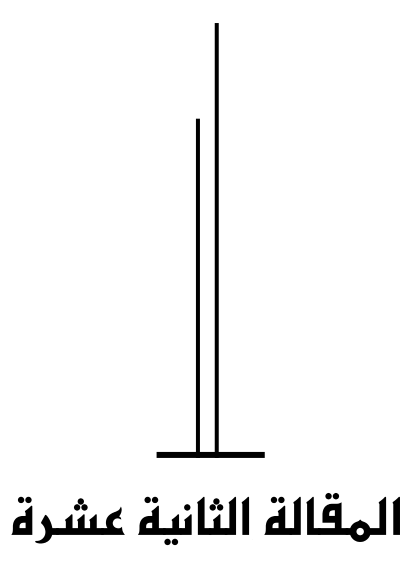
ليلة لا تنسى بعد أن غادرنا فيها فؤاد الأبيض، كانت ملامح فؤاد حداد تعبر عن سعادة كبيرة، وفجأة قال لي:

ـ فؤاد الأبيض ده عبقري..

وبينما أصدق على كلماته بهزة من رأسي وانفراجات سعيدة في ملامحي، قال:

ـ حد يبقى اسمه جميل كده.. فؤاد الأبيض.. ويختار لنفسه اسمًا فنيًا غيره.. إبراهيم رجب**!!**





المقالة الثانية عشرة

المدرسة والجامعة اللتان افتتحهما جمال عبد الناصر لفؤاد حداد!

يا أهل الغياب أنا ناي.. أنامل الطيبين..

لفيت الكباري با أسلّم..

على واحد «فؤاد» بيكلم..

أصحاب المحطة الجايّة

«ف.ح»

والشكر للي سجنوني

وبنيل وطمي وعجنوني

ف.ح

ولا شكر لمن سجنوه...

لم يكن فؤاد حداد كبير الإعجاب بديوانه الأول، وكان يتساءل بينه وبين أولاده، وربما بعض من خلصائه (فلم يكن يصرح بهذا الأمر لأسباب تتعلق باعتداده بنفسه و بشعره ، و بكون هذا الأمر يخص لنقاد ـ إن وجدوا ـ أكثر مما يهمه)، هل من يقرأ الديوان الأول من الممكن أن يتصور أن فؤاد حداد (أشعر الشعراء / والد الشعراء / شاعر الشعراء / مسحراتي الأمة) سيخرج من بين ثناياه، من بين سطوره، ودروية المستكشِفة.. ومحاولاته التي كانت تنشئ جديدًا؟ّ!!.. وكانت ملامح فؤاد حداد ـ و هو يلقي هذا التساؤل ـ تعلن دهشتها وحيرتها الكبيرتين .

وحيرة فؤاد حداد لابد ستنتقل إلى النقاد حين يدرسون شعره، دراسة يستحقها هذا الشعر، ويستأهلها الشاعر، ويحتاج إليها من يكتبون أشعاراً بالعامية، و بالفصحى أيضاً، ومن يحاولون الكتابة بهما، أو بصرسح القول دون مبالغة فيه ـ يحتاجها من يكتبون الشعر ومن يعالجون كتابته، لكن حيرة النقاد قد تتقلص حين يدققون في الأمر على ضوء حقيقتين.. الأولى: أن فؤاد حداد ابن الشريحة العليا للطبقة المتوسطة وابن التعليم الفرنسي (الذي أدهش مدرسيه بإتقانه للغة العربية الفصحى وأدابها وفنياتها، حين رأوه في أمتحان شفهي يتلو من الذاكرة الحافظة أشعار المتنبي) كان يحاول أن يخرج من ثلاث عباءات ليكتب للشعب بلغته وفنونه ، بعد أن أختار جانب كادحيه.

لقد كان فؤاد حداد يحاول أن يخرج من عباءة طبقته ، وهي تحترم التعليم الذي يؤسس للحفاظ على موقعها، أو يفتح السبيل إلى صعود اجتماعي، ترى أنها الأحق به، وبالتالي فهي تكاد تقدس مكانة المتعلم صورةً ومحتوى ولغةً. وفي الحالات الثلاث تكاد تقدس ابتعاده ـ من يتعلم من أبنائها ـ عن الطبقات الدنيا، فهي صاحبة رأي لا يسر فيها، وإن احسنت معاملتها، وأظهرت حنوا عليها، و تعاطفاً معها.

عباءة ثانية: كان يحاول أن يخرج منها محتفظًا بخيوط نسيجها، بمحتواها الفني، دون تبعاتها، هي عباءة ثقافته الفرنسية، التي تحاول ترسيخها أصوله الشامية، باختيار الأسرة «الفرير» مدرسة لتعليمه كما ينبغي.

عباءة ثالثه: كان يصعب عليه التخلص منها، وتحتاج منه جهدًا جهيدًا، هي عشقه للفصحى وآدابها وفنونها ، عشقاً يدعمه اتجاه عروبي توارثه من أجداده ، من مسيحي لبنان (قبل الترهات الغبية التي تحاول بعض التيارات الآن زرعها)، ونما داخله في نفسية معجبة منبهرة.

كان يتخلص من التأثير الانعزالي لعباءات ثلاثة، مندمجًا بكل ما فيه مع الكادحين، يستلهم مجازهم الثري، وفنونهم التي بقيت تتسرب إلى كيانه، فيضمها في حناياه معجبًا وسعيدًا(و يسميها الحلاوة).

الأمر الثاني: الذي يقال (أو يقلص من حيرة النقاد أمام ديوانه الأول)، هو محاولته لشق دروب جديدة تخرج من عباءة الزجل (الرائعة في نظره) لكي لا تكون كل شعره، بعد أن اتقنه حين اكتشف بيرم التونسي صغيرًا، وعشق كتاباته، وأراد جاهدًا ـ كما أكد لي سعد رحمي رفيقه في تلك المرحلة ـ أن يتقن الصنعة البيرمية (خروجاً من العباءات الثلاث)، وكان قد اتقنها بالفعل ،وفي الديوان الأول «أحرار وراء القضبان» ما يؤكد إتقانه لها، أنظر (وفي مخيلتك موالي العامل والفلاح لـ«بيرم»).

«الرأسمالي بيملك الآلة

أغلال على استغلال على بطالة

يجعل حياتك يافقير عال

ويموتك ..ويبيع لك الأكفان».

واقرأ قصيدته الزجلية في الديوان الأول أيضًا المسماة «نصيحة»، التي كتبها وقد نشر في الجرائد ـ آنذاك ـ أن الجنرال «مونتجومري» نصح المسئولين ، في مصر، أن يفتحوا معتقلات الطور لتلتهم الوطنيين، حتى يتيسر للاستعمار الإنجليزي أن يعقد حلفًا عسكريًا مع أحزاب الأقلية في مصر:

«بعد ما اتعشوا فراخ وديوك وحلوا

واسأل العيش إن كان ابن نفيسة بلة

مال رسول الحرب ع الباشا وقال له

أنت لازم تفتح الطور من جديد

أنت سامح.. أنت فاهم.. دي نصيحة

دي أوامر جاية من لندن صريحة

شيوعية في بلد مسلم فضيحة

وعددهم كل يوم عمّال يزيد

إحنا لو نعطيها للباشا فلان

يفتح «الطور» و«عيون موسى» كمان

والهاكستب ولكن من زمان

إحنا مالناش غيرك أنت يا سعيد

افتح الطور.. السجون لأ.. موش كفاية

الولد لازم تربية بالعصاية

والمفاوضة تدق فوضى للنهاية

والبلد تحكمها باليد الحديد».

هكذا كان قد اتقن الزجل البيرمي، لكن المدقق في قصائد الديوان سيلاحظ ـ ما ينكره البعض ـ محاولته للخروج من عباءته (البيرمية الجديدة).. من يدقق سيلاحظ في ظني ثلاث عشرة ملاحظة مهمة (سيضيف عليها النقاد والقراء ـ عند قراءة الديوان بعمق ـ المزيد) بدأها، ثم حسّنها بعدها بسنوات تحسينًا مذهلاً ، هذه الملاحظات هي :

1. إننا أمام شاعر يكتب بالصورة الشعرية، ويبتكر فيها أبتكارًا، والصورة الشعرية ـ كما هو معروف ـ قليلة في فن الزجل (وإن كان استعمالها يزيد، وتراه أكثر إتقانًا في الموال الشعبي) لاحظ معي هذه الصور في ديوان فؤادحداد الأول «**بردت نجوم السما متلفعة بغيمها**»، و«**قضبان ما ترحمش الضلوع**»، و « **قضبان على جبين النهار**»، و«**دمعي كإنه الطفل بينادي أبوه**»، «**حفرة مساخر.. جبال أسيا ما تردمها**»، «**ع البُرش مرمى والليالي بتمضي.، وتحذف الموت ع الحديد المصدي**»، «**عقارب الساعة في قلبي عقارب**»، «**في ليالي الزمهرير/ والرياح سابقة الأنين**»، «**خدها الياسمين صبح لون الدموع**»، «**دمعك الغالي المهان/ له على ضلوعي رنين**»، هذه الصور وغيرها كثير هل تنتمي إلى فن الزجل، الذي كان معروفاً قبل بزوغ نجم فؤاد حداد؟!.

2. إننا أمام شاعر يستخدم المفارقة الشعرية بمهارة (والمفارقة عين أعيان الشعر) اقرأ معي (من ديوانه الأول) «**مسجون أسير أربع حيطان/ في مكان تلمه العين في ثانية وتحدفه/ ضيق ولكن للهموم أوسع مكان/ تقضي النهار تستكشفه**».لا حظ التلاعب بالتفعيلات أيضًا شطر قصير (2 مستفعلن) وشطران أطول (3 مستفعلن)، ثم شطر قصير، واقرأ (**اللي ما حيلتوش مداس ح يدوس على رقبتك**).

3. إننا أمام شاعر يكن إعجابًا خاصًا بالموال، و يجيد كتابته، ويجيد أستخراج أنساق موسيقية جديدة منه، بل ويعرف كيف يجعل شطراته ثلاثًا مقفولة، أو يجعله يمتد إلى أكثر من ثلاثين شطرة ويصبح القصيدة كلها (هذا بالطبع فضلاً عن انساق الموال المعروفة)، والانساق الزجلية على بحره (الموال) أو بتفعيلاته.

4. إننا أمام موسيقار يجيد القوافي داخلية وخارجية (روي) يعرف متى تملها الأذن فيغيرها (وقد يعود إليها بعد التغيير) بحرفية وحرفنة، و يقوده إحساسه إلى ألفاظ ذات حروف تضيف موسقة إلى موسيقية البحر «**اللي ما حيلتوش مداس ح يدوس على رقبتك**»، هل لاحظت الموسقى التي تصنعها «الحاء» و«السين»؟، و في الديوان أيضاً ستجد تلاعبًا فنياً بالعمود الشعري، وستجد تحطيمًا تامًا له، في محاولة سبقت من أعتدنا على أعتبارهم أصحاب الريادة في القصيدة النثرية، محافظًا على نوع من الموسقة جديد (راجع قصيدة «لازم تحلم» في ص27 من الديوان، وستجد انساقًا موسيقية متنوعة مستخرجة من بحر الموال ، و مطعمة ببحور أخرى ، و هو أمر يتخطى شكل الشعر الحديث ، شعر التفعيلة ، إذ لم يكتف فؤاد حداد بألا تكون السطور متساوية التفعيلات ، بل تجاوز الأمر إلى إدخال تفعيلات في تفعيلات أخرى، إدخالاً لا يصدم الأذن القارئة) و ستجد.. وستجد...

5. إننا أمام شاعر يلقي بذورًا درامية في أرض قصائده، يغير المواقف والخطاب في القصيدة الواحدة، ولو رجعت إلى قصيدته «**السجن أوله القنال**»، ستجد خطابًا يوجهه صوت الشاعر للشهيد، ثم ينقلب الخطاب (أو المخاطبة) إلى غنائية للشهيد، ثم يتوقف لنسمع بين ثنايا القصيدة غناء الشهيد بنفسه (الذي يعتبره الشاعر ردًا عليه)، بعدها يوجه خطابه (أو مخاطبته) كشاعر إلى الناس بما تعلمه من رد الشهيد.

6. إننا أمام شاعر تسحره القوافي، يترك لها شعره (تجيبه وتوديه)، مادامت تأتيه هينة لينة، وفي موضعها، و ما بقيت تثري شعره ـ بما لم يكن يتوقعه ـ من انتقالات إلى أفاق مرغوبة غير مصطنعة أو محسوبة قبلاً، ثم هو يداورها ـ القوافي ـ كما تداوره، يحاورها و تحاوره، ويلاعبها وتلاعبه، لأنه سيقبض عليها بيد من حرير بعد ذلك.. ولن يفلتها ولن تفلته، أقرأ معي هذا الغريب في وضع القافية بابتكار: «**سخط أمواجه طمت/ والقرف زي ما كان/ وجسومنا أتحطمت/ والغلا زاد عما كان/ واليتامى أتلطمت/ والشقا في كل مكان..**»،

7. لاحظ أن القافية ذات التشابه الصوتي جعلها في الشطرة الأولى (طمت، اتحطمت، اتلطمت)، ولم يجعلها كالمعتاد في نهاية البيت (روى الشطرة الثانية)، ولكي يظهرها في مكانها ثبت القافية الأخيرة (ما كان، ع ما كان، مكان)، وهو نسق تحس شعبيته، لكنني لم أقع على مثيل له في الأدب الشعبي، وفضلاً عن ذلك فإن له حلاوة غير منكورة تستحق المغامرة، وقد كرر الطريقة في موضع آخر بتغيير يستحق الأنتباه هو الآخر، ولنقرأ معا: «**أنا في السجن صديقي/ وحبيبته بعيدةعنه/ و نا في السجن شقيقي/ وحبيبته بعيده عنه/ الليالي تروح و تيجي/ و حبيبته بعيده عنه**»، لقد ثبت الشطرة الثانية وكررها مرات ثلاثة، وكأنه يصنع بهذا التكرار ما يشبه «العديد» (البكاء على الميت)، ولأنه يقصد هذا التأثير جعل القافية في الشطرات الثلاث الأولى خافتة الرنين، بل وعمد في الشطرة الأولى للبيت الثالث إلى قافية فيها شبه صوتي بين (القاف والجيم) وليس تشابها حروفياً(الصعيد يقلب القاف جيماً، والصعيد هو مصدر العديد القوي في الأدب الشعبي!).. إن هذه الاختيارات لم تكن اختيارات عقلانية، إنها اختيارات وجدان منطلق، وإحساس غنى باللغة، والوجدان سبيل الشاعر الكبير يستقي ويسقي منه.

8. إننا أمام شعر يستلهم الأدب الشعبي في أشكاله (راجع ولعه بالموال، وأمثلة الموال الثلاثي في الفقرة السابقة) وفي موضوعاته، ولنأخذ قصيدته «الشاطر حسن» كمثال، وهو يبدأها «**اركب حصانك يا شاطر حسن/ في السجن ست الحسن والجمال/ أسيرة من أربع شهور طوال/ بينك وبينها الصخر والرمال/ أركب** حصانك يا شاطر حسن»، هنا بالإضافة إلى الموضوع ستجد استلهامًا آخر.. ستجد رنة صوت ولهجة «الراوي» الشعبي عندما يتوقف عن الحكي ويكلم أبطاله، وقد يستنجدهم، وهو ما يفعله فؤاد حداد في قصيدته، هكذا يكون قد استلهم الفن الشعبي شكلاً وموضوعًا وأداء(و في الديوان أمثلة عديدة على مانقصده بالاستلهام).

9. إننا ـ منذ البدء ـ أمام قاموس شعري سوف يثري محتفظًا بمفردات لن تغيب عنه (**الأدان، الشهيد اليتيم، النور، الإيمان، الوطن، الإنسانية، العرق، الشمس، القمر، النجوم، الرغيف، السجن، القضبان، الحرية،...**).

10. إننا أمام شاعر يخلط العامية بالفصحى «**أجسامنا قربان لرب الحرب يولمها**» (خل بالك من «يولمها» وهي من الوليمة) «**في سجن مصر وقل لي ليه/ مصر وكيانها مضاف إليه/ سجانه و الآ بتتسجن**» (خل بالك من «مضاف إليه» لفظًا وإعرابًا نحويًا صحيحًا)، وأنظر إلى «**كان في الزبالة جعان يدوّر/ على لقمة أخطأها العفن**» (لاحظ «أخطاها»)، « **إن اوشكت بالكلبش الأعمى يصدمها** »، لاحظ «أوشكت »، واقرأ دون تعقيب «**بؤس مجهول المدى/ سرّحوه المترفين/ والألوف رايحة كدة/ ع اللواتي والذين**» / من أولها ـ إذن ـ وهو يخلط العامية بالفصحى، ومنذ ذلك الحين ستصنع فصحاه مع عاميته مخلوطتين بميزان حساس لغة خاصة به ويشعره لغة «حدادية» ليست فصيحة ولا عامية، وليست بين بين ،(وخل بالك أنها ـ في الشعر ـ أرفع من الاثنتين)، وقد وصلت ذروتها في «الحضرـة الذكية»، وبعدها جعلت نثرة الفصيح أكثر حركية، وأكثر قدرة على الاكتساب والإثراء، لقد أغنى بخلطته (وصفته) ـ منضبطة المقادير ـ عاميته، وجعل فصحاه أكثر ثراء، وأصبح صاحب لغة فنية كالنخل فيها سموق ولها طلع نضيد.

10. إننا ـ في هذا الديوان ـ وهو أمر يحسب عليه ولا يحسب معه أمام شاعر فصيح ـ في أكثر من موضع ـ يحاول العامية، اقرأ معي:«**ع البرش مرمى جرعوه الأعادي/ يوم بعد يوم بالقوة كاس المنايا**» هذه تركيبة فصيحة فيها جمل اعتراضية لا تحبها العامية، مع أن الفاظها كلها عدا «جرعوه» ألفاظ تصلح للعامية، واقرأ «الشعر بعض الشعور في اللفظ والمعنى»، أيضًا هذه تركيبة فصيحة، واقرأ «**بعدما نجومك تولوا/ كانت السمراء تبكي**»، أشبه بالشعر الفصيح، وبتغيير بسيط تقرأ فصيحة هكذا «**بعدما نجومك ولوا/ كانت السمراء تبكي**»، وهناك غير ما ذكرنا، والأمر قد يبدو مدعاة لحيرة، لماذا وقد أتقن الزجل ألفاظًا ولغة وانساقًا موسيقية، نراه هكذا فصيحًا يعالج العامية؟.. وغيوم الحيرة هذه لا تنقشع إلا إذا تفهمنا الأمر محاولة للخروج من لغة الزجل إلى لغة أكثر فنية نجح في الكثير منها، ولم تؤت ثمارها في البعض.. والبعض هذا ، يدخل ضمن أخطاء الريادة، والاستكشاف، والتوغل في طرق جديدة، يقول صلاح جاهين في مقدمة أعماله الكاملة (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة1977م)

«هالني أن اقرأ نظمًا بالعامية ـ لـ«فؤاد حداد»ـ يسير في طريقه الخاص ويستمد منطقه من نفسه»، ويقول «قضيت مع فؤاد حداد زمنًا، لا أذكر طوله بالتحديد، لكنه كان كافيًا لأن تتكون فيّ نواة ما يسمى بشعر العامية المصرية، كنا نقرأ أشعار المقاومة الفرنسية، ويساعدني فؤاد حداد على فهم معاني الكلمات، وكنا نرفع عقائرنا في الأماكن الخلوية منشدين شعر العامية اللبنانية، والمعلقات الجاهلية، وقد تأثر «فؤاد» بخطابية الشعر العربي القديم أكثر مني، لأنني كنت قد بدأت أغازل الشعر الحديث الذي حطم عمود الشعر، والذي كان شعراء الفصحى قد بدأوا ينشرونه، ولكنه لم يكن ينزل لـ«فؤاد حداد»من بلعوم»، هذا ما قاله صلاح جاهين وهو يشير بإلماعة ـ شديدة التدقيق ـ إلى أن فؤاد حداد كان يبحث عن جديده في القديم، في الشعر العربي والشعر الشعبي، والعامية المصرية، واللبنانية، وفي أشعار المقاومة الفرنسية (لأنه كان مناضلاً)، وأن بحثه كان متاثرًا (في ذلك الوقت) بخطابية الشعر العربي القديم.. هكذا يحل لنا صلاح جاهين المعضلة، معضلة كون شاعر يتقن فنون العامية، ويبين ـ في أكثر من موضع في ديوانه الأول ـ وكأنه شاعر فصحى مازال يعالج كتابة العامية.

11. إننا إزاء شاعر يدون العامية مقتربًا في تدوينها من الفصحى أقرأ معي: «**والحق لاجله بيحرموك/ حقك ولاجله بتمتهن**» إنه يكتب «لاجله» وكأنها «لأجله»، وقد خففت همزتها، بينما كان شعراء العامية يكتبونها «لجله» و«لجلن» إذا كانت «لأجل أن»، ثم اقرأ: «**أسرع سريع اسبق مستقبلك/ في السجن ست الحسن ملوعة/ بين الأمل واليأس مقطعة**»، وبالطبع فإن الوزن يقتضي ـ أن تكون ملوعة «متلوّعة»، وأن تكون مقطعة «متْقطّعة». والواضح أنه أراد أن يكتبها بشكلها الفصيح، على أن تقرأ بالعامية، وهو يكتب «بعثر قمر ونجوم في حضنها» ويقصد أن تُقرأ «بعثر» بالتاء «بعتر» كما تقول العامية، ولقد بقى هذا الأمر مع فؤاد حداد حتى دواوينه الأخيرة، وكان يستهدف به خلود شعره، فقد كان يعتقد اعتقادًا جازمًا أن العامية متغيرة، وأن الثبات سمة اللغة الفصيحة، وأنه يريد لشعره أن تقرأه الأجيال القادمة،

بعد أن تتغير العامية، في دواوينة كلها سنجد «ضلمة» وقد كتبت «ظلمة» وسنجد الأعداد قد كتبت بعربية صحيحة «ستة عشر» بدلاً من «ستاشر»، و«تسعة عشر» بدلاً من تسعتاشر (إلا في عنوان الثورة في نور الخيال ، فقد كتبت ثورة تسعتاشر ، إذ لم يرد تغريبها عن الوجدان المصري ، فيما أظن)، وسنجد في الحضرة الذكية «ما عادش فيه أوهام تؤخرني» ويقصد أن تقرأ «تأخرني» لتنضبط القوافي كما يهوى، سنجدها كثيرًا - أكثر مما يتصور أحد - وهي تصنع صعوبة في القراءة لمن لم يعتادوا طريقته في التدوين، والحقيقة أن تدوين العامية شيء صعب، وغير متفق عليه إلى الآن، والقارئ يجد أكثر من طريقة في التدوين، وأظن أن في الأعمال الكاملة لـ«فؤاد حداد» (حين تنشر بعد أن نشرت لأحياء مازالوا بيننا يكتبون، لا بد من التنويه عن الأمر، إما في مقدمة أو في هوامش للقصائد).

12 . إننا إزاء لماعية فؤاد حداد وبريقه اقرأ معي وهو يكتب عن طبيب السجن، الذي أرادوا له أن يقرر أن السجين في حالة جيدة، برغم حالته المتردية، المهددة بوفاته، والتي وصل إليها «**جاب الطيب سماعته يسمع/ ماقدرش بين أضدادها يجمع/ سمع الأوامر أولاً**»، وقد يلاحظ القارئ أن سماعة الطبيب كانت تسمعه أصوات صدر المريض وقلبه والأوامر في نفس الوقت هذا تجسيد لحالة عجيبة لا يستطيعها إلا شاعر كبير، واقرأ معي: «**إحنا أمنا بشعبنا، وأنتوا كفرتوا بربنا/ والقرش والنسوان وثن**»، وهي طعنة ترد سكين الإلحاد إلى صدور من يطعنون به الشيوعيين، الذين يتكلم فؤاد حداد - صغيرًا - هنا بلسانهم، وليس بلسانه، إنه يقول «إحنا»، والذي يتأملها يجد أكثر من معنى ينطلق منها، وكلها تردُّ الإلحاد - بالله و«الشعب» - إلى نحور من لا يجدون ما يشوهون به الشيوعيين غير هذه اللعبة الممجوجة، واقرأ معي: «**لازم تحلم بالمطارق في الكفاح/ عشان تحلم المطارق في السلام/ وتعيش وتبني وتحكم ع الحديد**»، ويلاحظ القارئ ما فعله فؤاد حداد بالمطارق، إن لها في نظره وظيفة في الكفاح تدق رؤوس الطغاة، ووظيفة في السلام بعد التخلص من الجبارين، وهي تحكم على الحديد فتصنع، أما الحديد إذا حكم فالسجون مآل الشعب، ألا يقول العامة في مجازهم «راح في حديد»، حينما يقصدون أنه عوقببالسجن ؟.

13. إننا أمام شاعر يصل بالتجديد إلى أقصى ما يستطيع، بالرغم من سنه الصغيرة، وفي تجديده يصل إلى قصيدة النثر- سابقًا فيها في العامية - ما قررتـه الأسـتاذة سـنية صـالح في مقدمـة أثـار محمـد الماغوط الكاملة «دار العودة، بيروت، بدون تاريخ» من أنه - الماغوط - «أبـرز الثـوار الـذين حـرروا الشعر من عبودية الشكل» (في الفصحى) ونسبت له «خلق هذا النوع من الشـعر»، والغريـب أنهـا جعلت السبب لخلقه «هذا النوع» موهبته، التي لعبت دورها بأصالة وحرية، كانـت في منجـاة مـن حضانة التراث وزجره التربوي، وهكذا نجت عقويته من التحجـر والجمـود، وكـان ذلـك فضـيلة من الفضائل النادرة في هذا العصر «، بينما جاء الأمر إلى فؤاد حداد - بالتأكيد - استلهامًا من الـتراث الذي أحب نثره المتضمن لشعرية غير منكورة على مستوى اللغة، وعلى مسـتوى الشـكل الحـريص على القافية الرنانة في سجعه الجميل، وهو أمر كـان يعشـقه فـؤاد حـداد الـذي قـال لي مـرة »تصـور فلان (لا أذكر اسم الناقد، ولا أذكر إذا ما كان قد ذكر الاسم أمامي، كتب زمان عـن أشـعاري في مسرحية «الغول»، اللي عاجباك قوي دي، إنها تفتقر إلى الإيقاع هوه موش عارف إن أنـا - نفسي- - إيقاع..» حقًا كان إيقاعًا، وكانت الكتابة النثرية عنده إيقاعًا صـخاباً كـما في شـعره، وشـعرية دافقـة كأشعاره، ولم يكن غريبًا عليه - مستغربًا منه - أن يكتب - مبكـرًا - قصـيدة نثريـة، فالقصـيدة النثريـة تحتاج إلى إيقاع لا يشبه إيقاع بحور الخليل بن أحمد، وتحتاج لغة شعرية، وكان منـذ البدايـة يمتلـك الاثنتين.

كـان كـل هـذا (وأكثـر منـه مما لم أسـتطع التقاطـه) بـذوراً حداديـة، سـينمو أكثرهـا نمـوًا شـديد السرعة، وستختفي واحدة منها حين يرسو مركبه الشعري على مرفأ التجديد، الذي شـق في سـبيل الوصول إليه العباب، وضباب الريـادة، ولا يسـتعجبن القـارئ إذا مـا قلـت لـه إن مـا عجـل بنمـو البذور الحدادية نموًا تخطف سرعته الأبصار كـان هـو السـجن، ولعـل القـارئ يفقـد دهشـته حـين طالع البيتين اللذين بدأت بهما: «**والشـكر لـلي سـجنوني/ وبنيل وطمـي وعجنـوني**»، وأظنـه - فـؤاد حداد - قالها لغير ما وصلنا إليه، إذ كان دائمًا يردد أنه حين دفع ثمن نضاله الشعري ارتفـع ثمـن مـا يقوله برغم هذا تبقى ملاحظتنا - أغلب الظن - صحيحة.

قدم السجن لفؤاد حداد أشياء مهمة (بثمن غال يعز على الدفع)، أعطاه وقتًا لتدريبات شعرية مكثفة، وإنتاج وفير، أما التدريبات فكان فؤاد حداد يقوم بها مع إلف روحه الشاعر متولي عبد اللطيف، يرتجلان فيها الشعر على الرفاق، وأكثرها لا يمكن نشره، لكنها كانت تحدث أثرًا جميلاً، فالوقت عدو نزيل السجن والمعتقلات، والوقت الفراغ أكثر الأعداء عدوانية، فهو يأتي بالأفكار السوداء إلى عقل السجين، وقد يعمل على إنهياره (والبعض أصيب منه بالجنون)، وكان ضمن ما يشغل وقت الرفاق هي تلك الأشعار الفكهة، التي يداعب فؤاد حداد ومتولي عبد اللطيف رفاقهم بها، يحفظها الرفاق، ويتناقلونها، ويتندرون بها، وأذكر منها بيتين «من القليل الذي يمكن نشره» قالهما فؤاد حداد يومًا لصالح «عامل سكندري» وكان مسئولاً عن توزيع السجائر، التي ترد إلى المعتقل في الواحات بعد أن تتجمع عنده كلها من الهدايا، التي تصل إلى الرفاق، وكان فؤاد حداد وقتها وإلى 1979م مدخنًا كبيرًا، ويبدو أنه خاصم «صالح» (العامل لسكندري) لأنه لا يمده بسجائر إضافية، ولما دخل عليه صالح، قال فؤاد حداد مرتجلاً: «.../ **إن جبت هليود/ ريحتك عود/ يا صالح/ وإن جبت وينجز/ تكون منجز/ ونتصالح**»، ويذكر الشاعر سمير عبد الباقي أن جاءت فؤاد حداد أخبار بخروج السيدات من سجن القناطر، ثم تم نقل البعض، ومنهم سمير عبد الباقي، إلى سجن الفيوم، وظن الجميع أن سيفرج عنهم، فاحتفلوا بخروجهم إلى الحرية!، وفي هذا الاحتفال صاح فؤاد حداد:

«**إشمعنى يعني أنا الباقي/ من بعد ما خرجوا رفاقي/ حتى سمير عبد الباقي/ وفاطمة زاكي الكادراية**»؟ ، والسيدة الفاضلة فاطمة زكي هي المناضلة العنيدة، و زوج المناضل القديس «نبيل الهلالي»، المحامي المعروف، وصاحب الفضل الكبير على الحركة الطلابية، إذ كان يسند ظهور أعضائها في السجون ويدافع عنهم في أروقة المحاكم، غير الرائقة، ومنها هذه الأعجوبة التي كتبها على رفيق اسمه «بولس لطف الله» حين قال: «**أنا اسمي بالمقلوب/ هللا فطل سلوب**» ، و أنت تستطيع أن تقرأ « هللا فطل سلوب»، من اليسار لليمين ، فتجدها اسم المناضل الكبير (هل نضيق تلك إلى ما أسميناه اللماعية في شعرة ، أظنها بالتأكيد تضاف) .

.

أقول كانت تلك الدعابات تدريبات يومية، بل تدريبات كل ساعة توصل منها فؤاد حداد إلى أشكال جديدة في كتابة العامية، وأظن أن «الأراجوز» من نتائجها المباشرة.

شيء آخر وفره وقت السجن والاعتقال لفؤاد حداد هو وجود جمهور يتلقى أشعاره مباشرة بعد إنتاجها (والمتلقي عامل مهم في الخلق الفني ، عامل إيجابي وفعال)، وكان فؤاد حداد يضبط أوتاره ـ بالتأكيد ـ على مزاج هذا الجمهور المتنوع، الذي يتراوح بين الفلاح والعامل البسيطين، وبين أساتذة الجامعات والعلماء، مرورًا بكل الشرائح الطبقية، والمهن، وبالطبع كان هذا الجمهور هو الرفاق المسجونون والمعتقلون معه.

لكن الشيء الأهم الذي وهبه السجن والمعتقلات لفؤاد حداد كان التنوع الشديد الذي يمثله الرفاق، كانوا وكأنهم جاءوا إليه من كل مكان، على أرض مصر، ليعرضوا عليه فنون الشعب بحري وقبلي، صحراء وسواحل، نوبة وواحات، ويشهد ديوان «الحماسة»، الذي كان ينتوي فؤاد حداد أن يجمع فيه أحلى ما كتب الشعراء (ولو كان هذا الأحلى بيتًا وبيتين)، وأحلى ما سمعه في فنون الشعب، مدققًا ومحللاً في مكامن العظمة والحلاوة الشعريتين، وقد كتب فؤاد حداد في ديوانه « الحماسة » عدة صفحات، ولم يمهلنا القدر لي يتمه لنا، و الأوراق القليلة تشهد بأن فؤاد حداد كان تلميذًا نجيبًا لفنون الشعب في أربعة أرجاء مصر، يسمع في صبر ونشوة، ويتعمق فيما سمعه، ويصل إلى نتائج فنية تفيد مسيرته الشعرية، خذ مثلاً ، لقد كتب معلقًا في «الحماسة الجديدة» عن «**قولوا لعين الشمس ما تحماشي/ لا حسن غزال البر صابح ماشي**»، وهي الأغنية الشعبية الشهيرة، كتب «**ما أبوخ الفنانين الذين يمسكون بالقلم مثل المصححين ويقولون: غزال البر = غلط! ، حبيب القلب = صح، هؤلاء يا ولدي لم يأخذوا من أنفسهم شيئًا، فلا تلتفت إليهم ، فلن تأخذ منهم شيئاً، تلق مني دروس الشعر، ولا تخرج خروج الآبقين، حبيب القلب: صح، غزال البر: أصح، فهكذا كان يغنيها فتحي خليل (في المعتقل)، وهكذا تلقاها من الشعب الذي هو أفقه منهم في النظم، وأروق في المزاج، وأدق في التعبير، والدندشة**»، هكذا كان يقلب الأمور فيما يسمع لا تفوته الحلاوة ودقة التعبير ولا يضحي بالدندشة، ويعلق على «**طالعة من الحمام شبه الخوخة/ والبوسة م الشفة تجيب الدوخة**» من نفس الأغنية قائلاً: «**يا أنحاء ضلوعي أربعة مثل تلك الجدران ثم الأبراج والأكشاك، وأسفار الفضاء، وأقسم بالله العظيم إن الذي قال تجيب الدوخة.. ترد الدوخة أشبه بفؤاد حداد**».

كان فؤاد حداد مع رفاق السجون والمعتقلات مستمعًا ودارسًا وهاضمًا لفنون الشعب، و يقول هو « **و كنت أصمت السامعين، و كنت أسمعهم ، و كانوا يصخبون مع الخوخة، و كان قلبي أصخبهم للشجن ذاته ، و شجون أخرى لا تخطر لهم على بال** » .

لقد فتح جمال عبد الناصر لفؤاد مدرسة في اعتقاله الأول تخرج فيها شاعرًا كبيرًا، وفتح له جامعة في الواحات في اعتقاله الثاني ، تخرج منها اشعر الشعراء ، خرج فؤاد حداد من الأولى شاعرًا مكتملاً وضع يديه على جديده بكل ما فيه، وخرج من الاعتقال الثاني شهابًا لا يلحق في مسيرة.

إنني أتصور مصر وقد أرادت شاعرها فؤاد حداد، كانت سعيدة وهي تجمع له ـ بدل أن يجمع هو بنفسه في سنوات طوال ـ فنونها تلقيها على مسامعه، وفي قلبه ووجدانه، تعلمه سر صنعة السهام التي تستطيع أن تخترق الوجدان، وتفعل الأفاعيل، أتصورها سعيدة بينما كانت تبكي اعتقال عصافيرها وزقزقاتهم الجميلة، وحلمهم الذي هو أقصى أمانيها.

ولقد كان الشاعر الجميل «متولي عبد اللطيف» واحدًا من كبار مدرسي فنون الشعب في بحري لفؤاد حداد، وأستاذ كرسي المجاز الشعبي، وصاحب بئر الفكاهة الجميلة وغطائه، ولم يكن حرص فؤاد حداد على ذكر متولي عبد اللطيف مشاركًا في تأليف رائعتيهما المعضلة «الشاطر حسن» (التي صدرت في كتاب عن دار الثقافة الجديدة) من فراغ، فمتولي عبد اللطيف كان فنانًا ـ ولا يزال مد الله لنا في عمره، وحبال فنه ـ معجونًا بطمي شربين وناسها وفنونها في الحكي، لم يسجن مع فؤاد حداد في المرة الأولى، لكن أخاه الأكبر سجن، ولقد عرف فؤاد حداد شعر متولي وأحب براءته المعضلة، قبل أن يراه في الحبسة الثانية، ويذكر الشاعر سمير عبد الباقي أنه بعد خروج فؤاد حداد من السجن، وكان طالبًا ـ سمير عبد الباقي ـ في كلية الزراعة جامعة عين شمس، تعرف على صلاح جاهين، فنصحه بالتعرف على فؤاد حداد، ذهب سمير عبد الباقي إلى فؤاد حداد، وكان قؤاد حداد يعمل وقتها في شركة «النور للأفلام السينمائية»، وعندما عرفه بنفسه، و بدقهليته (التي لا تفتأ تجئ على لسانه وفي شعره) صاح فؤاد حداد (على مسئولية سمير عبد الباقي).

ـ تعرف بلدياتك متولي عبد اللطيف.

كان فؤاد حداد يقصد أن متولي عبد اللطيف من شربين ، و أن شربين من أعمال الدقهلية، ولما هز سمير عبد الباقي رأسه علامة أنه لم يعرفه بعد قال فؤاد حداد:

ـ إزاي الكلام ده... متولي ده اللي بيقول «شربين بلدنا وطول عمري فخور بيها/ وأحب ناسها البساط وأعشق لياليها».

وراح فؤاد حداد يكمل موال «متولي عدب اللطيف» معجبًا وسعيدًا، ولم تمض سنوات تقل عن نصف أصابع اليد الواحدة حتى تزاملا ـ فؤاد حداد و متولي عبد االلطيف في المعتقل ولم يفترقا.. ولحق بهم سمير عبد الباقي.

الآن تتضح الصورة، ابن الشريحة العليا من الطبقة الوسطى الذي انتمي إلى الكادحين، ووضع إشارات مهمة وفاعلة في تجديد شعر العامية في ديوانه الأول «أحرار وراء القضبان»، وجد اكتماله ورسخ معالم جديدة، وأساساته، في أرض الشعر في مدرسة السجن، وفي جامعة الواحات، حين علمه أنصار الشعب فنون من يناصرونهو يناصرهم، فخرج علينا من «الجامعة المغلقة» قادرًا على كتابة المسحراتي، تلك التي أفرز فيها عسله المصنع من فنون الأمة، من رحيق أدابها الشعبية، راسمًا أحلام ناسه البسطاء، ومنوها ومناديًا بها وعليها، بعدها أنطلق فؤاد حداد متخلصًا مما يجب التخلص منه من عباءاته القديمة الثلاث إلى أفاق غير مسبوقة، وغير ملحوقة أرسل لنا منها شعرًا ونثرًا هو تعميق لتطوير العامية، وأعمدة لتطوير الفصحى، وفي الحالتين كلتيهما كان يبني على أسس من تراث عريض، ومن ثقافة أعرض، ومن وجدان منضبط على الحلاوة والسمو الإنساني.

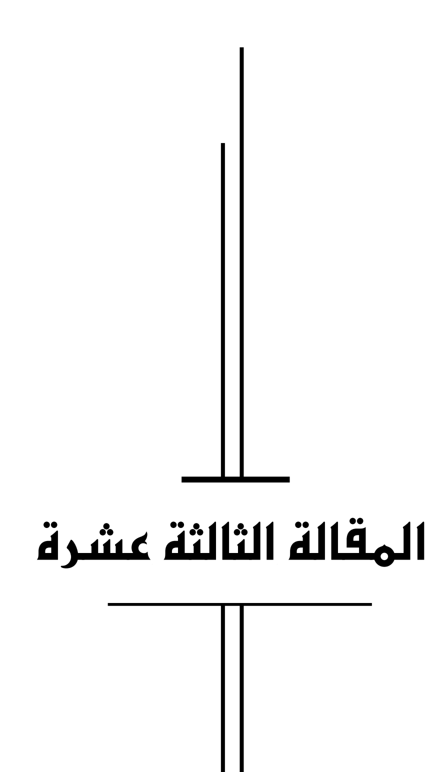
كان الشعر والمعتقل عاملين كبيرين في تطوير فن فؤاد حداد الشعري والنثري وعبر النوعي، سواء كثمن مدفوع مقابل فن يرتفع إلى مقام الشعب، أو كمدرسة وجامعة لفنون الشعب وآدابه، وفترة تمرس طويل، وإنتاج وفير ..

« و الشكر للي سجنوني

و بطين و ميه عجنوني ».

برغم هذا، وبرغم ما قاله فؤاد حداد وشكره لمن سجنوه، ولمن عجنوه بنيل مصر، الذي يخترق أرضها من أولها إلى آخرها، ويلقي بطميه في كل مكان خصوبة ونموًا وعطاءً وإنسانية، برغم كل هذا.. لا شكر لمن سجنوه..





المقالة الثالثة عشرة

16 يونيه 1981م أسعد يوم في حياة فؤاد حداد

- وفجر كان شامي حامل بشملة وبرقوق.. وصبر مصري اللي واخد منه لحسة يروق.. واللي سجد في الندى.. واللي سجد في الشروق.. واللي عبد ربنا في الطابق المسروق.. رضيت بصوتي اللي يجري من شقوق لشقوق.

«ف.ح»

- مواله الحزين الذي تنبأ فيه بسقوط بغداد.. وتراجع ليبيا

كان فيه ملك اسمه زيرو

وابن الملك كان وزيّره

وأسانسيرات المفاعل قاعدة بتفبرك

لابن الملك فوازيره..

ف.ح

تعاطوا مكاني وقد فتهم.. «المعري»

في يونيه 1982م ومع نجاح الاجتياح الإسرائيلي لـ«لبنان» في الوصول إلى مشارف بيروت بعد مقاومة سأسلة من مجموعات فلسطينية صغيرة، كانت إسرائيل تضربها برًا وبحرًا وجوًا بأطنان من دانات المدفعية الأرضية والبحرية وبالطائرات، ثم تقتحم المواقع بالدبابات والعربات المجنزرة يرجها الباسلون مرة واثنتين، وثلاثا.. ثم تسقط بعد استشهاد آخر من فيها لتفغر إسرائيل فاها من قلة عدد هؤلاء الذين أوقفوا جيشًا يستخدم أكبر كمية نيران وحشية في تاريخ الحروب (لكنه الجبن الشاروني المعروف، والجيب الأمريكي المفتوح يصب التكاليف والأسلحة والقنابل صبًا في يدي من لا يعرف الشراسة إلا في مواجهة العزل، أو حين يملك تفوقًا لا يقارن) في يونيه الثاني الأسود ذاك، ومع حصار بيروت، كان فؤاد حداد أكثر الناس حزنًا، ولم يعد لحزنه دواء يستطيع أن يقدمه المحيطون به، أهلاً وأصدقاء ثم جاء رحيل المقاومة الفلسطينية عن بيروت، وتلك المتاهة البحرية التي عانتها سفنهم، والبلاد ترفضهم الواحدة بعد الأخرى إلى أن استقر بهم الموج في تونس، كان حزن فؤاد حداد ينطلق مصريًا، ويفوح شاميًا، ويكتب بكل حروف الكمد، وكانت قناعته قد تضخمت وتعملقت بأن دخول إسرائيل ثاني عاصمة عربية بعد القدس هو هزيمة نهائية للثورة العربية التي بدأت بعد الحرب العالمية الولى، والتي توالت نجاحاتها بعد الحرب العالمية الثانية (لا علاقة بالثورة المذكورة بثورة الشريف حسين المقصود هو ى الحركات الثورية النضالية متصاعدة الوتيرة في العالم العربي، والتي كانت ما عرفت بأنها ثورة الشريف حسين خطا مضادًا لها وضع أثناء حياته، وصار أكثر وضوحًا مع سلالته ومشروع الهلال الخصيب)، وكنت أخالف الأستاذ فؤاد حداد في الراي حتى حين روعنا مجزرة صابرًا وشاتيلا التي يتبجح شارون ـ بعد دوره الحقير فيها ـ بالكلام عن الإرهاب وقد مات من اختشوا، كنت أرى أن خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان سينهى مرحلة ذات رؤية استراتيجية مغلوطة تقوم على أساس واه هو تحرير فلسطين من خارجها، تلك الاتسارتيجية التي ابتدعتها الأنظمة العربية، ودعمتها القيادات الفلسطينية نفسها، بينما الظاهرة كما يقول «هيجل» (الفيلسوف الذي غير القرنين المنصرمين)

لا تحل إلا من الداخل مهما كانت قوة العناصر الخارجية المؤثرة، كنت أتصور أن خروج المقاومين من بيروت هو إعلان لهزيمة تلك الاستراتيجية التي يروج لها في عالمنا العربي، ومن ثم لم يكن أمام المارد الفلسطيني في الداخل «المعطل» إلا أن يقوم بما عليه، وقلت لـ«فؤاد حداد» ذلك، ولم توافقني ملامحه الغاضبة المتقززة مما هو حادث في الوطن العربي، وأحسست به لا يريد أن يتكلم من فرط الألم، بينما سمعت صوته هامدًا داخلي:

«يتيم فلسطيني بالشكوى عليك بيلوف/ في كل كلمة من الأخبار عددنا ألوف/ ياما اللغة والمطابع ساقطة منها حروف/ أصرخ وتسمع لي زي الأمر بالمعروف/ وإن كنت ما اطلعش في الصورة عينيك بتشوف/ الدم طابق على زغب الطيور الخضر/ يا سامع المؤمنين سكّت سلاح الكفر/ دمي رقد في عروقي لسه حسي صغير/ أديُّ كل مغرب وحيّ وكل حلم أخير/ أمي اللي جنبي يتيمه أبنها الباقي/ عينيها مفتوحة لا تدوّر ولا تلاقي/ موش قادره تفهم سبب بين الجنان والويل/ ولا تستفيد من براح الدنيا غير الليل/ زي اللي هاديه عشان الضجة بتموت».

كانت عيناه تنطقان بصوته في داخلي، بينما تهربان من اللقاء بالعيون.. وكانت «مواويل من أول الدنيا»، الديوان الذي كتب مواويله الطويلة التسعة في شهري (أغسطس وسبتمبر 1982م)، يأخذه منا يمزق قلبه بسكين تلم ليخرج نزيفًا مباشرًا من القلب لم يكن يكتب كان ينوح نزيفًا وينزف نواحًا.

وذات ليلة قرأ لي ولـ«أمين» و«حسن» موالاً اسمه «طريقة الموال»، وكان موالاً عجيبًا في تكوينه، وفي إيماءاته التي تسمح بتعدد قراءاته:

«أسانسيرات المفاعل تجري بالأفقي/ على بليه ميكروسكوبيه تكلفك ملايين/ عدّت قنا السويس غلاية الغلايين/ تتزحلق الشمس ع الأسفلت وتزغلل/ كل الطرق لسه باعته لبعضها العناوين/ زي اللي موش داري بيحب اللي موش دارين/ زي الكتاب اللي بيسلم على القارين/ الزيت بيغلي ما بين الشمس والأسفلت/ من قار ونار منقار/ نقر بكل وقار/ والإنسانية بتسأل عن أخر وقرين/ وكيف يقولوا غيبة ف قرنها العشرين/ وهي متشرحة من الكبد والشراايين/ أضحك كما المجانين/ كشر كإنك جنين/

نسيت قالوا لك تقدم وإلا خلفا در/ وإلا اللي فوق راح يشخلل واللي تحت يخر/ سوبر أران شرّطك بالبشلة يا مسكين/ سوبر أران شرطك بالبشلة وأنت سجين/ سوبر أران شرطك بالبشلة وأنت حر/ سوبر أران شرطك بالبشلة/ ثم يلين/ ويكلمك بالدولار الفسدقي ومارلين/ وبالغبارة اللي تكسر ـ همّه التنين/ مرايه السيما سيما وحسها استرلين/ الموقف الاقتصادي.. الموقف الخلقي/ أسانسيرات المفاعل تجري بالأفقي/ على بليه ميكروسكوبية تكلفك ملايين».

كانت الإيماءات في مواله واضحة أو تكاد في عام 1982م، وكانت تسمح بقراءة عن هزيمة الثورة العربية في آخر مواقعها، المقاومة الفلسطينية (ولعلها اشد وضوحًا الآن بعد ما حدث في العراق، وما حدث في ليبيا!!).

كان يقرأ التاريخ،يقرأ الأمس، يقرأ الحاضر، يقرأ ـ للأسف الشديد ـ المستقبل المنظور!.. نحن ننفعل وننتظر ولا نتفاعل ونبادر.

الغلايين «الغلاية» جاءت لـ«عرابي»، ولـ«جمال عبد الناصر»، وللمقاومة الفلسطينية، ثم عبرت القناة ـ ككل مرة ـ إلى العراق مرات حتى أنفرد سوبر أران بمنتهى «الأرننة» بالكون في قبضته.

انتهزت فرصة أن زارني فؤاد حداد وكان من شدة القلق لا يكاد يرتكز على حرف الكرسي.. وعيناه كبندولين في دقة ينظران إليّ، وفي الثانية تنظران داخله، قلت له مسفقًا من نزيفه الناتج من نواحه النازف الذي بالتأكيد كان يقتص من عمره بما يضيفه من عبء على قلبه المريض.

ـ خلصت المواويل يا أستاذ فؤاد.

قال:

ـ لسة بتجيني.

قلت متأكدًا ومواسيًا في نفس الآن:

ـ أنا عندي ثقة في الشعب العربي.

قال ضاغطًا على كل حرف من الكلمات مرددًا بيتًا من مواويلة التسعة هو «يا ليل يا أسمر»:

ـ و«أنا في اختراع الأمل صاحب عشر براءات».

ـ أنا متأكد من كدة.

وقلت لـ«فؤاد حداد » إننا لم نراهن ابدا على السلطة، أي سلطة، وكل سلطة.. الشعب في عام 1919م أعاد «عرابي» عودة حقيقية تليق به من منفاه، بل من موته والشعب في الثلاثينيات هو الذي أوقف «الغيلان» عن إعاد الساعة إلى ما قبل دقاتها عام 1923م، والشعب هو الذي مهد، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لانتصار ثورة يوليو، وعندما كاد العدوان الثلاثي يكسر الثورة سند الشعب في الأقطار العربية وفي مصر ظهر زعيمه جمال عبد الناصر والشعب العربي في اليمن وفي عدن كان من تولى الرد على ضربة الانفصال.. وعندما نجح الاستعمار الغربي ومشروعة في إسرائيل في ضرب ثورة 23 يوليو وقف الشعب في 9 و10 يونيه يسند ثورته، ويساندها. ويدفع القوى كلها لتحرير الأرض، والشعب في السويس هو الذي سند ظهر الجيش الثالث حتى لا تحكم إسرائيل عليه حصارها بالثغرة لاشهيرة، والشعب هو الذي يقف الآن (وقتها للتطبيع معلنا أن عدو الأمس هو عدو اليوم وهو عدو الغد.

وفجأة صمت.. فقد ظننت أن فؤاد حداد الذي لا يرد على قد شرد بأفكاره بعيدًا في متاهة حزنه، لكنني فوجئت به يقول في غصة اشد.

ـ الشعب عمل ده كله.. ولسه ح يعمل.. بس هما بيفسدوا كل نجاحاته.

وقلت دون حاجة للسؤال عمن هم المفسدون:

ـ مادام بيفسدوا نجاحاته، يبقى بينجح غصب عنهم، وده معناه إنه ح ينجح تاني.

ولم تفلح جهودي وجهود غيري في انتشار فؤاد حداد من حزنه الممض القاتل، انتهى من المواويل لكنه استمر يكتب عن هزيمة الحلم والفعل الثوريين بالتفاف الثعابين لتعتصر ـ الفعل النضالي العربي، وتخنقه، وتتنفس بموته، وهذا مفتاح شديد الأهمية لفهم أعمال فؤاد حداد الأخيرة التي يظنها من أعتادوا المباشرة، وكل ما هو سهل فينا أعمالاً مستغلقة مؤكدين على أن هذه الأعمال (أم بنات، ريان يا فجل، كليم الشيخة أم الآه)، ينطلق فيها فؤاد حداد مما عايشه وحده، أو عايشه مع بعض الرفاق، وهو ما يستغلق على جمهور الشعر، ولعل حقهم الذي يريدون به باطلاً، دليل على تجاوز فؤاد حداد بإبداعه قدرتهم على القراءة وليس فقط على الإبداع، فالأعمال الفنية لا تقرأ بمعاونة جداول «اللوغاريتمات» الذي أسموه كثيرًا «الرمز» وأسموه «الإسقاط»، لكن النص قادر على الخروج من الخاص إلى العام إذا ما قرئ ببراءة لا يملكها تقليديو النظرة إلى الإبداع النص قادر على التسلل إلى الوجدان محركات العقل لاستكناة أسراره في قراءات تتعدد المشكلة ليست في النصوص المشكلة كل المشكلة في القراءة المعتادة منذ نصف قرن، والتي تحيل النص إلى ما هو خارجه لتتفهمه النصوص الآن ـ كما يؤكد المستحدث في علم الجمال ـ تقرأ من داخلها، وتفهم من إيماءاتها وحين يقوم النقد بدوره الطليفي سنفهم كم سبق فؤاد حداد، وكيف نستطيع ملاحقته بقراءة تدع النص يتفتق عن كوامنه، ولا تفرض عليه شروطًا من خارجه.

توفى فؤاد حداد في أول نوفمبر 85، ولم تمض سنتان حتى قامت الانتفاضة الفلسطينية الأولى التي غيرت وجه القضية، ووجدتني أقول ـ أنا العارف بأن الأعمار بيدي خالقها ـ ألم يكن لك أن تنتظر يا أستاذ فؤاد لترى أن شعب الداخل في فلسطين فعلها، وحرك الدنيا كما لم تحركها عشرون سنة من النضال في الخارج، ولعل فرحة أثمة تسللت إلى أعطافي في تلك الآونة، وأنا أرى أن ما توقعته قد حدث، ولم يدر ببالي ساعتها أن فؤاد حداد كان أبعد مني نظرًا، فبينما فشل الإسرائيليون في قمع الانتفاضة بكل الوسائل الرابينية اللاإنسانية، والبشعة في توحشها، تلك الوسائل التي لم تتورع عن هدم البيوت على الأحياء، وتحطيم عظم الأطفال على قارعة الطريق، بينما غزة تحرر نفسها، ويصرخ الإرهابي رابين أريد أن أغمض عيني وافتحها

فأرى البحر وقد ابتلع غزة، بينما يحدث هذا مدّ المتعجلون يدهم لينتشلوا رابين من أزمته من مأزقه الخانق في مفاوضات سرية تولدت عنها اتفاقية أوسلو، وما عرف بـ«غزة ـ أريحا»، وغدا بالمفسدين ـ رغبة في أن يكونوا هم لا الشعب أبطال الموقف ـ يحولون محطم عظام الأطفال إلى بطل سلام، وهادم البيوت على رؤوس أصحابها، ودافن البشر أحياء إلى واهب الحرية لـ«غزة» ـ التي حررت نفسها!! ـ حين قرر التخلص منها ولو لموج البحر، ولم تكن أريحا إلا للتعمية على رفض جنود جيش الدفاع الذي لا يهزم الخدمة في غزة.

يوم توقيع اتفاقية «غزة ـ أريحا» وبتر ذراع المقاومة الشعبية الفلسطينية الباسلة على مائدة المفاوضات اليوم الذي قال فيه إسحاق شامير دعوهم يوقعون فإن أمامنا عشر سنوات من مفاوضات لا تجدي لنعيد الأمور منوالها الأول تذكرت فؤاد حداد وتعالى داخلي صوته، «الشعب بيعمل.. ويعمل.. وهما بيفسدوا كل نجاحاته».

«شميت نفسي بني آدم زي قمح وعيش/ سميت نفسي بني آدم زي نور يلدع/ الفجر كان أحلى من جنية في المخدع/ أقولكإيه يا زمن يا عتره يا مجدع/ وأعمل لك إيه أنا فتمك في الكلام تفانين، فين القرود والأوادم والمغليين/ وفهمي باشا اللي عاش تسعين سنة في قلين/ والحوزة الاستعمارية مبطنة بفلين/ صرخ الزمن صرخه زي السبع أبو الشنبات/ أقف هنا حبة عندك قبل ما تطول/ أدي اللي عاوز أقوله لك من الأول/ الدنيا بتغني تركي وأنت بتجول/ وأمريكاني حلاوتك وأنت بتجول/ لساك في طور الزراعة لسة مسطردى/ لسه أنت راجل مبحبح، منكمش، طرقي/ وأسانسيرات المفاعل تجري بالأفقي/ على بليه ميكروسكوبيه تكلفك ملايين».

كان صوت فؤاد حداد يتعملق داخلي وهم يحاولون إفساد نتائج النجاح الباهر للمقاومة اللبنانية بزعامة حزب الله، ونفسهم يقصر في الانتفاضة الثانية، وهم يتجاهلون المقاومة الباسلة في العراق متحيرين أمامها أكثر من حيرة الأمريكي (وريشة دوخة البلجيكي)،

كان صوت فؤاد حداد يتعملق، وكانت نظرته الأبعد هي قلقي المتنامي على مصير الأمة، ووجدتني كلما رجعت إلى الأعمال الأخيرة لـ«فؤاد حداد» أقرأها قراءة جديدة. وأتفهمها تفهمًا جديدًا، وبينما الأصوات المغيظة التي شاخ إبداعها، فعجزت عن القراءة تتصايح بأن أعمال فؤاد حداد الأخيرة غير مفهومة، كان يأتي إلى عيني طه حسين في صورته الأرشيفية التليفزيونية وهو يزعم أنه لا يفهم «عبقريات العقاد»، محاولاً التقليل من شأن منافسه الذي بقى منافسًا بعد أن مات، ووجدتني أقول لنفسي ألا يشبه هذا هجوم من يتصورون أنفسهم منافسين للقفزة الإبداعية الأخيرة لـ«فؤاد حداد» وكانت نفسي الأمارة بالسوء تقول «هم ليسوا كـ«طه حسين»»، وبرغم كل شيء ستبقى «العبقريات» الحدادية.

«عشقت قعدتكم الحلوه ومراوحكم/ ومجيكم بكره يا أهل الحي لما أموت/ يمكن أسامي الشوارع راح تعطلني/ كان ياما كان النهار طالع بألف عمود/ بيطلق العصافير أخت اللبن والشاي/ أخت البليلة/ أخت الهدوم اللي بتصيف وبتشتي/ أخت البخور اللي جاي محود الرقبة/ ويغيب في صوت المكن والبياعين والقطر».

فين اللي عايز يقول لي

وأنا اللي عاوز أقول له

جالك كلامي!

ف.ح

الشعر ما يعاندش قلب كبير..

لم أر فؤاد حداد سعيدًا قدر ما رأيته في ذلك اليوم السادس عشر من يونيه 1981م، وهو اليوم الذي صدر فيه العدد 1328 من مجلة «صباح الخير» قبل موعده بيومين، وهي العادة التي سنها الأستاذ لويس جريس أن تصدر «صباح الخير» صباح الثلاثاء وبدلاً من الخميس الذي تتزاحم فيه المجلات الأخرى كان غلاف العدد يحمل إشارة جميلة «عدد تاريخي» وفي أعلان ـ الغلاف ـ حدث أدبي تنفرد «صباح الخير» بنشره الشاعر فؤاد حداد يبدأ في هذا العدد كتابة «السيرة النبوية» في هذا العدد وفي صفحات المنتصف الأربع أستقرت أولى حلقات «الحضرة الزكية» الأربعين من هذا العدد حصل فؤاد حداد على نسخ كثيرة، واشترى نسخًا، وبينما كان ضوء العصر ـ ذهبيًا يغزو حجرة «العقود» في بيت فؤاد حداد من شباكها الكبير دخلت رأيته متهللاً يكاد لا يستقر على الفوتيه بجسمه النحيف المرتسم بالسلويت على ضوء الشباك تاركًا مكانه الأثير الدائم على الكنبة «الاستوديو»ذات المكتبة لرفيق عمره ونضاله الأستاذ الراهب عبد المنعم سعودي، وبمجرد أن مددت يدي لمصافحة الأستاذ، وحدته يضع فيها عددًا من المجلة مختومًا بخاتم «هدية»:

ـ اشتريتها يا أستاذ فؤاد.. وقريتها.

وقال في مرح يليق بملامحه الشفيفة التي اعتدنا أن تتلبد بغيوم الحزن:

ـ اللي اشتريته موش زي ده.

ابتسمت لفرحته أكثر مما ابتسمت للدعابة، وقال فؤاد حداد:

ـ افتحه على صفحة النص.

فتحت العدد، وفي المنتصف في الهامش الأيمن وجدت خط فؤاد حداد بقلمه الحبر «الشيفرز»، وقد كتب قصيدة على عمودين.. كانت القصيدة لي.. وعني.. رحت أقرأها في تلذذ نهم يلتهم سطورها الخمسة والأربعين، والإمضاء الجميل تحتها «فؤاد»، وأنا لا أكاد أصدق نفسي.

- لأ.. موش زي اللي اشتريته.. ده عدد تاريخي بروحين.

وضحك فؤاد حداد كما لم يضحك أمامي من قبل.

- متشكر جدًا يا أستاذ فؤاد.

وتركني فؤاد حداد لأجلس وأنهمك في العمل.. كان يكتب في نفس المكان في عدد أمامه قصيدة أخرى لآخر من «إخوان الصفا».

في يومين كتب فؤاد حداد خمس عشرة قصيدة «إهداءات»، ونقشها بخطه الجميل في نفس المكان من خمسة عشر نسخة من العدد (نشرها في ديوانه التسالي تحت عنوان «باب الشاعر في الجنة وإخوان الصفا» فيما بعد).

كان هذا تأثير الفرحة في فؤاد حداد، ومطاوعة الموهبة الدفاقة خمس عشر- قصيدة كتبت ونسخت وأرسلت موسيقية متباينة، وبلماحية تلتقط كل شيء في المهدي إليه بصياغة مبهرة.

ولم تكن فرحة فؤاد حداد لسبب غير إنجازه الشعري المهم، ووصوله إلى ذروة لغوية لا تطال إلى جانب تقدير يستحقه من «صباح الخير».

كان التقدير يحيي فؤاد حداد، بينما أماته أن «الغد» حين أعدت عددًا خاصًا لتأبين حسن فؤاد، لم تضع قصيدته في المكان اللائق، وعلى الصورة التي تستأهلها..نعم، هكذا قتل فؤاد حداد نام مقهورًا بعد أن قال لـ«أمين»: «لم يقدروني حق قدري»، ودعا في حزنه القاتل ربه أن يمد في عمره لينتهي من المكاحلة والمعاماة، وهي نص أدبي عبر نوعي (يستخدم فيه فؤاد حداد «الروائي!!» كل الفنون الشاعرة والناثرة والمصورة)، وفي الصباح قام مقبوضًا، وأرتدى بذلته ونزل من بيته والكل ينام ليشتري الجرائد، وعاد بالجرائد ليموت على كنبته بذبحة صدرية قاتلة.

قتله عدم التقدير.. وكتب علينا ألا تكتمل «المكاحلة والمعاماة» التي ترك آخر ورقة كتبها فيها على مكتبه وعليها قلمه الشيفرز، ونظارة قراءته المدعومة بالبلاستر اللاصق، بينما تلمع على الورقة وتدمع حروف كتبت آخر سطرين في الفولسكاب السادس والخمسين:

«**مات اللي كان حالف يموت ولا يقطع دابر/ أمل المساكين في الأكابر**».

أكان السطران صدفة.. ربما!!

كان التقدير يحيؤيه.. والتغاضي عنه يقتله.

وقد أشاع شعراء صغار النفوس كبيرو الموهبة في حياة فؤاد حداد أنه رجل مادي يبالغ في المقابل الذي يطلبه لأعماله، أشاعوا هذا الأمر ليبعدوا عنه من يريدون أعمالاً، ويستأثروا هم بالأمر، وكانت لهم حيلة خبيثة يمارسونها حين يزورون فؤاد حداد، كانوا يتكلمون عن أثمان مغال فيها تلقوها مقابل أعمال لهم، فيطلب فؤاد حداد مبلغًا مماثلاً لما قالوه زائد قرش صاغ تقديرًا لموهبته، ومرة قال فؤاد حداد عن أحد المنتجين:

ـ موش عايز يديني قد «....» زائد قرش صاغ تصور.

وهالني الرقم، وقلت لـ«فؤاد حداد»:

ـ صلاح جاهين، وهو أهم منهم، مابياخدش الأرقام دي.

ولم أكتف بالقول.. أتيت لـ«فؤاد حداد» بما يثبت ما أقول.. ولما عاين الإثبات قال:

ـ طول عمري با أقول عن «....» إنه أصفراوي.

فؤاد حداد الذي فرح بالحضرة الزكية حين نشرت لم يستفد منها غير مائتي جنيه ملأت مكتبته بكتب السيرة قبضها «الزناري» من «صباح الخير» وكان متعهد توريد كتب للأدباء، وجاء بها على بيت فؤاد حداد كتبًا في جوال (عام 1981م) راح يصفها ـ فرحًا ـ فؤاد حداد بعناية في رفوف المكتبة بكنبة «الاستوديو»، ومازالت في مكانها حتى اليوم.

وقد روى لي الشاعر الكبير سمير عبد الباقي (مستغربًا) قصة من ذكرياته مع فؤاد حداد (وهي كثيرة) ملخصها أن فؤاد حداد حين ترجم للدار القومية للطباعة والنشر «لا مذكرات» لـ«أندريه مارلو» (الوزير والكاتب الفرنسي الكبير) كافأته الدار بمبلغ بسيط غضب له فؤاد حداد فنصحوه بأن يقابل د.سهير القلماوي وكانت رئيس مجلس إدارة الدار، وذهب فؤاد حداد إلى د.سهير، وعاد يحكي لمن نصحوه أن السيدة الجليلة حين علمت بحضوره قامت لتستقبله خارج حجرتها، وقادته على كرسي أمام مكتبها وجلست على الكرسي أمامه تاركة مكانها المستحق وأخذت تمتدح الترجمة الجميلة والدقيقة التي أنجزها فؤاد حداد واللغة التي صاغ بها كلمات «مارلو» حين نقلها إلى العربية، كان فؤاد حداد متدفقًا وهو يحكي.. واضطروا لمقاطعته.

ـ والفلوس يا فؤاد؟!

وكأنه صحًا من غفوة جميلة تساءل فؤاد حداد:

ـ فلوس إيه؟!

ـ فلوس الترجمة.. أنت موش رايح عشان فلوس الترجمة؟!

وقال فؤاد حداد بسرعة ليعود إلى ما كان فيه من بهجة لتقدير عمله:

ـ ما تكلمناش في الفلوس.

رحم الله فؤاد حداد.. عمد البعض إلى استبعاده بكل الحيل حيًا، وهم بعد موته لا يفتأون يحاولون لكنهم في كل احتفالية به يفاجأون بشبان وأولاد دون الخامسة عشرة، يملأون بنوارات المسرح القومي، يرددون أشعاره مع المؤدين، بل ويتصايحون بما يسقطه المؤدون من الأشعار بأمر الرقابة.

الطود شامخ.. ولو كره المتقولون

تحت العين أنا تحت العين..

وأنتي يا ستي فوق الحاجب

تحت العين وعملنا الواجب

ميت شبيكي وميت لبيكي

وبرضه موش عاجب....

موش عاجب

ف.ح

لو بيفهموا...

الذين يقرأون قصيدة فؤاد حداد الجميلة «على باب الله» في ديوانه «رقص ومغنى»، قد لا يعرفون حكايتها الجميلة المؤثرة والمعبرة في آن:

«فنان فقير على باب الله/ الجيب ما فيهشى ولا سحتوت/ والعمر فايت بيقول آه/ والقطر فايت بيقول توت * صحتني ليه يا شاويش يا شاويش/ أنا كنت سارح في الملكوت/ لما باأنام باأحلم وباأعيش/ لما بافوق وما باأفوقشي- باأموت * وتقول علىّ كبير السن/ وأنا في قلبي ود كتكوت/ وتشوفني باأبكي وباأنعي وائن/ والدنيا لسه بنت بنوت * أشمعنى قلبي ضناه الشيب/ من الشقا مهري ومنكوت/ قال اللي قال: العيب في الجيب/ والجيب ما فيهشي- ولا سحتوت * العمر فايت بيقول آه/ والقطر فايت بيقول توت/ على المحطة يا ولداه/ حتى المحطة كمان ح تفوت».

القصيدة جميلة أما حكايتها فهي الأجمل، كا فؤاد حداد في المعتقل قد صمم على أن يكتب في كل يوم قصيدة تشد من أزر الرفاق، وتعينهم على الصمود في وجه محاولات دؤوبة لقتل الكينونة (لا أقل)، وبالفعل راح فؤاد حداد يكتب قصيد كل يوم في الصباح يغطي وجهه وجسمه بالبطانية عازلاً نفسه عن المحيطين به، وكانوا يحترمون عزلته التي ستفجر لهم ما ينتظرونه من شعره، ويكتفون بملاحظة قدميه وهما تضربان بعضهما في إيقاع منتظم، فإذا ما رفع الغطاء تلا عليهم القصيدة، فيبقون اليوم بطوله يرددونها، وقد فعلت فيهم فعل السحر، وفي الليل حين يحرس السجن بالهجانة منتشرين بين دروبه كان جندي نوبي «هجان» من الحراس، دون أن يعرف المتقلون يقترب من الشباك ليسمع قصيد اليوم، وفي أحد الأيام نام فؤاد حداد مبكرًا فأظهر الجندي نفسه في الشباك، وأخذ يصيح ليوقظوا له فؤاد حداد، وبالفعل أيقظوه.. أقترب فؤاد حداد من الشباك وعقله «يودي ويجيب»، وفوجئ بالشاويش بلهجته النوبية المحببة يسأله:

ـ أنني قلت إيه النهارد؟!

تساءل فؤاد حداد متحيرًا:

ـ قلت إيه في إيه يا شاويش.

ـ في الشعر اللي بتقوليه كل يوم.

تنهد فؤاد حداد الصعداء، وأبتهج قلبه، وراح يتلوا على مسامع «الشاويش» قصيدة اليوم طازجة، والشاويش يتمايل بلون أدكن من لونه في ضوء الشباك الشحيح.. بعد أن انتهى فؤاد حداد من إلقائه.. سأل الشاويش عن رأيه.. وفوجئ بالشاويش يقول له:

ـ أنا لو من الحكوم.. لو بيفهموا.. كانوا طلعوا الناس دي كلها.. وسجنوكي أنت لوحدك في الصباح غطى فؤاد حداد جسمه ورأسه، وراح يدق كعبيه في بعضهما، ويكتب في صفحات ذهنة القصيدة «على باب الله».

كان فؤاد حداد يحكي هذه الحكاية سعيدًا بعشق البسطاء لشعره عندما يجدون الفرصة لسماعه حين تسمح الأداة الإعلامية التي تطالعنا صباحًا ومساءً، وفي كل القنوات محلية وفضائية بغيره.

وأذكر حين قدم فؤاد حداد ليلتيه الناجحتين للغاية في مسرحي «السلام» و«الجمهورية» في عام 1985م عام وفاته، أنه كان سعيدًا للغاية بأن الجميع يتكلمون عن فنه بما يستحقه الجميع من مختلف الأعمار (وإن كان حزينًا لأن النقاد لا يكتبون)، وفي غمرة سعادته قال ذات ليلة:

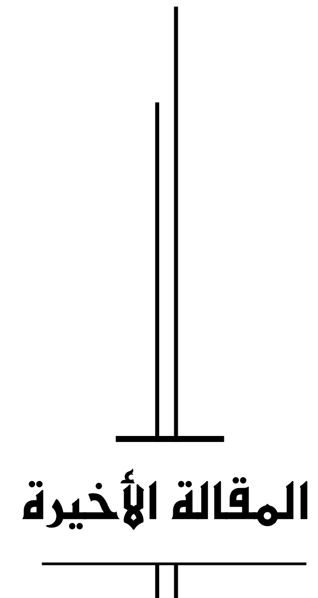
ـ تعرف.. كل اللي بيتقال ده، ومفرحني قوي.. ما فرحنيش قد اللي قاله لي الشاويش من شباك الزنزانة.

وسكت للحظة.. وقال متأكدًا من أنني أعرف من يقصدهم:

ـ على رأيه.. لو بيفهموا.

ووجدت نفيس أرد عليه:

ـ لو..!!



المقالة الأخيرة

كان يصلي صلاة الشكر .. حتى لا تحرمه السماء من الشعر

استميح القارئ عذرًا فيما أتمناه مؤقتًا عن استكمال الحكايات.. وحيث القارئ يقدر موقفي، فيحن بدأت لم أكن أتصور أن ما لدى ضخم إلى هذه الدرجة، وها أنا ذا أتوقف ومازال لدى الكثير.. ولتوقفي سبب ليت القارئ يراه وجيهًا كما أراه، فهذه الحكايات تحتاج إلى أمرين لتكتمل، والأمران ليسا موجودين بعد.. أولهما: أن تنشر أعمال فؤاد حداد الكاملة، وثانيهما: أن يتوفر جهد نقدي، يحاول متابعة إنتاج فؤاد حداد الضخم والعظيم، فالحكايات لا تستطيع أن تحمل على كتفيها الأمر كله، بينما الباقي منها يحتاج لغوص حقيقي في إنتاج بعضه نفد من الأسواق، والبعض الاخر لم ينشر بعد.

يا شيخ سعيد ليه رجعت لأول الحارة

من أخر الحارة؟ قال: من لهفتي وشوقي

جبت اللي سحرتهم سكنتهم فوقي

يربوا فوق السطوح زغاريد وتوليفه

ويشتروا حمامات بالمورد والليفة

قمر الصحارى كأنه جنيه بتعريفة

بأعرف تمن كل شيء ما دمت أنا المغلوب

وأعرف دموع القمر لما أن سئل أيوب؟!

استميح القارئ عذرًا فيما أتمناه مؤقتًا عن استكمال الحكايات.. وحيث القارئ يقدر موقفي، فيحن بدأت لم أكن أتصور أن ما لدى ضخم إلى هذه الدرجة، وها أنا ذا أتوقف ومازال لدى الكثير.. ولتوقفي سبب ليت القارئ يراه وجيهًا كما أراه، فهذه الحكايات تحتاج إلى أمرين لتكتمل، والأمران ليسا موجودين بعد.. أولهما: أن تنشر أعمال فؤاد حداد الكاملة، وثانيهما: أن يتوفر جهد نقدي، يحاول متابعة إنتاج فؤاد حداد الضخم والعظيم، فالحكايات لا تستطيع أن تحمل على كتفيها الأمر كله، بينما الباقي منها يحتاج لغوص حقيقي في إنتاج بعضه نفد من الأسواق، والبعض الاخر لم ينشر بعد.

وقد اتصل بي ـ كريمًا ـ الشاعر الذي أحب إنتاجه مثلما أحبه «عبد المنعم رمضان»وقال لي: لماذا لا تدعو لنشر أعمال فؤاد حداد الكاملة؟ إن فؤاد حداد شاعر ـ حسب قوله ـ يستطيع إنتاجه أن يقلص حجم الأمية الشعرية التي استشرـت وأفقدت الشعر جمهوره، وكان كريمًا أكثر فوصف الحلقات بأنها جهد في هذا السبيل.

ها أنا ذا أدعو لنشر أعمال فؤاد حداد كامل، وأتمنى أن أعود لاستكمال الحلقات ـ في الصحافة أو في كتاب ـ بإذن الله وهي بين يدي ـ بإذن الله وهي بين يدي الناس، وحين يقوم الإعلام بدوره في نشره أشعاره على غير القنوات المتخصصة لمن لا يستطيعون القراءة.

وأقول للقارئ صادقًا، عذرًا، إذا ما أوحشتكم غيبة فؤاد حداد، فإنها ستوحشني أكثر.. وفي النهاية لا بد لي وأن أشكر القارئ وأشكر المجلة، والقارئ والمجلة أعطياني ما أسعدني، وما لا أستأهله كله.

الله يبقى سر تخريفي

دخله فؤاد حداد في تأليفي

ف.ح

بتجيلي كده..

في بداية الثمانينيات كان فؤاد حداد وهو يقرأ لنا أشعاره كلما ذهبنا إليه «أكثر من مرتين ثلاث أسبوعيًا» إذا ما وصل عند بيت معين أو مجموعة أبيات يهدئ القراءة فلا تأتي تهدئته عبثًا، إذ تنطلق أهاتنا وربما صيحاتنا، فيبتسم في لؤم لطيف، ويعود لسرعته العادية في قراءته بالطبع كان فؤاد حداد يهدئ عند البيت أو البيتين أو مجموعة الأبيات الذي يعرف «هو دارس بتعمق للحلاوة الشعبية والتراث العربي» أنها ستنتزع الآهات إنتزاعًا من قلوب مستمعيه فضلاً عن أنه يستطيع بروزتها بإلقاء يفتت وجدانه على لسانه لتنطلق شظاياه مباشرة إلى وجدان المتلقي «فتافيت الوجدان المكتوبة، وفتافيته الأدائية»، وفي مرة قال لي فؤاد حداد جادًا:

ـ الحاجات الجامدة قوي دي بتجيني كده...

وحرك باطن كفه على الترابيزة الصغيرة أمامه في أتجاه أمتداد ذراعه، وفهمت من الحركة أنها توضع أمامه واضحة جلية، وقال مرتعشًا بفرح غامر:

ـ بعدما بتجيلي بأسجد على السجادة.. با أشكر ربنا.. ليتاخد مني الشعر.

كان يتصور أي شيء إلا أن يتوقف مرة أخرى عن القريض «بعد سنتين مؤلمتين نالت فيهما المهدئات ـ كما كان يقول ـ من إباعه حين أصابه النهج السادائي بمرض غير معلوم»، وكان يرثى لهؤلاء الذين فارقهم الشعر، والذين خدعتهم السهولة النسبية لشعر التفعيلة، فتوقف صوتهم الشعري «ملك سر» غير قابل للتجديد أو الإثراء، وكان أمين يقول:

ـ إن آخر قصائدهم يمكن وضعها في أول ديوان لهم.. وأن يلاحظ القارئ فارقًا، وكان فؤاد حداد يقول مفكرًا.

ـ صحيح .. وده يثبت إن الشعر.. ما هواش نول ينغزل عليه.. لا.. النول نفسه لازم يحصل فيه تغيير.. عشان الصوت يفضل على طول جميل.. الشعر موش بتقول إيه.. الشعر بتقول إزاي.. ويتجدد ربابتك إزاي.

وكان يصمت للحظة ويقول:

ـ الشعراء الكبار.. كل ما يكبروا تزيد حلاوة شعرهم، المتنبي كده.. وشوقي كده.. وادي أحنا بنحاول.

والحقيقة أن فؤاد حداد لم يتوقف عن محاولة التجديد وإنجازه حتى السطر الأخير في أواخر أعماله «فقد كان يكتب في أكثر من عمل إلى أن يغلبه عمل ليتمه»، ولهذا بقى صوته جميلاً وإبداعه لا يعرف إلا أن يخطو إلى الأمام.

وبعد الحضرة الذكية، وأثناء كتابته المواويل، قال لي فؤاد حداد مستغرقًا في التفكير بعد أن قرأ أحدهم «وأظنه موال السطوح في الأرض».

ـ أنا دلوقت اللي بيجيني كله ياحطه في القصيدة..

ولما لاحظ الدهشة على وجهي، أردف:

ـ تعالى بص..

وفرد أوراق الموال «الفولسكاب الثلاثين سطرًا دون شطب، بعد التبيض طبعًا»وهو يقول:

ـ بص لبناء النص..

وجعل فؤاد حداد يشرح في نصه متى يتفقتق من بعضه البعض، ومتى يجئ التكرار ليصنع أعمدة خرسانية يستطيع البناء أن يعلو فوقها، ومتى ترد كلمة على كلمة مضت بعدها القصيدة في سطور وسطور وسطور، وفي أية لحظة يدخل المجزوء (بيت أقصر من الآخرين في تفعيلاته لكي يلتقط الكاتب نفسه «القارئ المتلقى بالتالي» بعد لهاث طويل في الجري على السطور وكيف تترابط الأجزاء كلها في وحدة قبل النهاية، ثم كيف تكون النهارية ردًا مباشرًا على ما طرحته البداية وما فرشت له أولى العتبات (أبيات الموال الأولى)، ثم ترك الأوراق وأسند ظهره إلى شلتة الكنبة وقال وملامحه تشي بسعادته في عربية فصيحة حريصة على دقة الإعراب:

ـ هذا بناء شديد الإحكام بإذن الله..

ساعتها كنت غارقًا في التفكير.. لم أفق إلا وهو يكمل:

ـ لازم الشاعر يثق إن البناء سيحكم نفسه بنفسه.. عشان كده ما بأرفضش اللي بيجيلي.. با أحطه كله.. وبصراحة أنا أندهش بعد ما أخلص.. إزاي ده كله أحكم رص نفسه بنفسه.. وإيه ده كله؟!

وقلت منبهرًا:

ـ صحيح.. إيه ده كله؟!

وقال فؤاد حداد بلهجة المعلم الرقيق:

ـ أوحش حاجة في الشعر البناء التعسفي، وأحلى حاجة البناء لما ياخد راحته ويبيجي بنفسه.

وعاد فؤاد حداد يلملم أوراق مواله، ويهندسها الواحدة بعد الأخرى، وقام ليضعها مع أخواتها في حجرة تضم مكتبة الأثير.. وعاد منتشيًا وصاح:

ـ أصلك بتقول لي حرام تكتب الشعر ده كله ـ كل يوم.. وعايزني أرحم نفسي ـ! حد يقول للحول لما يجيله «لأ».

والحقيقة أن فؤاد حداد كان يتكلم عن أمور شديدة العمق في العملية الإبداعية في لحظات الخلق الفني.. ولنعد الآن ترتيب الكلام وتربيطه.

كان فؤاد حداد يكتب في أكثر من ديوان في وقت واحد، وهكذا لم يكن يضحي بجديد يجيئه وأكتمال يخايله، وكان ينتظر اللحظة التي يغلبه عمل من الأعمال، إذا لم يغلبه واحد منذ البداية للنهاية (حدث ذلك في «مواويل من أول الدنيا» و«الحضرة الذكية» وفي «النقش باللاسلكي.. ليالي وصباحيات» من أعماله التي تابعة ولادتها بل إن «النقش باللاسلكي» مثله مثل «الحضرة الذكية» جاءه مرتب القصائد كما تم نشرها 68 قصيدة أكثرها طويل في أقل من أشهر ثلاثة)، المهم.. حين كان فؤاد حداد يعرف أن عملاً قد غلبه على نفسه، كان لا يضحي باحتشاده.. ينام والشعر يخايله.. ويقوم مبكرًا فتأخذه الكتابة

وكان إذا ضمن الاحتشاد ضمن معه التداعي المنطقي في لحظة الخلق.. والتداعي المنطقي هو ما يقول عنه فؤاد حداد إن القصيدة تبني نفسها بنفسها، وما يقول الأبيات المبهرة توضع أمامه على المكتب هذا التداعي المنطقي الجمالي (وخل بالك من حكاية «الجمالي» تلك)، كان يتم لديه فيما نسميه «ما دون الوعي» فإذا ما انتبه فؤاد حداد بعقله الواعي، وراح ينسق كتابته بين خطين طوليين يضعهما بالرصاص الخفيف على الفولسكاب ويمسحهما بعد أن ينتهي من فرط الذهب خطأ عربيًا جميلاً على الورقة، وأثناءها يبدأ في اكتشاف الجمال والعلاقات المنضبطة بين مكونات المعمار في القصيدة، ويندهش كأول ناقد يرى العمل «النص».

هكذا كان فؤاد حداد يكتب أعماله منذ أغسطس 1982م وحتى وفاته في الأول من نوفمبر 1985م، هكذا كتب الأعمال التي تحتاج إلى قراءات جديدة لا تتخذ لها مرجعيات من خارج النص.. إنها دنيا قائمة بنفسها ليست مكتوبة بطريقة الإسقاط أو ما يسمونه الرمز، أو ما يقصدون به «التلسين» المغطى.. والحدق يفهم.

أدي الأجل جاني حقيقي

أما الأمل لسه ما تمش

زيتي اختلط ويا دقيقي

خرجت في الدنيا أطبش

وقعت في حابل نابل

أشد من ضرب قنابل

شفت الزمان اللي يهبش

يقول لي قبل ما نتقابل

مع السلامة يا عصفورة

ف.ح

حكاية الحكايات..

ذات ليلة ديسمبرية من عام 1981م والخريف يسقط أوراقه الوجودية الأخيرة والشتاء يدق الأبواب بيد غيمية الملامح قدمت لفؤاد حداد العدد الأخير «وقتها» من مجلة «الإذاعة والتليفزيون» وفيه قصيدة لي تحتفل بالعيد السبعين لميلاد كاتبنا العظيم نجيب محفوظ قبل حصوله على نوبل بسبع سنوات قام فؤاد حداد من مكانه الأثير في طرف الكنبة الاستوديو حيث يريح يمناه على مسندها الأيمن ضغط على «كومتراية» اللمبة الكبيرة (لمبة القراءة والكتابة) والتي تتدلى من بين فروع النجفة بتركيب خاص بها، اشتعلت الغرفة بضوء قوي، وبمساعري التي لا أعرف كيف أصفها الآن إذ كنت معجبًا بالقصيدة، أخاف على إعجابي بها من نظرة الجواهرجي المدققة، وضع فؤاد حداد نظارة القراءة على عينيه، وراح يقرأ بصوت جميل:

«شبعين سنة للآن/ أشجان.. وحلم.. ومغالبه/ شيخ حارة.. والعنوان/ واحد ميدان المراقبة أيا واسع المنظور/ دا برج والا ناطور؟/ سامع على سقفه/ دقة قلوب البشر/ موت الأديب.. حتفه/ بعده.. وقرب النظر/ ونجيب في بعده قريب/ نجيب في قرية غريب/ غريب بلا غُربة/ شايل على كتافه/ وجع السنين قريه/ عفريته في العلبة/ واللي فتح شافه.

قطع فؤاد حداد القراءة، ونظر إلى نظرة جعلتها نظارة القراءة أكبر من حجمها لم أفهم ما وراء نظرته كان فيها مزيج من الدهشة والأسى وأشياء أخرى تلمع ويصعب تحديدها، وقع قلبي في رجلي وانتظرت ما سيقوله لكنه لم يتكلم، عاد يقرأ القصيد من أولها، كما يشير اتجاه نظرته، وهذه المرة كانت قراءته في سره، أكمل فؤاد حداد قراءة القصيدة (الطويلة بعض الشيء)، وعاد ينظر لي بنفس النظرة لم يكن يراني بوضوح كانت نظارة القراءة التي مازالت على عينيه تجعلني شيئًا باهتًا، وهكذا كنت.. وبعد لحظات فوجئت بفؤاد حداد يقول:

ـ إيه ده كله؟! أمال لما أموت ح تكتب عني إيه؟

كلماته هذه تسببت لي في عقدة لا تمحوها السنون!

قلت له في أسى:

ـ ح اكتب عن حضرتك وأنت حي.. إيه اللي جاب سيرة الموت دلوقت؟! نجيب محفوظ عايش..

لا أكره في حياتي قد ـ لفظة الموت على لسان من أحبهم فما بالك بموتهم نفسه.

حاولت أكثر من مرة أن أكتب عن فؤاد حداد في حياته، وفي كل مرة كانت كلماته (التي عقدتني) لا تتركني على سجيتي وأنا أكتب بينما لا يستطيع المرء أن يكتب إلا وزهو على سجيته متحررًا حتى من المنتوج الذي يبدعه.

ولقد حاول فؤاد حداد (شديد الذكاء) أن يخرجني من الأزمة التي أوقعني فيها لم أكن قد بحت له بأزمتي، لكنه ألتقطها من كلمات متناثرة قلتها عن قصيد أكتبها عنه، فحين نشر جزءًا ليس صغيرًا من «الحضرة الذكية»، قال لي الأستاذ أحمد بهجت الفنان الذي يكتب في الدين، والمتندين الذي يكتب فنًا خالصًا.

ـ العمل ده كبير يا فؤاد..

وضحك فؤاد حداد سعيدًا، وقال معجبًا بعمله يكاد يذوب من الفرح:

ـ الحمد لله..

وقال الأستاذ أحمد بهجت:

ـ أحنا ضروري ننوه بالعمل ده قبل رمضان بمدة كافية عشان يلحقوا ينفذوه..

وبينما كان الأستاذ أحمد بهجت يقلبها في دماغه ليرى من يوكل إليه بالكتابة عن العمل، قال فؤاد حداد:

ـ أنا عايز هشام هوه اللي يكتب عنه..

وكأنه لا يريد أن يراضيني، قال:

ـ هوه لا قط اللي حصل في لغتي في العمل..

وقال أحمد بهجت وهو يربت على كتفي:

ـ خلاص يا هشام أنا منتظر المقالة..

وبالفعل وتحت تأثير إعجابي بالقفزة اللغوية في الحضرة الذكية، ورغبة مني في أن يرى العمل النور.. بما يستحقه ـ في التليفزيون الرمضاني، كتبت، وذهبت بما كتبته إلى فؤاد حداد فرض رفضًا قاطعًا أن يطالع حرفًا من المقال قبل أن يطبع في المجلة، وقال:

ـ إن ما كتبته من حقك وحدك..

وظهرت المقالة وأعجب بها الأستاذ فؤاد وقال:

ـ غريبة.. أنت كتبتها بموسيقية رنانة، وبسجع جميل..

ـ ده إيحاء من العمل.

ـ ما هو ده الغريب اللي موش غريب..

بعدها عاد إلى القراءة.. وقال ضاحكًا:

ـ فيه سجع جميل، وسجع طاهر أبو فاشا..

وكان الأستاذ فؤاد يقصد أن طاهر أبو فاشا في ألف ليلة وليلة في غير مقدمتها، لم يكن يهتم بموسيقية الحوار، ولا بأن تكون قوافي السجع رنانة، وفرحت وقلت إنني شفيت من أثر كلماته «أمال ح تكتب عني إيه بعد موتي»، لكن فيما يبدو أن الإبداع شيء آخر، فما أن كتبت موالاً عن فؤاد حداد وأعجبني ورحت أحاول معالجة القصيدة حتى تأكدت من أن ما كتبته لن يبقى منه غير الموال فتوقف، ولمزيد من جرعات علاج نفسي رحت أردد الموال على مسامح فؤاد حداد (نشرته في مقدمة الحلقة الأولى من الحكايات) وقال فؤاد حداد في أمتنان مشجع، وهو يحني رأسه بأدبه الجمع المعروف عنه:

ـ شكرًا.

لكنني برغم ذلم لم أستطع أن أكمل القصيدة في مستوى الموال الافتتاحي، وربما كان خطئي أنني عرضت بعضها مبكرًا على فؤاد حداد وأنني فرحت..

ومات فؤاد حداد وحاولت الكتابة في تأبينه، وبرغم أنني لم يعجبني إلا بعض ما كتبت إلا أنني استشعرت ضرورة في أن أشارك في التأبين.

هل يتصور القارئ أن عقدتي لم تنفك حتى الآن..

وذات يوم في عام 1994م قلت لنفسي: لماذا الإصرار على أن تكتب شعرًا عن فؤاد حداد، أنت خائب في الكتابة عمن يملأون كيانك، وعمن لا يموتون داخلك، برغم شهادات الوفاة الممهورة بخاتم النسر المصدق، أبي لم أستطع الكتابة عنه، وأمي عجزت عن أعبر عن مشاعري تجاهها، وأردفت لنفسي ـ لماذا لا تكتب عن فؤاد حداد الإنسان والشاعر والشعر في قالب أخر غير القصائد، وهكذا تولدت لدى فكرة الحكيات.. وبدأت متحمسًا في كتابتها، وعرضت ما كتبت على أمين حداد وعلي محمد كشيك (حبيب فؤاد حداد وابنه الشعري كما قال عنه فؤاد حداد) وأظن أن تعبيرهما عن الإعجاب بما كتبت كان صادقًا،

بل إن أمين راح يسألني عن الحكطايات كلما قابلني، لكنني كنت قد عدت إلى ترددي، كنت أتكلم عن فؤاد حداد كثيرًا في الإذاعة والتليفزيون، وأكتب عنه مقالات وفرحت مرة فرحًا شديدًا حين شاهد جمال الغيطاني برنامجًا عن فؤاد حداد أعده بمهارة وجمال الأديب المتخفي في زي صحافي «وائل عبد الفتاح، وكنت ضمن المتكلمين فيه، وكتب عني منفصلاً عمودًا في جريدة «الأخبار»، وصفني فيه - كرمًا منه - بأكثر مما أستحق، وقال إنني فتحت له بابًا ليتفهم أكثر هذا الشاعر العظيم، وشجعتني كلمات الأستاذ الغيطاني، وعدت إلى الحكايات، ومرة ثانية غلبني ترددي، ثم حدث أن دعانا الأستاذ جمال الشاعر، الأستاذ صلاح عيسى وأنا، لنكون ضيفي برنامج جميل له في القناة الثقافية اللامعة التي أتمنى لو نزلت من الفضائيات إلى الإرسال العادي الذي يتلقاه عامة المصريين «لعلها دعو منشورة للأستاذ صفوت الشريف وزير الإعلام» وبعد التسجيل قال لي الأستاذ صلاح عيسى لماذا لا تكتب لنا عن فؤاد حداد إننا في مجلة «القاهرة» لم نعطه حقه بعد، وقال إنني أنتظر ما ستكتبه، وأقول لكم الحقيقة لقد اعتبرت كلمات صلاح عيسى توريطًا أسعدني، فأنا أعرف أنني لن أقدم إلا متورطًا.. فهل لمثلث أن يرفض أن ينال فؤاد حداد بعض حقه - أو قل القليل من حقه - بقلمي! لا يمكن.. كان هذا هو التوريط الذي فرحت به وله، ورجعت إلى الأوراق المكتوبة أقرأها، وأعيد صياغتها وفجأة، وكنت وحدي في البيت أكتب سابحًا في بحار لا أرض لها أو حولها في ذكريات لم أظنها بهذا الحجم حتى غمرتني كطوفان معشوق، فجأة وجدتني أكتب على الورق وسط الحكايات:

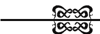
«قاعد ورا بأبي المقفول/ وقلبي غرقان في مناحته/ قلبي اللي بير أسرار وعذاب/ غسلتها لما منحته/ أبص للباب نقر خفيف/ خفيف شجر.. وأما فتحته/ دخل على فؤاد حداد × فينك يا عم فؤاد؟ أوحش/ غيابك الوقت الأوحش/ ادخل في حضني وأدبني/ شايفك أبويا وقد أبني/ قرب يا عم فؤاد ابني/ اللي أنهدم في زمان هداد.

هل شفيت من عقدتي.. أتمنى هذا.. والأيام بيننا.

لو يوم صحيت ولقيتها بعيد

لاسرق ريحتها بقطع الإيد

ف.ح



عود على بدء

كما بدأنا ننتهي إلى حين «بإذن الله»، وأعود إلى ما كتبته منذ سنوات في الحكايات وأخذه كما هو ـ دون إعادة صياغة، وأقول:

«كان فؤاد حداد أكثر الشعراء حدبًا على الشعراء كان حبه لهم نابعًا من حبه للبشر ـ حبه للإنسانية، وأرق البشر كانوا عنده هم الشعراء، وكان حبه ـ للشعراء أيضًا ـ نابعًا من حبه للشعر، وفؤاد حداد حبًا في البشر لم يكن يحب أكثر من الشعر إلا الوطن والعروبة، ثم كان حبه للشعراء ـ ثالثًا ـ نابعًا من حبهم لشعره، وحبهم له إذا ما التقوا بالإنسان فيه ومن حوله، نعم كان فؤاد حداد الإنسان يشع إنسانية تدور منجذبة إلى كوكبه.

كان يلتقي في بيته بمن يدعوهم من الشعراء، وأيضًا بمن يعرفون سبيلهم إلى البيت دون دعوة منه.

كان يحب من الشعراء ـ حبًا زائدًا ـ الشاعر محمد كشيك، ويرى بينه وبين محمد كشيك نسبًا وشبهًا ومقاربة، وأبوة وبنوة، وقد أوصى بأن يكتب على قبره بيتان من اشعر لمحمد كشيك، ونفذ أولاده ـ بحرص ـ وصيته، وقبر فؤاد حداد في أعماق الريف المصري في بلد زوجته معشوقته منقوش عليه لمحمد كشيك.

شاعر قديم على ناقة عربية/ شاعر جديد بيغني حرية

وكان يحب رجب الصاوي وشعره، ويستمع إليه في سعادة ويحرص على أن يبقيه في حدائق براءته، وفطريته المعضلة (التي كاد شاعر كبير آخر أن يحرفه عنها لولا أن لحق رجب نفسه) وقد شارك في تقديمه للإذاعة، وأشار عليه بأن يقرأ من شعره قصيدة معينة كان يراها الأفضل في تقديمه لكن رجبًا قرأ قصيدة أخرى وغضب فؤاد حداد له لكنه أخفى غضبه.

وكان يحب شعر أمين أبنه ـ في بداياته ـ ويتلمظ لرقته وجمال مفرداته، وكان لأمين بيت يردده لحبيبته «أمينة جاهين»، يردده فؤاد حداد رافعًا وخافضًا حاجبيه في سعادة «وأنا أنقله من الذاكرة».

أحبك أولى وأخرى/ وأحبك لما تتأخري..

كان فؤاد حداد يرقص قلبه لـ«تتأخري هذه».

وكتب حسن حداد صغيرًا جدًا:

«**الشمس فاتحة للقمر دكان/ أفرح يا سيد قشطة من قلبك/ افرح وخدلك صورة بالألوان**».

فعقد لنا فؤاد حداد مسابقة اشترك فيها معنا لكتابة قصائد تبدأ ببيت حسن الأول.

وكان يحب قصائد لشعراء كثيرين، وأبياتًا لشعراء آخرين قرر أن يجمعها ويكتب عنها كلها في ديوان أسماه «الحماسة الجديدة» (لم ينشر حتى كتابة هذه السطور) المهم كان بيته كقلبه ـ وضعره متاحًا للجميع.

وأذكر مرة أنني كنت أجالس فؤاد حداد في بيته، وكان في حالة انتشاء بعد أن أبدع إحدى قصائده، وكان يلقيها عليّ ويمتحنني في القوافي، كان يتوقف ليرى هل أستطيع أن أتوقع القافية، أو أتوقع مسارها، وكنت أخطئ فكان يقوم من جلسته ويميل ويلقي قافيته ويضحك متصايحًا:

ـ أصلك أنت بتاع قوافي!

وفي عز فرحته رن جرس الباب..

وحين يرن جرس الباب كان فؤاد حداد يقطع ما هو فيه ويصمت ترقبًا بعد أن يخفي ما في يده ليحسن لقاء من يجيئ.

كان شديد الحساسية

كان يقتله إذا ما زارك أن تنم عنك بأدرة خافتة، توحي ولو بشكل باهت بأنك لا ترحب بمقدمه في هذه الساعة.

وكان في عتابه الدائم على شاعر آخر كبير جدًا ـ يحبه كل الحب ـ يردد دائمًا:

ـ تصور إنه مرة أتاوب وأنا عنده!

إلى هذا الحد كان حساسيته..

ولأنه كان مفرط الحساسية كان لا يحب أن تبدر منه بادرة عدم ترحيب بأي زائر.. ولهذا السبب كان يخفي ما في يده من شعر حتى لا يشعر الضيف أنه قطع على فؤاد حداد استرساله فيما هو فيه يستشعر حرجًا..

كان الذي رن الجرس في تلك اللحظة شاعر شاب.

لم أكن أعرف ذلك الشاعر.. وفهمت من ابتسامة فؤاد حداد المرحبة أنه الآخر لا يعرفه.

أجلس فؤاد حداد الشاعر الشاب إلى جواره على الكنبة الاستوديو، وراح يرحب به، وقدم الشاعر نفسه.

نسيت ـ الآن ـ اسم الشاعر، كل ما أذكره أنه كان رفيعًا للغاية قصيرًا ذا وجه صغير تقاربت ملامحه حتى التصقت يضع نظارة طبية سميكة ويرتدي ملابس داكنه لعلها كانت سوداء، ولم يتكن لحيته ـ متناثرة الشعر بعكس ملامحه ـ حليقة، وكأنما أهملها من أيام طويلة.

طلب فؤاد حداد الشاي للشاعر.. ودعاه لكي يقرأ من شعره.

فتح الشاعر «أجنده» كحلية وراح يقرأ.

كنت أسمع وأرقب فؤاد حداد لم يتهلل فؤاد حداد لما سمعه، وأطرق كأنه يفكر أو كأنه يسمع!

وفجأة.. راح الشاعر يسب النيل والهرم!

واتنتر فؤاد حداد واقفًا، وتساءل في غضب لم يرد أن يكتمه:

ـ أنت بتشتم النيل؟

أندهش الشاعر الشاب:

ـ ما اشتموش ليه؟!

في هذه اللحظة حدث ما لم أتوقعه أبدًا.

جرى فؤاد حداد إلى حجرة مكتبه.

تركنا ـ الشاعر وأياي..

بهت، لم أدر ماذا أفعل لأنني لم أر واقعة كهذه من قبل.. ورحت أحس بثقل الثواني.

طالت الثواني.. وكان لابد وأن أفعل شيئًا.

ابتسمت.. قلت للشاعر ـ الذي لا يبتسم ـ متحسرًا:

ـ الأجنده مليانة.. ما أخترتش إلا دي؟!

لم يرد الشاعر.. ولم يبد عليه الاندهاش أو القلق، وبقى ناظرًا إلى أمامه كأنه يرى ما لا أرى!

وربما سمعني فؤاد حداد أتكلم، لأنه فجأة ـ أيضًا ـ أطل ببعض وجهه من باب حجرة المكتب التي يفصلها الحمام عن حجرة النوم ووجه كلامه لي:

ـ ده بيشتم النيل!

لم أرد متحيرًا وظل الشاعر جامدًا.

مرت لحظة وقلت كمن لا يجد ما يقوله:

ـ لحظة مضايقة، وجايز يغير رأيه في آخر القصيدة.

لكن فؤاد حداد كان قد اختفى مرة أخرى ليعود ويظهر فجأة ويسألني:

ـ أنت اللي بتقول كده؟

كنت دائمًا أردد أمام فؤاد حداد أنني لا أحب في موال صلاح جاهين الجميل «على اسم مصر» الذي نشره في «الأهرام» بعد النكسة أبياتًا يقول فيها:

«على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء

أنا مصر عندي أحب وأجمل الأشياء

أحبها وألعن أبوها بعشق زي الداء».

كنت أقول لا مصر شيئًا لنقول أجمل الأشياء.. ولا يحق لشاعر يحبها أن يلعن أباها حتى لو كان اللعن بعشق مثل الداء.

فيقول فؤاد حداد سارحًا كأنه يربت على جسد في الخيال:

ـ صلاح جاهين شاعر كبير قوي.. ده صاحب «غتنوة برمهات» وهو اللي قال فيك يا حديد روحانية.

فأظل أردد أنني لا أقبل حكاية أن الكسل «مسح قدمه على اسم مصر» ولا أقبل أن الغرب تأكد أننا «ناس رمة».

بماذا أرد على فؤاد حداد؟

يعتب المرء على صلاح جاهين بكل شاعريته وقد يضيق بشاعريته في قليل من ابياته.. لكن هذا الشاب وعندما تذكرت أول لقاء لي بفؤاد حداد عندما هاجمني لنني لا أستطيع أن أرى الأخضر ـ أيقنت أن فؤاد حداد يأخذ الأمر جدًا

وكما قام فؤاد حداد فجأة جلس فجأة إلى جوار الشاب الذي ظل وجهه محايدًا بشكل محير.. وفجأة أيضًا راح فؤاد حداد يخفف من وقع كلامه.. وأخذ يسأل الشاعر الشاب:

ـ أنت ما بتحبش حد يا أبني؟

وكان الشاب عاد من رحلة غياب طويلة.. رأيته يقطب مكرمشًا ملامحه ويهز رأسه كأنما تتحرك على «بلية» غامضة.

ـ إزاي يعني؟!

قال فؤاد حداد:

ـ سؤال واضح.. ما بتحبش حد؟!

ورد الشاب:

ـ الحكاية من حكاية حب.. ثم مفيش حب بدون أسباب.

وكظم فؤاد حداد غيظه:

ـ ما بتحبش أمك وأبوك؟!

ـ مش بالضرورة أحبهم لأنهم أمي وأبويا..

واتنتر فؤاد حداد مرة أخرى:

ـ كمان!

وقال فؤاد حداد ما معناه الشاعر الذي يبحث عن أسباب للحب لا يكون شاعرًا، وأن الشعر حب يتعالى ويترفع عن الأسباب.

لا أدري الآن كيف غادر هذا الشاعر بيت فؤاد حداد يومها.

ولم أره بعد هذه الليلة.. لأعرف هل وعى الدرس أو لم يعه، ولم أعرف ما رأيه في فؤاد حداد بعد هذه المقابلة، فؤاد حداد الذي قال عن نفسه صادقًا في كل حرف:

«أنا والد الشعراء فؤاد حداد

أيوه أنا الوالد ويا ما ولاد

قبْلسّة ربيتهم بكل وداد

بعدسة تلميذ أولى وإعداد

تسالي

«........»

ولا شهيد إلا ويتمنى..

لو إنه شاعر ثم لو غنى..

يا مقدم الينسون حت تتهنى

الجرسونات ح يطيروا على الجنة

وجهنم اللي بيقبلوا البقشيش

«تسالي»

فهرس الموضوعات